

30
على وجه الإنسانية

عِبَرَات وَبَسْمَات

محمود الزهير السبوني



قطم ایست حول

808-83 D23a

الدسوقي ، محمود ابراهيم ، متر.

عبرات وبسمات

808-83

D23a

FEB 9 1961

FEB 18 62

~~11~~

على وجه الانسانية

808.3

D231aA

عِبَرَات وَبَسْمَات

محمود البرهومي السبوني

59928

مطبوعة طبعه ونشره

دار سعاد مصر للطباعة والنشر

٧٢ شارع الفجالة بالقاهرة تليفون ٤١٤٥٥

١٩٤٥

Cat. May 1946

LIBRARY
UNIVERSITY OF TORONTO
100 St. George Street
TORONTO, CANADA



فهرس الكتاب

صفحة

تہ صیر

عمرات

[illegible]

١١٤ ... إكليل الغار
١٢٤ ... الشرر الأزرق

بیترو فی

[illegible]

سمات

١٦١		حكيم قاصص..
١٦٨		جمار عراف
١٧٥		رحلة الدّيسستر
١٨٣		ظل الحمار ...
١٨٩		ممکن جداً ...
٢٠٧		السوسن وبرعة الورد
٢١٤		تلميذ تارتيني
٢٢٤		الطفلان العجيبان...
٢٣٣		الهندي الأحمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبصير

في هذا الكتاب مجموعتان قصصيتان متباينتان تفردت كل واحدة منهما بلون غالب من ألوان الحياة . فالعبرات تجري في مسيلها سلسلة الفواجع التي تخللت أحداثها ، و « البسمات » تطالعك بأشراق المرح وطلاقة النفس مرتسمة ككتاهما على وجه الانسانية . وقد شاع في كل قصة نبض التجربة الخافقة بمشا كل الحياة ، وشع من كل قصة بصيص يكشف عن دفين النفس البشرية . والأقاصيص جميعاً فيما خلا قصتين لى وبعض التأملات قد ترجم معظمها عن الألمانية ، وبعضها عن الانجليزية . وبعض ما ترجم لمحة من الأدب الروسى والأدب الفرنسى . وبين العبرات والبسمات دراسة وجيزة بقلمى للفنان العبقرى لودفيج فان بيتهوفن إن شئت ألحقتها بالعبرات كما هو موضعها من الكتاب ، فهي أخلق بها وأدخل في بابها .

ويمثل معظم هذه الأقاصيص الذهنية الأدبية الألمانية في تعدد نواحيها وفي إشعاعاتها المختلفة الألوان . ففيها الرمز ، وفيها الفلسفة ، وفيها الخرافة ، وفيها الفروسية ، وفيها الروحانية . ولولا أننا اختصصنا أعمالاً أخرى لنا بالأسطورة لكان لها في هذه المجموعة المزدوجة نصيب .

وبعد لعله لا حاجة بالقارىء إلى تبصير بما في هذا الكتاب . فهو يطلع

بالفعل عليه وقد اشتراه ليقرأه لكننا نطمع في أن يقرأ فيه كل شيء . وقد يحسن إلى نفسه فيتناول ما يشتهي ويعرف عما يعاف . وقد أحسن أنا أيضاً إلى نفسي إذا تركت القارئ لنفسه فلم أثقل عليه بتبيان ماسوف يتبينه وهو يقرأ . فليس من حق أن أجرعه كل مافي الوعاء : ما يستسيغ ومالا يستسيغ . لكني مع ذلك عاجز عن مغالبة الرغبة في التحذلق وسرد أمهات المسائل التي عاجتها أقاصيص الكتاب . فما يزال جمع المرأة بين حب رجلين وإخلاصها لهما من المسائل الغريبة ، الواقعة مع ذلك ، التي يختلف فيها التعليل ولا يعي التدليل . كذلك الشعور بالبنوة لمن ليس بأب ، والشعور بالأبوة لغير ابن من الأحاسيس التي تطفئ على النفس فيكون مردها إلى تجاذب الأرواح .

وقد عاج الكتاب تواصل الأرواح وتجاذبها إلى عالم البقاء ، فكم من حق بميت وقد كان يهواه أو يفي له ، أو لا يطيق بعده . لكنه أن تهتز أوتار قيثارة وتنبعث منها الأنغام دعوة من روح إلى روح فأمر طريف جدير بالتأمل والاعتبار . وقد تناولت إحدى أقاصيص الكتاب سلطان النظرة على النفس . فنظرة واحدة تكفي لأن تجعل الحياة قيد دائرة لا تتخطاها ، وأن تلهب في الفؤاد نارا لا يخبو لظاها ، وأن تخلد حبا ظل وحى رسام وغاية الإلهام .

ومن موضوعات الكتاب عشق الحى للجماد ، وعشق الحى للميت : فهناك تمثال يقبله غلام بجمرة وتنتابه من نحوه مختلف العواطف . وهناك شاب يعايش ميتة في الذكرى كما يعايش الحى الحى .

والجمع في النفس الواحدة بين النقيضين فيكون المرء سخيًا وبخيلاً معاً ، كريماً وأنانياً معاً ، صارماً وليناً معاً ، شريفاً ولصاً معاً ، معتدلاً ومتطرفاً معاً ، خفيفاً ومتزمتاً معاً الخ . . وطلب النفس لما يؤبى عليها ولو كان الموت ، وضرورة الألم

لنفس لأن النفس لا تعرف الصبر على المتعة الصرفة ، وتبعية سليب الارادة الذى يسمو وينحط بارادة غيره ويعجز ويعجز بوحى غيره ، والرفعة والغرور والطغيان ذلك الصعود الذى يدفع إلى الهبوط ، والألم والعذاب والحرمان ذلك المصير الذى تقدمه الهاوية ، ومعاودة الصعود من دون عبدة ليعاود الغرور ويعاود الطغيان . . . والتضحية دائماً فى سبيل الغير ليلقى النكران دائماً . . . وفعل الخرافة والإيمان متزاملين متساندين لبعث الطائفة فى النفس وراحة الضمير . . . كل ذلك وغير ذلك قد تناوله قسم « العبرات » من الكتاب .

أما « البسمات » فتعى فكاهة الكتاب بوجهيها السافر والمحجب . وهى فكاهة هادئة تدعو إلى التأمل أكثر مما تثير الضحك ، وتترك على شففى القارىء ابتسامة هى وضاعة الغبطة التى أدخلت على القلب . وليست البسمات كلها فكاهة فإنه يدخل فيها أيضاً بعض ما اتسم فى الأقاصيص بالتفاؤل ولولا بسه نكد العيش ، وبعض ما يسر القلب من الشذوذ البرىء ، وبعض ما ينتهى إلى خير بعد مقدمات الشر . كذلك يدخل فيها ما يمكن أن يثير فى نهاية الأقصوصة ابتسامك الهادى لمغزى دقيق . ومسترى فيها كيف يتحالف الحكيم والحمار على رسم قواعد السلوك وكيف تكون السخرية من العلماء لبساطتهم وانطلاء الحيل عليهم أحياناً ، وتورطهم فى بحث الأنواع على غير أساس . ولا ننس ونحن نذكر الحمار أن نشير إلى ظله ، فإنه إذا كان الحمار يسوق الحكمة وهو مسوق ، فظله يكيد وهو مقيد ، وسئرى فى أقصوصة « ظل الحمار » كيف يوقع الظل بين بشرين ، وكيف يعلم الاثنين ألا يستهينا بارادة مخلوق ولو كان حماراً . وللحياة فلسفة عملية أوردتها « البسمات » ، تنسخ من ناموس النفس الأمل واليأس ، كعاملين حاشمين فى الحياة ، ولا تعرف الامتنامة إلى خير أو الغفلة عن

شر ، فهي أبداً تتوقع زوال الأول وحلول الآخر ، وتروض النفس على الرضا
لتهون الخسارة ويهون الكسب ، ويرتاح البال .

وفي أقاصيص « البسمات » شيء من الرمز لم تخل منه « العبرات » ،
يبحث على التفكير ، ويتضارب فيه الرأي ، ولا يعدم معه القارىء لذة فكرية
مهما يكن رأيه في المغزى صواباً أو خطأ .

ومن الأمور التي عرضت لها « البسمات » تنافر ما بين النظر والعمل في العلم في
« تلميذ تاريتني » عرض ممتع للثقافة النظرية التي لا تحسن التطبيق ، وللعلم النظري
الذي لا يحسن الأداء ولكنه يدخل على صاحبه الغرور ويسمه بيسم الشذوذ .
كذلك في « البسمات » تتنافر الطبائع عن ود باطن دفين يثير الخصومة بدل أن
يوجب الانسجام . وفي الطبائع ما يخطب ودك بشاكستك وما يسىء إليك
ليلفتك إليه ، وما ينتهى تشابكه بالعناق وعضنه بالتقبيل فلا يكون باعته على الاثنين
إلا حب أساء التعبير أو ضل السبيل .

وندع القارىء الآن وفي مرجونا ألا نكون أمللناه . وإلى اللقاء إن
شاء الله في كتابنا التالى « النفس الأما ره » والله ولى التوفيق .

محمود ابراهيم الرسوفى

القاهرة في ٥ يوليه سنة ١٩٤٥

عبارت
خوبی

الطاف

١

كان هو دون الثلاثين ، وكانت هي في العاشرة . وكان في رحبة عابدين أن التفت إليها أول مرة ، وقد لقيها في تلك الرحبة من قبل مرات . كانت فتاة مشرقة الحيا ، دعجاء العينين ، نابضة الأنوثة ، فكان إذا لقيها ابتسم لها ابتسامة متحفظة ، تملئها الشجرات البيضاء التي كانت تتخلل شعره الكستنائي الأجعد . وكان إذا تجاوزها أغلق دونها باب الذكري ، فإذا لقيها ثانية انفتح لها الباب من جديد .

وكان أن انتقل من حي عابدين إلى حي آخر قريب ، فلم يكن يدري أنها في ذلك الحي غير بعيدة منه . وكان أن هم ذات أصيل بر كوب الترام ، فإذا بها نازلة منه ، فابتسم لها ابتسامة عريضة ، وابتسمت له ابتسامتها المتهللة ، وتساءل هذه المرة : ما لهذه الطفلة كلما لقيتها اغتبطت بمرآها ، وكثيراً ما ألقاها ؟ ودار الزمن دورته عاماً فاثنتين فتلاثة ، وتقدم صاحبنا إلى أسرة في الحي يخطب فتاتها ، ثم توثقت الصلة برباط المصاهرة ، ثم وقف إلى جانب عروسه في ليلة الزفاف ، فإذا الطفلة في جملة الحاشية وهو لا يفتن إلى وجودها ، وهي لا تحول نظرها عنه ولا تكف عن الابتسام له . وإذا يتأمل الصورة التي أخذت للعروسين في ليلة الزفاف ، ويتصفح وجوه الوصيفات في الرسم ، ألقى الطفلة في جملتهن ، فسأل عروسه دهشاً : ترى من تكون ؟ فقالت مستغربة : إنها الطاف ، ابنة عمي ، فكيف لفتت نظرك بالذات ؟

وقص هو على عروسه قصته ، وضحكت هي لفعل الصدفة ، وباتت أطفاف من ذلك الحين محبوبة المنزل ، فلا تقضى فراغها إلا فيه ، ولا يحلو لها حديث إلا مع « أنشته » .

وأنشته في تلك الأثناء يزداد إعزازاً لها ، والتفاتاً إليها . ويعاملها كما لو كانت أختاً لزوجها أو بنتاً له ؛ فلا تعرض مناسبة من دون أن ينفجها بهدية ، ولا تقع عطلة إلا قضتها أطفاف في بيته أو معه في مصيفه ، فإذا غابت أطفاف افتقدتها ، وإذا حضرت اغتبط بها ، وإذا جلست إليه لم تزايلها تلك الابتسامة الحلوة التي كانت تتحدث عنها أشهى الأحاديث . وكانت أطفاف إلى ذلك عذبة الصوت ، لطيفة الحس ، ذكية الفؤاد ، تستشف رغبات أنشته قبل أن يفصح عنها ، فتحققها قبل أن ترحيها ، وتدور في البيت تفقش عنه إذا لم تلقه ، فإذا لم تجده انتشرت على وجهها الطلق سحابة خفيفة تحجب ابتسامتها ، فتضحك الزوج ، وتغبط بتعلق الطفلة بـيعلمها ، وتزداد أطفاف كل يوم تمكناً من قلب الزوجين ، ويزداد تعلقها بأنشته على مر الأيام .

٢

بلغت أطفاف الرابعة عشرة ، وانقطعت في الخامسة عشرة عن المدرسة ، وجعلت يد صنع تصبها في القالب الذي يثير الإعجاب والحسد ، وقل ترددها على بيت ابنة عمها ، وندرت روحاتها وغدواتها ، وكادت صلاتها بأترابها تنقطع ، وكاد انقطاعها عن العالم الخارجي يكون تاماً .

وأطفاف بعد في حاجة إلى التثقف ، وأنشته شاب مثقف . وهي تزهد في الزوار ، وهو دؤوب على ملازمة الدار . وهي لا تغشى إلا بيت ابنة عمها ، وهو

لا يزور إلا الأنسباء من أهلها . فمن غيره يكمل نقصها ، وينمى عقلها ، ويقوم على تثقيفها ؟ ومن غيرها يرحب بهذا ، ويسعى إليه ، ويلج فيه ؟ وهكذا أتاحت الفرصة لخروج الطاف عن عزلتها ، وغشيان الدار التي أحبتها وتعلقت بأهلها ، الدار التي شهدت طفولتها وناءها وأضاعت هي ظلمتها ، وسرت عنها كآبتها ، فابنة عمها لم ترزق ولداً ، وأنشته يقول : الطاف أعز عندي من الولد . ابنة العم دائمة السهوم والوجوم ، وبعلمها خلى في أغلب الأحيان من الهموم ، كلاهما مخلص لزوج ، منصرف مع ذلك إلى نفسه . لا يتصل بينهما حديث ، لكنه لا يمل حديثهما جالس . هي كثيرة الشجون ، وهو كثير المجون ، لكنهما حين يكونان معاً تنتشر فوقهما أجنحة السكون . فالزوجة تفكر ، والزوج مستنيم يكاد ينقطع عن التفكير ، وكلاهما باسط من الصمت جناحا على الآخر ، حتى إذا أقبلت الطاف خفق لها الجناحان ، وتحرك في البيت الساكنان ، وسرى في المكان روحها الطاق ، وأقبل عليها الزوجان يعبثان ، ويداعبان ، وأشرق الوجهان اللذان كانا إلى ما قبل الآن يتجهمان .

٣

كانت الطاف وحيدة أبويها إذ مات أخوها في شرخ الشباب ولما تكتمل لها أمانى أو تتحقق آمال . وكانت الحسرة التي خلقها فتدها كبيرة ، لكن العطف الذي أسبغ على الطاف كان أكبر منها . وكانت الطاف مدللة ، لكنه لم يفسدها التدليل ، ولم تكن تعرف الانفعال لأنه عنف ، والعنف ليس من طبيعتها الهادئة الرصينة .

وبلغت الطاف في هذا العشرين ، وباتت كالثمرة الناضجة بعد أن فاقمت

عمر الزهرة . ومرضت أطفاف بعد عافية سابعة ، وتحول هم الأسرة إليها ، وبذلت لها العناية التي ليس بعدها عناية . وجلس أنشته إلى سريرها ، وعيناه مخضلتان ، ولم تخضلا حين ماتت أمه ، ولم يك يعز في الدنيا سواها . واحتوت يدها يدها التي فوق صدرها ، وجست يدها يدها التي إلى جنبها ، ورفع يديه رأسها ، وحلق بعينه في عينيها ، فابتسمت له ابتسامة واهنة ، وطبع على جبينها قبلة راح بعدها ينشج نشيجاً عفيفاً ، ويكي بكاءً مرّاً . وهي تناديه بصوت واهن ، وهو معتمد رأسه بين يديه ، يخشى عليها ما خشى على أخويها ، فلم تنفع فيه خشية .

وضمرت الثمرة ، وذبلت الوردة ، ولبثت أطفاف طريحة الفراش أشهراً لا تعرف لها علة ، ولا يجدي معها نطس الأطباء . وغادرت أطفاف الفراش تتحامل على نفسها ، وتهافت أعضاؤها بعضها على بعض . وظل أنشته يلزمها في أوقات فراغه ، ويصطحبها إلى الحدائق العامة لتبديل الهواء ، وإلى الطيب لالتماس الشفاء

وأطفاف في خلال ذلك تتطلع إلى أنشته ، وتجد فيه الأخ الذي عوضها من أخويها ، وفي عطفه المسرة التي تغطي على حسنها ، وفي قربه الراحة التي لاغنى عنها . فاذا أمسك بيدها بعد ذلك ليجتاز بها طريقاً أو ليعاونها على ارتقاء درج أو هبوطه ، وإذا جذبها إليه خشية السقوط ، أو اعتمدها خشية التخاذل ، اطمأنت إليه ، وتهالك عليه ، وراحت تغمض عينها على — لا أدري — أحلم من أحلام اليقظة أو وهن من أوهان الفكرة . كانت أطفاف ترتجيه ، وتستبقيه ، ولا تترتاح إلا إليه . وكان هو يتلف عليها ، ويهفو قلبه إليها ، ويسائل نفسه غالباً : ما هذا الذي أحسه نحوها !! وتسطو على رأسه أفكار لا يطيقها

فيطردها ، فتعاود السطو ويعاود طردها ، ثم يعيبه هذا الكر والفر ، فيستنم إلى عبث الأفكار ويستسلم للأقدار .

وبينا هو جالس ذات ليلة إلى زوجه ، وهى تقرأ هذه المرة ، ولا تفكر ، وهو يفكر ولا يستقر ، إذا به يقول لها : اسمعى يا امرأة ! إني أخاف عليك وعلى نفسى من الطاف ! .

فقالت : ويحك ما هذا اللغو ! أتتال من الطاهرة ؟

قال : إن طهرها هو الذى يحتبلنى ويختبلنى . وقد ألفيت نفسى على حين غفلة منجذباً إليها ، فلن ينفع شئ بعد الآن في استخلاصى منها إنها تملأ نفسى وأتسرب روحها ، ولا أدري أية مرتبة من مراتب الحب هذه . فليس هو بحب الأخ لأخته وليس هو بالهوى ، وهو لا ترجيه الرغبة وإن حدثه اللفقة . وأنا فى الأربعين وهى قد جاوزت العشرين ، لكنى أنسى دائماً فرق ما بينى وبينها حين أجلس إليها ، حتى لأخانى قد ردتى الزمن إلى عاى الثامن عشر ، ورد على ما فاتنى من العمر . وليست مع ذلك تعتمل فى نفسى بواعث مما يجلب الأذى . لكنى أخشى عليك الطاف وأخشاها على نفسى ، فماذا أنت صانعة ؟

قالت وقد أغرقت فى الضحك : تزوج منها فما بت أصلح لك ! وعاودت القراءة وعاود التفكير . ونهضا عند منتصف الليل إلى النوم .

٤

الطاف تزوج ! ذلك ما بعثت به زوجه إليه فى أوربا وهو فيها ذات عام يصيف . وقد قرأى الأسرة على أن ينتظروا عودته وألا يبرموا فى أمر القران شيئاً إلا برأيه . وكان الخطيب قريباً للطاف من بعيد ، وشاباً مكفى الحاجة

ثابت الإيثار ، وهو إلى ذلك لا يكبر الطاف إلا بيضع سنوات . وقد أحب الطاف وكنم حبه ، ولم يكن ثم اختلاط فألح عليه هواه ، وأراد ذووه أن يزوجه من أخرى من أهل اليسار فغالب إرادتهم ولم يغالب هواه ، وتقدم إلى أبوى الطاف يطلبها لنفسه ، وخضع أبواه لداعى قلبه . وسئل أنشته في الأمر فرحب بالفتى بعلا لألطف ، وبعث أن أموا القرآن على بركة الله ولا تنتظروا عودتى فقد يطول الغياب وبعث إلى رؤسائه يستمهلهم إذ كان في الخارج لمهمة لم تنته بعد ، وكان خليقاً أن يتمها في الأجل المضروب لكنه لم يتمها .

وعاد أنشته آخر الأمر ليجد الفتاة التي طالما آتست وحشته ، وخففت وحدته وسرت السكابة عن بيته ، توشك أن تتقدم بكل هذه النعم إلى غيره ، فقال هنيئاً للفتى وهنا الطاف من كل قلبه .

وزفت الطاف إلى عريسها ، وألفت الطاف في منزل الزوج فراغاً لم تحسه من قبل ، ولم ينفع تردد الأهل عليها ، وتسريتهم عنها في سد هذا الفراغ . ذلك أن أنشته الذي اعتادت أن تراه دائماً ، ويراه دائماً ، قد كف عن زيارتها إلا فيما تدعو الضرورة إليه ، وكثيراً ماتجده غائباً عن البيت حين تقصد إلى زيارته . وقد زايله الاستقرار فلم يعد يلزم الدار ، بل هو أكثر ما يكون خارجها في المساء وبالنهار وعمد أنشته إلى صحب له كف عن صحبتهم من قديم ، فجدد الأمسية الخوالى ، واللهو البرى . وكان رجلاً لا يتخذ الصحاب إلا للمتعة روحية من حديث جزل يبادلهم إياه ، وإلا لتسالية فكرية من شوط في الشطرنج هو كل هواه .

وبرمت زوجه بهذا التحول ، وإن لم يكن فيه ما يؤخذ عليه ، وتنت لويعود إلى سابق عادته على ما كانت تلقى فيها من صمته ومن جلسته . وكانت زوجه تشبهه غائباً ، وترهد فيه حاضراً ، ذلك أنه كان إذا تحدث يرفع الحديث إلى

مستواه فلا ترجع ذهنيها في أغلب الأحيان صداه ، فيمسك . وهو لا يحب الكلام في المطبخ إلا ليتنى أن يرى فيه الرفوف منسقة ، والأرض لامعة ، والنفاية مقصية ، والأبجرة منفية ، والملح قبل كل شيء مغطى . ولا يلذ له سماع الكلام في الخدم إلى حين يلم بنتائج محاضراته في سوس الطبقة التي لا ترضى عن أحد ، ولا يرضى عنها أحد . لكن المطبخ باق على حاله ، فهو يكره ذكره ، والخدم دواماً مبعث انزعاجه ، فهو يبغضهم ويبغض الحديث عنهم .

وكانت زوجه مع ذلك حسنة التدبير ، طيبة القلب ، تحبه . بيد أنها في أغلب الظن لا تفهمه ، فالخصام من ثم أدنى إلى علاقاتهما من الوئام . وألطف التي كانت تجمع ما تفرق منهما ، وتنفخ فيه من روحها الوادعة روح الانسجام ، قد بانث لغيره . مُتَنعم بهذا التأثير الخير أفقاً غير أفقه . على أنه لا يدرى لماذا يبدى لها الآن قلة الاكتراث ، على كثرة ماتقبل هي عليه ! ولماذا يغضب منها لأتفه الأسباب ، فيخرج من عندها مُزَوَّراً ، على حين هي تلاحقه ، وتسترضيه ، وتذهب إليه في اليوم التالي تستعطفه ، وتعتذر إليه . إنه إذا تكدر توسلت ، وإذا رضى تهللت ، لا يصرفها شيء عن مرضاته ، ولا تغضب لنزواته . إنها تجم حين يُرتج عليها ، وحين تلمح كدره يتنقع لونها ، وتغيض الوردتان من وجنتيها .

وكانت زوجه تشد الراحة في كنف ألطف ، فهي تعمل على الجمع بينهما ، فإذا تهرب سدت عليه المسالك ، وإذا بنا في يدها وكلت إلى ألطف ترويضه ، فيستكن ويشرق ، ويكون الماजन الذي تحب مجانته . وهو مع ألطف وحدها لا يقوى على النظر إليها ، فإذا كانت زوجه معها رحب صدره ، وانفتح قلبه ، وفاض بالركة التي ألقها منه ألطف ، فلا تفتأ تنشدها فيه مهما قسا .

وكان يخلو أحياناً إلى نفسه فتنفعل ، ويغالب دمه فينفجر ، ويتساءل : لم

كل هذا ، فيتصامم عن الجواب الوحيد . وكانت ألطاف سعيدة في بيتها ، قريرة العين بزوجها ، شقية مع ذلك بتقلبات أنشته ، فهي أشبه من كل وجه بتقلبات الزمان . ولم تك تملك ألا تكثر له ، أو تحدثها نفسها بالصمود لجفوته . إنها تؤمن بمحبته وطيبة قلبه ، وشرف بواعثه ، وهي إلى ذلك تشعر بفضلها ، وتعرف جميله ، وهي إلى هذا وذاك قد بادلتها الابتسام ، وهي بعد طفلة لا تعرفه ولا يعرفها ، وهي إلى كل هذا وقبل كل شيء قد ساقتها الأقدار إلى طريقه ، فأسعدت أيامه ، وحاشاها أن تشقىها .

وضعت ألطاف ثرة الزواج السعيد طفلة جميلة أسمتها نوال . وقد نالت بها كل ما قدر لها في الحياة من هناء ، وكان خاطفاً سريع الزوال . فهي لم تكدر تستبشر بصياح المولودة ، وتطمئن بعد القلق ، حتى دق الباب طارق ، ودخلت امرأة عليها سواد . إنها عجوز لهم تحمل هدية الميلاد إلى الأم في حمى النفاس ! ماتت ألطاف ! ماتت ألطاف ولما ترضع طفلتها قطرات من لبنها السعيد . وهوى إلى جانب الأمل المحطم رجلان محطمان . فأما الزوج فأنفجر ببيكيها وهو بعد شاب ، وهي تاج الشباب . وأما أنشته فقد أذهله المصاب ، فوقف لحظة محملاً فيها ، ثم سقط مغشياً عليه ، فلما أفق كان ابن الثالثة والأربعين في الراحلين ، وكأنه في الثالثة والستين !

نوال الآن في العاشرة ، صورة طبق الأصل من أمها ، فهي تطالع عمها بتلك الابتسامة الطلقة التي كانت تطالعه بها أمها في مثل سنها . وقد رده كل سنة بلغتها نوال سنة إلى الوراء فهو الآن في عمره الحقيقي : في الثالثة والخمسين .

غير أن الذى لم تستطع نوال رده إلى عمها شعره الكستنائى الذى ذهب طعمة
للمشيب فى يوم الوفاة . وقد بقى له قلب يفيض بالحُب الأبوى ، الذى كان يفيض
به لألطف طفلة ويافعة . واسترد السعادة التى شُيعت مع ألطف إلى القبر ،
ورقدت إلى جانبها فيه . واستعاد الهناء الذى قد كان جفا الزوجين حقة من الزمان
لم يعد الصمت هو الذى يخيم على علاقات الزوجين كما كان فى سالف
الأوان . بل الصوت الذى يطلقه الحاضر من صدر الطفولة هو الذى يملأ جوها
بأعذب الألحان ، والبهجة التى تشعها نوال هى التى تنتشر فى المكان لتنسخ
الأحزان وتضى الأركان .

كلارا

وجدها في شارع فؤاد الأول ولم يكن رآها منذ ذيف وستين فتبعها . وكانت له غاية يقصد اليها ، ووجهة هو موليا ، ففسى غايته ، وتحول عن وجهته ، واتجه معها إلى متجر كبير في ذات الشارع يموج بسكان القاهرة وروادها . وكانت فتاتنا هيفاء ، شقراء ، في العشرين من عمرها ، لها مظهر أنيق ، وقد رشيق ، وعينان استعارتا صفاءهما من نقاء سريرة صاحبتهما ، فهما تشعان الهناء .

وصعدت في المتجر إلى القسم الذى تبغيه ، ووقفت قبالة خوان ، تقلب في بضاعته ، وتلفت إلى ما تقلب أترابها يمنة ويسرة . وإنها لعلى هذه الحال إذا بالرجل الذى تبعها في شارع فؤاد الأول ، وصعد معها في مصعد المتجر ، واقف بجوارها . ولم يكن بهذا القسم ما يطلب الرجال ، فلم تعجب لذلك وواصلت التتليب .

ثم رأت أن تطلب بغيتها على خوان آخر فتحولت اليه . وإذ لم تكن تتوقع المفاجئات فقد راعها أن ترى الرجل إلى جانبها هذه المرة أيضاً ، وحق لها أن تراع . وزاد في روعها نظرة منه أشاعت فيها الارتباك . فلم يكن في تلك النظرة معنى مما يداعب خيال الحسنة ، أو يغرى الرعناء ، ولا كان فيها ما يمكن أن ينال من هيبة رجل ناهز الخمسين في لباس الضباط البريطانيين . وكان صاحبنا برتبة ميجر ، مديد القامة ، جاف العود ، عريض المنكبين ، واسع العينين ، بارز الوجنتين ، حليق الشاربين ، يتردد بين ما ينبغى له في المتاجر والطرق ، وبين دافع قوى يدفعه إلى الفتاة .

وابتعدت الفتاة في المتجر على غير هدى ، وكانت لها غاية منه فتسيت هي الأخرى غايتها ، ثم وقفت أمام خوان تقلب في بضاعته حيثما اتفق .

وتقدم الضابط منها بخطوات بين الهيبة والرغبة جد وئيدات ، وحياها فردت تحيته بأخرى يشيع فيها الاضطراب والاستغراب .

فقال لها : أسمح الآنسة بخمس دقائق من وقتها الثمين ؟

قالت : آسف ياسيدى . فما لى وقت يتسع لمثل هذه المفاجئات .

قال : إذن فليتسع لكلمة ما منها بد ، وليس عيبك منها ضير .

قالت : ما أعلم أن يبنى وبين حضرة الضابط ما يحيز ذلك . وأنا إلى هذا مصرية مسلمة ، ولا إخالك تجهل تقاليد البلاد .

قال : أعلم ذلك لكنه لعله يطمئنك أنى لك : ثابته الوالد .

قالت : حتى هذا لا يسوغ لمثلئ أن تتف فى متجر مع مثلك .

قال : إذا لحظة !

وأخرج من جيبه ورقاً وقلماً ، وانتحى بهما ناحية من الخوان ، وجعل يكتب . ثم طوى الورقة ، وأخرج من حافظة نقوده شيئاً أرفقه بالورقة ، ثم وضع ذلك فى غلاف ، وناولته الفتاة وهو يقول : لا عيبك إذا أنت احتفظت بهذا الغلاف ستة أشهر ، وإذا أنت أعطينى عنوان أهلك . فاذا لم أتصل به فى خلال هذه الأشهر ففضى الغلاف .

وشد على يدها شدة رفيقة وثيقة ، وحدجها بنظرة تشع حنواً ورجاء . ثم حياها تحيته العسكرية وانصرف .

ومضت أيام ، وتواترت أنباء المعركة الدائرة في الصحراء الغربية ، وتقضى شهر أكتوبر من عام ١٩٤٢ والفتاة وأهلها ينتظرون أنباء الضابط ، وهم نهب للهواجس والوساوس والفضول ، وهم بين معتقد أن ماوقع قد كان مبعثه الشذوذ ، ومرجح أن في الأمر سرّاً من الأسرار . والفتاة في تلك الأثناء تسائل نفسها في شأنه الحين بعد الحين ، وتحاول أن تملل مسلكه فلا تهتدى فيه إلى اليقين . وهي في هذا تتمثل نظراته إليها فلا تجد فيها ما يريب . فهذه اللفتة التي تهالكت منه على حواسها قد أشبهت في تخاذلها لفتة المكروب ، وهذا الشعاع الذي انبعث من نظراته قد نفذ منها إلى قلب القلوب . فهي تحس نحوه عطفاً خفياً ، لا عطفاً عابراً سطحياً . وقد أضحكها مسلكه لحظة ، لكنه مسلك في نظرها ليس عليه غبار وهذا الغلاف الذي ائتمنها عليه وأسلمته أباه لم يمض على تسلمه إلا أسابيع هي عندها شهور . ولم تكن طلعة ولا ذات فضول ، لكنه اللغز يتطلب الحل ، والمطوى يتطلب النشور .

وذهبت الأيام في أثر الأيام ، والأسابيع تلو الأسابيع ، وكملت الأشهر ستة ، فاذا الفتاة تفرض الغلاف وتقرأ المسطور :

« منذ نيف وستين فارقت ابنتي ، وبعد نيف وستين وجدتتها . وجدتتها فيك فكأنكما خيالان أو حقيقة وخيالها . وأقسم أني جاهدت نفسي جهاداً هائلاً في تقبيلك على مرأى من الناس ، وأقسم أني أنكرت كل شيء إلا أنك كلارا وأنى ألقاها بعد طول الغياب .

لكن اليقين أليم . وقد صدمني في الصميم ، وإن كنت أكبر في نفسي هذه الاستقامة وهذا الخلق العظيم .

بهذا الغلاف ما أملك هو لك على سبيل التذكار ، لأنني أكون عندئذ في

لراحلين ، وأكون قد مت وقد نعمت برؤية كلارا قبل المات ، وفي هذا عزاء لى
أى عزاء لو تعلمين »

* * *

وجرت على خدى درية عبرتان هما درتان ، ونظرت إلى أبيها الذى إلى جانبها
فتضاءلت حقيقته ، وبكت أباهما الذى خطر على حياتها خطرة هى خيال من صنع الخيال

تأملات

١

فى يوم سبت من بناير من عام منصرم شبت عاطفة مكنونة فاذا هى تضطرم ، واذا ظرفها الطارىء يطبع أربعة عشر عاماً من حياتى بطابع خاص ، كانت العاطفة فى غضونها مودة فحسب ، اشتدت حيناً وفترت أحياناً ، وتفاوتت درجاتها بتفاوت الظروف ، لكنها بقيت مودة يغذيها ميل ، وألفة ، وجميل ، وعرفان. حتى كان يوم السبت ، فحالت العاطفة شيئاً آخر ، بدأغبطة يكتفها ذهول واستسلام ، ثم تنبه القلب إلى زائر جديد لا يعرف الاستئذان واستقر بين الضلوع شىء نسيت على مر الأيام اسمه ، فأحسست اليوم فعله ، وكان جارفاً ، أطار كل شىء من لب ونوم ، وبسط على نفسى الهادئة سلطانه ، فاضطربت واضطربت ، ولم تك تدين من قبل لسلطان كهذا يشبه البحران .

ومضت بين السبت والسبت ستة أيام ، لزمت فيها الفراش يومين ، ومخدعى ثلاثة ، وحررت فى بقيتها بين البيت والمكتب ، تارة آلم ، وتارة أنعم ، وطوراً تفترسنى كآبة تبیت معها قوتى ضعفاً ، ولا أملك أن أرفع فيها جفناً . أما طبعى الذى لم يبال فى حياتى أحداً ، فخاننى هذه المرة ، فكشفت عن أن أكون ما كنت

كنت أحب الوحدة ، والظلام الذى لا يقربه الخفاش ، لأنه نصيئته التأملات . وكنت أوزع مودتى على غير واحد من بنى البشر ، وأحس الميل الجامح إلى غير واحدة من بناتهم ، فلم أعرف فى التوزيع غير التسطاس . وكنت

أعجب أحيانا كيف أحب الناس هذا الحب العادل ، وكيف أتحرر إلى هذا الحد من سلطان التحيز والتحامل . ولكنى هذه المرة قد اضطرب ميزانى ، فاذا بى أميل إلى ناحية كل الميل ، وإذا تلك التى رجحت كفتها تستبد بى من دون أن تعلم وتستحوذنى على عظم جرمى فى طى إشارة لو شئت ، وهى بعد لم تشأ ولم تدر . بل قل : إنها تدرى ولكن لا تدرك وكيف تدرك وهى تعبت ، والأمر عندى جد ، وهى تلهو ، وأنا جدُّ حزين ؟

مابك يافتاتى ! الشباب الذى ترفلين فى غفلته ، وتخطرين فى روعته ، وتر فيه نظراتك واهنة ، فتصمى مع هذا إصماء السهم ، ثم لا شىء فى ذهنك غير الفراغ ، وكل شىء يضطرب به ذهنى ، ويديمى ، ويتألم
أأحسست دفء الايمان فى راحتى حين احتوت راحتك الدافئة بدم الشباب ؟

إذن فدعنى أذكرك يافتاتى بعض الذى بى : أحبك حباً خالط كل حواسى ، فأنا ابداً على ذكر منك ، وأنت على مرأى ومسمع منى .
رسماك أبداً مائل لعينى ، حاضر فى ذهنى ، فأنا فى الحياة أعيش بك وأنساق بآرادتك . أكون مع الناس جميعاً فى كل مكان ، ولا أكون إلا معك . . .
الغبطة التى تطغى على مصدرها أنت . والألم الذى يهد كيانى مبعثه أنت ، والمشاعر على اختلافاتها تتناوبنى منك ، ولا أملك أن أشعر لنفسى وبارادتى .
أتجبين يافتاتى أن أصدارك بما ساورنى ليلة امس ؟ إن نظرتك الواهنة التى خلعتك تؤثرينى بها نظرة للجميع . فهى من هذه الناحية عادلة وهى مما خلاها ظالمة خادعة .

إنك يافتاتى لغز . ميزتك الكبرى جاذبيتك . فأنت تجذبين محبيك

ومبغضيك على السواء ، ولا يلك المرء ألاّ يكثر لك .

ليس جمالك بالفاتن ولا بالذى يافت النظر . وقد ترين بالآلوف من دون ان تستوقفى احداً ، ويمر بك الآلوف مر الكرام . لكن كيالك جميل كل الجمال ، فاتن كل الفتنة . ولا بد من الوقوف عندك والتأمل فيك ليعلقك من يشاء ومن تشائين ، ويأسره منك إلى الأبد تلك النظرة الواهنة ، والابتسامة الحائرة ، والوجه الذى لا يمتاز بشيء فى تفاصيله ولكنه فى جملة جد أخذ

ماقولك يفتانى فيمن ظل أربعة عشر عاماً على رأى واحد فيك . وميل واحد نحوك . وكنت فى خلالها طفلة فى العاشرة ، وزهرة فى الرابعة عشرة ، وثمره شهية فى العشرين . ففكر فى غير الحذب عليك ، واستنشاق عبيرك ، والتطلع اليك . لكنه لم يقطفك ولم يجنك .

كانت زهرتك تغرى بالقطف . لكنه كان فيك مايرد الأيدى عنك . وكانت ثمرتك ناضجة شهية ، لكنها كانت الثمرة المحرمة . وكنت عزلاء إلا من ذلك العفاف الذى ينبعث من كيالك طهراً وبراءة .

ثم سددت يوماً إلى قلبى نظرتك المعهودة وفيها بريق غير معهود ، ومعها حاشية طيبة من الضحك الواهن الغالب عليه الحياء . وألفتك فى مجلسى مرحلة قد وسع فهمك مغازى الكلام ، ودقت إجاباتك عليها .

ثم ظلت جبينك العالى غمامة فأطرقت براسك ، واحتوتك كآبة وخفت صوتك . وكان سكون طال عليه الزمن أو قصر لا ندرى أو على الأقل لا أدرى واحتوت راحتك راحتى فاذا هما شعلتان . وحاولت ان أحرق فى عينيك فلم ترفعيهما إلى . والقيت عليك كلمة من عفو الساعة فلم تردى على .

ولبشناهنية على هذه الحال من الصمت فاذا نحن نتساءل معا : هل أسأت اليك ؟

وكيف تسبئني يا فتاتي وقد أشعرتني الهناء الذي كنت أحوم حوله أيام
الشباب ولا أناله . حتى كان يوم السبت من يناير من عام منصرم فخلقتني خلقا
آخر يدين لك بالوجود

٢

لا أدري یافتای کینه نظراتک ، ولا أخدع النفس بتصوراتی ، إنما یعینیک
سواد یغمر ضوءه فؤادی ، و یذیب حره جنائی . أسمع صوتک المتهدج تحاولین
أن تخلعی علیه المستحیل من ثباتک ، وأحس خفقان قلبی یعلوه هذا الشحم واللحم ،
فتخفی ضرباته علی وجدانک .

تضربين يافتي في حدود الثلاثين ، ولما تكادى ، وأغز أنا السير والأربعون
من ورأى ، فبينما ميسوغ لك مناداتي يا أبى . وكـم يحمل هذا النداء من عطف
ومن مرثية ! وكـم تتجلى فيه الحقيقة المرة ، وتشرق به النفس الظمأى إلى فيض
الحب ! .. كم يردنى إلى اليأس قدر ما أرتد إلى الأمل .. لكنى يافتي ، قد
آثرتك بحواسى ، وهى تهتف بك وتهيب ، فهل تستجيبين ؟

وكيف تستجيب يا صديقي ، وقد كان ما مضى كله عبثاً في عبث .. لقد
فتحت عيني عليه ، وكأنتا مغمضتين ، فروعني مارأيت : رأيت سداً هائلاً يقوم
بينى وبينها ، هو فرق ما بينى وبينها من سن . دروجى إلى الكهولة ، وخطرها
في مطارف الشباب هو الذى أترع قلبي غمّاً ، وأزال الغشاوة عن عيني ..

رأيت الأوهام بعين الحقيقة تمنع فراراً لا تلوى على شيء . وكأنها خشيت
أن تلقاني وجهاً لوجه ، فأبصق من مر الحقيقة على وجهها . خجلت أوهامي
فانحسرت عن بصيرتي ، وخلفت أثرها في السكابة التي لا تبرح تلازمي

ظلمتني يافتاتي حين أرخيت لى فى جبل الأمل فتعلقت به ، وشددت عليه .
وتشبت وكأني أتشبث بالحياة . وأية إيماءة حادة كانت تكفى لقطع الجبل لأنه
من عمل الشدوذ ، ومجانبة الحقائق ، والعمى عن الحدود . لكن جبلى لم ينقطع
بشيء حاد . نظرة لاحياة فيها ، لأنه لا اكتراث فيها ، كفت لأن تقطع جبل
أمالى بعد إذ كانت تحيىها فى سالف الأيام نظرة أخرى . وفتور أدنى إلى
التشاؤب وأوهى منه ، طعننى فى الصميم ، فكانت الصرخة التى فتحت عيني
على حلمى المنكوب .

بلى يافتاتى ! لقد نكبت كما لم ينكب غافل ، وعاودنى الرشد غير رشيد ،
وحزت الحسرة فى فؤادى ولن تزال تحز إلى الأبد

كنت ماثلة لعينى ، فى اليقظة وفى المنام . فى السر وفى العلن ، وخلياً
ومشغولاً ، ومغتبطاً ومكموداً

ومثلت لعينى بعد الخيبة أجلى ما تكونين ، وأنضر ما تكونين ، تعلو
شفتيك تلك الابتسامة الحائرة فتزيد فى حيرتى وتثير من حسرتى .

شربت المر ليعوضنى من حلوئى ، وألزمت حواسى حدها لأفر من طيفك ،
ثم عمدت إلى مخياتى وقد خفت على نفسى الخبال فمسحت منها صورتك إلى حين .
ثم ضبطت خيالك متابساً بالسطو على رأسى المضطرب وأعصابى المحطمة - وليس
بها لمثللك غناء - فأقصيته ، وأغمضت عيني دونه ، وذهبت ألتمس السلوان .

وكيف تسلو يا صديقى ، بل كيف تجبن عن احتمال الذكرى وتهيب وجه
الحبيب ؟ أترأك خشيت الألم ولوعة الهوى ، وما الهوى من دون لوعة وألم ؟
أتريد المتعة الرخيصة ؟ إنك إذن لأنانى أو عابث ، وإني لأعيزك يا صديقى أن
تكون هذا أو ذاك

فَلْيَغْشَ نَوْمَكَ طيف الحبيب ، وذهنك رسمه . وليكن تفكيرك فيه وعيشك به وله . وليكن بعد ذاك ما يكون . فالنار التي تتأجج في قلبك ، والجرح الذي يحسه صدرك ، يظهران نفسك التي بين جنديك . وما هو إثثار الروح على الجسد إن لم يكن في تعفك وعفافها . واطراح الاغراء من جانبك وجانبها ليكن جمال نفعها هو الذي يستهويك لا فتنة الجسد . وليكن صوتك في سمعها كصوتها في سمعك رحمة وخيراً ، لا شراً وإغراء

متألم حين لا تطفى المنعة نار قلبك المناجحة . فما نفعك بمنعة تطفى الايمان وتبيت القلب ؟ إنما نفعك بالآلم الذي يرهف حسك ، ويضيء نفعك ، ويخضع جسدك . إنما نفعك في البقاء لا الفناء ، في بقاء نارك مناجحة ، ونفسك نيرة ، بقاء للحب الذي لا تعرفه المادة . ولا ينبغي أن تعرفه ، بقاء لروحانية البشر التي تتمثل في الآلم . الآلم يا صديقي ولوعة الحب والكربة التي تذيب جسدك كالشمعة لتحترق وتضيء .

كل أولئك يا صديقي عناصر تجعل منك الانسان المنشود لا الانسان الموجود

٣

في ذهني صورة منك تنسخ كل صورتك : صورة التسلام بحمل كل معاني المنعة ، وبصمتك من عيني ومن يدي ومن حسي ، وكن خائفاً أن يغربني بك ، فلم يغربني . . . ملائتي إكباراً لك وتدهناً بك . لأن فيك شيئاً مقدساً يحميك دائماً من الأعين والأيدي . وحول رأسك هالة من الطهر تحوطه مرفوعاً ووطرقاً . فاختلاس النظر إليك نوع من العباة لا يحفره إليك الشيطان ، وأنت في صمتك بليغة ، تتحدثين بألف صوت كالسيد يغربني . . .

جوارحى دائماً مشغوفة بك ، مشوقة اليك ، يطر بها حديثك ويناجيها صمتك ،
وتستلهم الوحي من إطراقك . . .

ترى يا فتاتى ، بن كان شغلك ، وفيم كنت تطرقين ؟ . . . لا يغرنى
الغرور ، فأحسب اتجاهك كان إلى ، وأنت إلى غير العرض تتجهين . . . بل
أنت فى أكبر الظن تتساءلين . ماذا تحسین ؟ أخداع هو أم يقين ؟ . . .
وتقولين فى نفسك : أيجوز أم لا يجوز أن أجيب نداء ليس بعد من القلب ،
ولا هو من وراء اقلب . . . ولكنه يوشك أن يصدر عن الصميم ؟ ؟

تقولين فى أكبر الظن : إني فتاة عديدة التجربة ، وما أناذى أتعرض
للتجربة ، أقدم أم أحجم ؟ وإذا أقدمت ماذا يكون ؟ إني لا أملك الإقدام ،
لأنه شر ، ولا أملك مع هذا الإحجام . . . إني أتردد وسأبقى مترددة إلى
يوم الدين . ومن كان مثلى فسلامته فى الاعتصام لاني الإقدام . . . وقد اعتصمت
بجبل الله ، وحفظت جميله ، ومنحته ودى ، وجازيته على حبه حباً عذرياً طاهراً
أحس الغبطة فيه ، ويشير مع ذلك فى نفسى الأشجان

إذن فليكن ما تشاءين ، ولن تقف فى حبناً يافتاتى على قدم المساواة ، فأنت
عندى أسمى من أن أقف وإياك فى مستوى واحد ، وأكرم من أن أحشرو وإياك
فى صعيد واحد . . . وإني بذلت لك من نفسى أكثر مما بذلت لى من نفسك
لكن العبرة بقيمة ما أبذل وما تبذلين ؛ وقد بذلت لك عاطفة جياشة لم أحبسها
وبذلت لى عاطفة مكبوتة جاهدت فى كتبها ، فجاءت عاطفتى الجياشة أرخص
من العاطفة التى ما زلت تكبتين . . . وتجاوزت اليك الحدود ، ووقفت أنت
دائماً منى عند حد . . . فأنا أسخو بما لا يكلفنى جهداً ، وأنت تبذلين جهداً
جباراً فيما تكبتين وتكبحين

لا أدرك مبلغ ألمك لأنك صبوحة دائماً ، لكنى أحس الصراع فى نفسك بين واجبك نحوى وواجبك نحو الله . وقد تبدو المقابلة بين الموقفين نائية ، لكن الواقع لا ندحة عن ذكره والأشارة إليه . والواقع أنى أجاهد فى ربط مصيرك بمصيرى بهذه الصلة الروحية ، ويريد الله أن يكون لكل منا مصير ، وأنت بما أودعك الله من وداعة تصرفين السوء عن نفسك ، وكل شىء يزعجك حتى تلك العين التى ترنو إليك ، واليد التى تتلمس يدك ، والحس الذى يهفو إليك بكليته ليغمرك أو تغمريه .

كونى يافتاتى ما تشاءين فلن تكون مشيئتى غير مشيئتك . وليكن مايجيش به صدرى وفقاً على هذا الحيز الضيق ، حتى يضيق به فيكون من أمر الله ما يكون سابقاً أميناً كما كنت شهيداً كما تكونين ، ولن أنساك فى قيامى وقعودى وركوعى وسجودى ولو ذهبت صلاتى غير مأجورة ولا مثابة ، فحسبى أنها خالصة لوجه الله .

أنت يافتاتى شهيدة كأقدس ما يكون الشهداء ، قديسة كأكرم ما يكون القديسون . ليست عندنا أديرة ولكنك تلجأين فى نفسك المحتنة إلى دير حصين ، وقد تبقين هكذا طوال حياتك وأنقلب أنا مع الأيام ، فتبقين لى مثلاً أعلى ، وأبيت أنا بشراً ككل الأنام .

٤

خابت آمالى إلى اليوم مرات ، فكانت كل مرة تذهب بقطعة من نفسى . وأمس تلقيت الدرس الذى لم يكن مفر من تلقيه ، فالحقائق تؤلم وتصدم وتدمى فى بعض الأحيان ، لكن فيها شفاء للنفس بعد حين ، وقد تركتني صدمة الأمس

صريعاً بين التي أحببتها حتى العبادة ، والتي وددتها حتى الحب ، وجرح مصاب
الأمس كبريائى ، وعفرتنى بالتراب ، وأطاعنى على الخفى الذى عز إلى الآن على الأوهام .
أنت يا فتاتى قاسية لأنك قديسة ، رحيمة مع ذلك لأنك من بنات حواء .
وقد تركتك بالأمس لأعلم ، أ إلى تلاق ، أم تظنى كبريائى على حبي فيكون الفراق .
والفراق مر ، أمر منه أن نلتقى بعد الآن .

لقد حاولت جهديك أن تكونى مهذبة معى إلى غاية حدود التهذيب ،
لكنك لم تحاولى مرة أن تكونى لطيفة .

كان وجهك كقطعة من المرمر ، ناعم الملمس بارده . وكان مثله تتخلله تلك
المعانى الكامنة فيه . ولا يدلنى على شيء يهدينى إلى الصواب . شئت به الأنداز
فكان ، وشئت به الأخطار فكان . ثم حاولت أن أتلصص فى معنى من معانيه
عزاء ، فألفيته فيه ، لكنى لم أنته اليه . فبينى وبينه ذلك السطح المتجمد من
العاطفة الجائشة فيما يليه .

هذا هو فن المرأة التي لم تتعلم ضبط النفس من أمها حواء ، وإنما تعلمته من
غباوة الأبناء ، أبناء أبيها آدم . وقد كنت معها غيباً إلى حد ، ذكياً إلى حد .
لكن الخرق يعلق بالحكيم ، ولا تذهب الحكمة بالخرق العالق .

ترى لو رأيتك اليوم ما أنا فاعل ؟ أ كبر الظن أنى سأحاول أن أكون
فضلاً ، فلا أغدو أن أكون متهاكاً ضعيفاً ، وسوف تعود المياه فيما أتوقع إلى
مجاريتها ، وأعود خرقى ، وتعاودين دروسك . ولن أفوز يوماً برضاك المحض ،
ولن أعود أبداً بجفائك المحض ، وهذا مبعث تعاستى وهنائى .

حاولت بالأمس ، وإنى لمنصرف عنك مطرق الرأس ، أن أرفع فيك عيني ،
وفكرت فى تحيتك فلم أفعل ، وكنت أنت متغافلة عنى تأملين بقائى ، ولا تحاولين

استبقائي حتى تواريت . وقد تواريت وأنا معتمز الرحيل إلى غير رجعة فلم يصبح الصباح حتى كان حديث النفس إلى ختام ، وكانت مشيئتي قد تبلورت في عزم اكيد . حذار يافتائي أن تظهرى اليوم أو غدا فاني قاس مع نفسي رحيم معك ، وأحب أن تفسح لي الوقت ليقوى التصميم . لا أعلم ما أنا فاعل ولكني أعلم ما أريد ، والقطيعة شبر مفض احياناً إلى الخير . وهو خير سوف اشتريه غاليا . فأنتكر فيه نفسي ، وأنتكر لماضى حبي المنكوب . وقد ذهبت آمالي فيك إلى الهوة التي يتردى فيها المحزونون لتضيف إلى تجاربهم في انفسهم تجارب اخرى بالسمع . وإنها في هذه الهوة لتبقى وقد حالت بأسا قائلاً ، كالقمح اليناع قد جف واسود من عصف الريح .

وإذا جاز للعاصفة ان تهذا فقد جاز لنفسى ان تستكن ، وان تعود فتثور ، كما هو بالعاصفة خالق . وقد عصفت تجاربي بأحلامي غير مرة فلم تفن فيها إلا هذه المرة ، وكنت أجمع ما تفرق منها كل مرة لأعاود حبي في أسر شديد ، فالיום يضيق به الأفق ويضيق به الصدر ، ولا يجد متنفساً إلا في أن يأكل النفس التي غذته وأشبعته حتى بات المنهوم .

إنه جارف ، وإنه ليحطم ، وإنه ليخلف ما تخلف العاصفة من أثر بعد عين ، فهو الحب اليأس ، وهو الحب المحروم .

نيودور كورنر

كاتب هذه القصة شاعر ألماني محب إلى قلوب الشباب . كان أبوه أحب صديق إلى شيلر ، فنشأ الابن ولوعاً بصديق أبيه ينسج على منواله ويتخذ مثالا له ، فلم تكن كتاباته الأولى تحمل طابع شخصيته بل كانت في الغالب من قبيل المحاكاة . وإذا علمت أنه فارق الحياة ولما تكتمل سنه ثلاثة وعشرين ربيعاً أدركت ما كان الفتى الوسيم الرقيق الشعور خليقاً أن يزهر وأن يشمر . وقد خلف أغاني حماسية حملت طابعه الشخصي وأذكت الحماس في نفوس مواطنيه ؛ وكان الوقت وقت حروب نابليون فنفر مع النافرين لتحرير الوطن . وتنفست روحه الملهمة في الزمن العاصف عن هذه الأغاني ، فكانت النار التي تتأجج بحب الوطن ونشدن العظيم ، وسقط في ميدان الشرف ولما يدرك عمر الشباب . وقد ولد في ٢٣ سبتمبر ١٧٩١ وكانت نشأته في جو وادم الفتى الموهوب فلما بلغ العشرين استدعى إلى فينا شاعراً من شعراء المسرح . بيد أن القدر لم يمهله حتى يأتي بالعظيم وإن خلد قبيل موته أغانيه التي توجهها بلحن السيف ثم مات سنة ١٨١٣ في معركة جاديوش .

القيثار

لنيودور كورنر

كان كاتب السر ما يزال يعيش مع زوجه الصبية في ربيع شهر العسل . ولم تكن الاعتبارات أو الميل العابر هو الذى ألف بينهما ، كلا . بل كان الحب المضطرب الذى بقى على الزمن ، وامتحنته الأيام ، هو الذى طبع اتحادهما . فقد أحب أحدهما الآخر من زمان طويل ، لكن تعبين سلنر في وظيفته جاء متأخراً ، فكان أن أبطأ تحقيق أمنيته ، وتأجل الزواج مرة أخرى . وأخيراً تلقى براءة التعمين ، فاقتراد فتاته الوفية زوجاً له إلى منزله الجديد في يوم الأحد التالى . وتقصت الأيام المتكلفة الطويلة ، وانتهت الاحتفالات في محيط الأسرة ، فأمكن العروسين أن ينعموا — من دون ثالث يزعمهما — بالعزلة الزوجية . وحفلت ساعاتهما بمخطط المستقبل ، وتكفل ناى سلنر وقيثار جوزفين بتمضيتهما كأقصر ما مضى ساعات المحبين ، وكان الانسجام بين نغمت الاثنين بشيراً موموقاً بانسجام المستقبل ، مستقبل العروسين .

وفي ذات مساء ، وقد نعم الزوجان بموسيقاها طويلاً ، إذا بجوزفين تشكو من ألم في الرأس قد أصابها منذ الصباح ، فكتمت أمره عن زوجها الحفي . وأخذت الحفى التى لم تكن تذكر في بادىء الأمر تشدد من حماس الموسيقى وجهد الحواس ، وزاد وطأتها شدة أن جوزفين كانت منذ الصبا تكابد ضعفاً في الأعصاب ، فلم تقو على الكتمان أطول مما كتمت ، وكان أن بعث سلنر في طلب الطبيب وقد تولاه الاضطراب .

وجاء الطبيب فهون عايمهما الأمر بادىء ذى بدىء ، ووعد بالتحسن التام فى الغد ، لكنه بعد أن قضت جوزفين ليلة جفتها فيها الراحة كل الجفاء ، وتواصل فيها الهذيان ، ألفى الطبيب جوزفين المسكينة فى حالة تحمل كل الأعراض التى تظهرها حمى أعصاب ذات بال . وقد استخدم كل الوسائل فى معالجة الداء ، لكن داء جوزفين كان يستفحل على مر الأيام .

وذهبت هذه الحالة بلب سلنر ، فلما كان اليوم التاسع لها ، أحست جوزفين بأن جهازها العصبى الضعيف لن يقوى على احتمال المرض بعد الآن ، وكان الطبيب قد نبأ سنر بهذا قبل أن تدركه جوزفين . وشعرت جوزفين بأن ساعتها دانية ، فلبثت تنتظر الحين فى استسلام . وقالت تخاطب زوجها وهى تضمه إلى صدرها لآخر مرة : إدوار ! إني أفارق هذه الأرض الجميلة ونفسى مفعمة بالأسى ، وقد وجدت لك فيها ، وأحسست الهناء على صدرك ، فان كانت السعادة ستجفونى بعد اليوم حتى بين ذراعيك ، فليحسم حولك حب جوزفين كالروح الأمين إلى أن نلتقى فى عالمين . وما إن قتلها حتى ارتبت الى الوراء ، وصعدت روحها إلى السماء ، وكانت الساعة التاسعة مساءً .

أما ما كابده سلنر فسكران يجلب عن الوصف . وقد كافح الحياة طويلا ، وحطم الألم صحته . وإذا كان قد نهض من فراشه الذى لازمه أسابيع طوالا ، فتد نهض وليس فى أعضائه من قوى الشباب نفحة واحدة . وقد انتهبه الفكر الراسخ ، وصوِّح عوده الرطيب ، وحلت السكابة العميقة محل اليأس فى نفسه ، وقدس الألم الهادى ، ذكريات حبيبته .

وقد ترك حجرة جوزفين كما كانت قبل الوفاة ، فأدوات الخياطة على المنضدة ، وقيثارها قائم فى ركن المخدع هادئاً لا يمس . وفى كل مساء يحجج سلنر إلى قدس

حبه ومعه نايه ، فيستند إلى النافذة كما كان يفعل أيام الهناء ، ويثب الأتغام الحزينة لهفته إلى طيف الحبيب .

وفيا هو ذات مرة غارق في حجرة جوزفين في بحر تأملاته، وهواء الليل يهب عليه من النوافذ المفتوحة في ضوء القمر الساطع ، والحارس يعلن من برج القصر حلول التاسعة ، إذا بالقيثار يرن بغثة ممتزجا بأنغامه ، وكأننا أنفاس أرواح خافتة تمر عليه ، فأمسك عن العزف مبهوراً ، فكف القيثارة في التو كذلك ، فعاد إلى نايه فعزف الأغنية التي أحبتها جوزفين وهو يرتعش في الصميم ، فتعالى صوت القيثارة شيئاً فشيئاً ، وامتزج رنين الأوتار بأغانيه امتزاجاً قوياً ، واحتبكت الأنغام في انسجام رفيع . هنا هوى إلى الأرض وجسمه يخلج من الغبطة ، ثم مد ذراعيه ليعانق طيف الحبيبة ، فأحس فجأة كأن نسيماً دافئاً من نسائم الربيع يمر عليه ، وكأن ضوءاً باهتاً متلاًئلاً يخطف على سمته ، فصاح متلهلاً من أثر الحماس : إني أيتها الطيف المقدس أتبينك ، فأنت طيف جوزفين . وقد وعدتني أن تحيطيني بحبك فأعجزت الوعد . إني أحس أنفاسك ، وأشعر بقبلاذك على شفتي ، وبعذائك في تجليك .

وطغت عليه الغبطة فماد إلى نايه من جديد ، وعاد القيثارة ينغم ثانية ، لكنه أخذ يخفت رويداً رويداً ، حتى تلاشى همسه في رنات طوال . وقد هزت هذه التحية الطيفية كيان سائر هزاً قوياً ، فاستلقى على فراشه في ذلك المساء مضطرباً ، وتحلل أحلامه العذبة كلها همس القيثارة يناجيه ، واستيقظ من رقاذه متأخراً ، وتنبه من أحلام الليل منهوكاً ، وأحس كياناً كله نهياً لظاير عجيب ، فقام بنفسه أن المنية دانية ، وأن روحه قد اقتصرت على الجسد .

ولبت يترقب المساء في لطفة لاحد لها ، فلما جاء قضاءه في حجرة جوزفين ، مغمم النفس بالرحاء وبالآيات المكين ، وكان نايه قد هدده في أحلام هادئة

حين دقت الساعة ، فما إن تلاشت اهتزازات الدقة الأخيرة حتى عاد القيثار الى رنينه الخافت ، ثم لم يلبث أن تعالى قليلا قليلا ، حتى قويت اهتزازاته ، واكتملت رفاقته . فلما أمسك الناي كفت نغبات الروح ، وخطف على سمته في تلك الليلة أيضا ذلك النور الباهت المألوق ، ولم يسعه في غمطه الا أن يهتف : جوزفين ! جوزفين ! ضميني الى صدرك الوفي .

وودعه القيثار هذه المرة أيضا بالنغم الخافت ، وتلاشى همسه هذه المرة أيضا في تلك الرنات المهتزة الطوال .

وعاد سلنر إلى غرفته يترنح وقد هزه حادث هذا المساء أكثر مما هزه الحادث الأول . وأجفل من مرآه خادمة الأمين ، فأسرع في طلب الطبيب على الرغم من نهى سيده إياه . وكان الطبيب صديقا قديما لمولاه . وجاء الطبيب فألقى سلنر في نوبة من الحمى شديدة الوطأة ، وعليه الأعراض التي وجدها يومئذ على جوزفين بل أشد ، وارتفعت الحمى في غضون الليل بطوله ارتفاعا مقلقا ، وكان سلنر في حماه يهذى بجوزفين وبالقيثار من دون انتطاع : ولما أصبح الصباح كان أهدا نفسا . فلصرع قد انتهى ، وخاتمة القرية تزدد تجليا له رويدا رويدا ، وإن كان الطبيب لم يرد أن يصدق من هذا شيئا .

وأسر المريض إلى طبيبه ما وقع له في كلا المساءين ، فلم ينفع إقناع الصديق ذى العقل الهادى في صرفه عن يقينه . وكلما اقترب المساء ازداد سلنر هبوطا ، وأخيرا سأل من حوله بصوت يرتعش أن ينقلوه إلى مخدع جوزفين فنقلوه . وتلفت هناك من حوله في غبطة زائدة ، وحييا الذكريات الجميلة جميعها في بكاء هادى ، وأعلن عن يقين مكين أن الساعة هي ساعته وحينه . ودنت اللحظة الحاسمة فدعا الجميع إلى الخروج بعد أن استودعهم الله ، وسأل الطبيب أن

ينصرف معهم ، فأبى هذا وأصر على البقاء . وأخيراً دقت ساعة البرج التاسعة دقاً مكتوماً ، قهّل وجه سلنر ، واضطرم محياه الشاحب كرهة أخرى بانفعال شديد ، فصاح وكأنه فى ملكوت الله : جوزفين ! حينئذى عند الرحيل مرة أخرى ، لأعلم أنى قريب منك ، ولألقى الموت بحبك !

إذ ذاك رنت أوتار القيثارة زنبناً بديعاً ، واهتزت اهتزازاً عالياً رفيعاً ، كأنما تنبعث منها أغانى النصر . وأحاط المحتضر نوريتلاًلاً فصاح : إني آت ! إني آت ! وارتمى على فراشه يصارع الحياة . وأخذت أنغام القيثارة تخفت شيئاً فشيئاً ، فنهض سلنر نهضته الأخيرة فى قوة كانت خاتمة قواه . وحين أسلم الروح تتطعت أوتار القيثارة كما لو كانت أرواح قد مزقتها بيدها تمزيقاً .

وتولت الطيب رعشة عنيفة ، وأغمض عيني الراحل الذى كان يبدو على الرغم من صراعه وكأنه فى سنة من النوم . ثم غادر المنزل وعليه أمارات التأثر العميق ، وقد لبث طويلاً وذكري هذه الساعة تهز قلبه هزاً ؛ وأسدل على اللحظات الأخيرة من حياة صديقه ستار الصمت ، حتى أزاحه عنها فى ساعة من ساعات تأثره لبعض أصدقائه وآراهم القيثارة الذى احتفظ به على سبيل التذكّار .

فريدريك هبل

ولد فريدريك هبل في ١٨ مارس ١٨١٣ ابناً لبناء فقير . فلقى في ميعة الصبا كدر الحياة وتلت الأيام والأخطاء تربيته ، وحقق له الجد ما طمح اليه . دخل الجامعة بمعونة كاتبة ليدرس الحقوق فاشتغل بالشعر ، وعلق الفلسفة والفنون .

وهبل من أشهر الكتاب المسرحيين في القرن التاسع عشر ، ذو موهبة فذة ، وقوة فكر ، وتصرفه الفني كثيراً ما يكون أنموذجاً ، ذلك انه يضع المسرح والتمثيل نصب عينيه ، دون أن يتساهل للفن في شيء . وهو شديد القسوة في نقده ، لا يكفيه البسيط بل يطالب أشد المشاكل الخلقية تعقيداً ، يسلمط لحلها الى جانب خياله ، فبكراً حاداً ثاقباً . ويمكن أن يقال ان القدر في كل مسرحياته يصدر أحكامه وفاقاً لقانون العدالة الصام . وهذا ينطبق على مسرحياته « جوديت » ، و « جينوفيغا » ، و « مريم المجدلية » ، وغير ذلك وقد مات هبل في ١٣ ديسمبر ١٨٦٣ .

الرسام

نصير ريك هبل

١

كان مرة رسام هرم يعيش في فرانكفورت على الماين اسمه ديتريش ، وكان الرسام عظيماً في فنه ، غريباً في عيشه ، قد سلخ في هذه الدنيا ستين عاماً لم تتو على النيل من سواد شعره الذي كان يسترسل حول قفاه القصير القوى خصبلاً غزيرة كاملة . وكان وجهه ناطقاً قادراً على أصدق تعبير ، وإن كان شاحباً غائراً لا يهدى إلى حقيقة ملامحه العميقة ، أخطأ أسمى دفين ، أم رسمتها لطف الفنان المناجحة إلى كل ما يسمو فوق هذه الأرض ويعز مناله . وكان يرتدى دائماً معطفاً أخمر اللون داكنه ويطل من نطاقه خنجر مرهف صغير يزيد من وقع مظهره العجيب في أنفاس متأملية وكان يسكن في زقاق مظلم قصي لا يشاطره المقام فيه إلا كلب قزم هرم يعرج بعض الشيء ، كان يلزمه دائماً كلما خرج يتجول في المدينة حيناً بعد حين .

لم يكن الرسام يختلط بأحد من بني الإنسان ، فقد كان بيته مقفلاً على الدوام كأنه مدفن في مقبرة ، وكأنه فيه طيف لا يستقر ، يخرج منه ليطوف في لحظات بعينها ! وكان الناس أحياناً إذا انتصف الليل يسمعون من البيت المظلم غناء متناهداً في الأبداع ، ثم ينبج الكلب الأعرج الهرم في خلال الغناء ويعوى عواء قبيحاً يسمع معه الأستاذ يضحك ضحكاً عالياً بغيضاً ، يخفق الأنغام الحلوة في مهبها ، ويشيع الرعدة والفرع في نفوس من تبلغهم هذه الأصوات .

وفي عصر يوم صحو جميل كان قتي نشيط لدن العود ، يجوب الشوارع الطويلة في فرانكفورت العظيمة ، يستعلم في اهتمام عن ديتريش ، الأستاذ الرسام الشهير . وسأل الفتى المتلهف صانعاً ، فأجابه بقوله : إنك تأتي بحيث يتسع الوقت للسيد ديتريش لأن يقفل بابه في وجهك ، لكنني مع ذلك سأدلك على داره .

وصاح صوت مكتوم يقول : لا ضرورة لذلك فالتفت الصانع ، ثم همس في أذن الفتى قائلاً : إنه الأستاذ ديتريش . ومضى في سبيله .

وقال الرسام الشيخ للفتى : اتبعني ، ومضى الفتى في أثره إلى بيته . وحين دخل الدار الكبيرة وجعل يخرق غرفها الفسيحة ، والأستاذ يتقدمه في خطى بطيئة ، تملكته رعدة ، وأحس كما لو كان في مشوى الأموات . وبلغا أخيراً قاعة كبيرة ، غريبة الزينة ، خلواً من النوافذ ، يتدلى من سقفها مصباح يرسل فيها ضوءاً ضئيلاً .

ووقف الأستاذ قبالة الفتى ، وقال له : من أنت ؟ وماذا تريد ؟ فأجابه الفتى : سأقول لك من أنا وأوجز ؛ أنا ابن رسام فقير من أوريينو واسمى رفائيل . لم أرث عن أبي شيئاً سوى باعث ملح لا يقاوم ، يدفعني إلى محاكاة كل جميل رائع وتسجيله بالفرشاة والألوان . وقد صنعت الكثير الى الآن ، ثم هدتنى الصدفة السعيدة إلى الصورة البديعة التي رسمتها أنت للمسيح يعمد الأطفال ، فتجلى لي أنه إذا كان قد عمر صدرى بصيص من الفن الألهي فان إرشادك وحده كفيل بأن يجعل من هذا البصيص زهرة مكتملة . وقد نقلني

هذا من أحضان فتية لوطن رفيق إلى صدر الشمال الشتي، الهرم القاسي، فاذا قبلتني تلميذاً ولقيت عطفك فأكون قد بلغت أمنيته، ونفذت مشيئتي على أكمل الوجوه قال الرسام في جد بالغ: هل امتحنت نفسك؟ أتستشعر القوة على الخدمة في هيكل الفن المقدس من دون انقطاع؟ لقد كان عقاب الكاهنة عند الوثنيين القدماء صارماً، حين لا تصرف الكاهنة أفكارها جميعاً عن العالم وملاذه، وأصرم من هذا عقاب الطائش الذي يدخل حظيرة الفن البهيج، فيريد الاستمتاع في نفس الوقت بملاذ البدن. إن الطائش ليبقى إلى الأبد معلقاً بين السماء والأرض كعصفور الجنة، لا تخفف من أوار نفسه الملتهبة قطرة، ويحطمه اليأس. فأكد له رفائيل أن الفن شيء الوحيد، وكل شيء عنده.

فقال الأستاذ: حسناً، وأنت تلميذي.

٣

جعل رفائيل يغشى دار الأستاذ ديتريش كل يوم، وتفتح موهبته في أعجب مظهر، حتى رضى عنه الرسام الشيخ. وسرعان ما ألف الفتى خصائص الأخير أيضاً، وطريقته المستسرة في الحياة، لكنه استغلق عليه السيب الذي من أجله يحتم عليه أستاذه مبارحة الدار كل مساء عند الدقة الأخيرة للساعة الحادية عشرة: فان الأستاذ يلوح إذ ذاك، وكأننا تملكه الشيطان، فيقطع خيط أصفى الأحاديث وينترع الفرشاة من يد التلميذ المتعطش إلى المعرفة افتزاعاً، إذا ما تذكراً هونا ما ثم يدفعه إلى الباب دفعا يكاد يكون عنفا صرفاً، ثم يوصده خلفه على الأثر ويحكم إقفله. وقد كان رفائيل سمع من هنا وهناك أنه أحياناً ما يرن في منتصف الليل غناء بديع في بيت أستاذه، فلم يستسغ عقله مثل هذه الحكايات،

وكان يردّها دائماً إلى سحف الأفاصيص . بيد أن مخيلته كانت تنتهب هذه الروايات انتهاباً ، وتجعل منها صوراً متعددة غريبة . وأخيراً لم يستطع أن يدافع إغراء النفس الأمّارة بأن يحاول مرة معرفة الحقيقة . ففي ذات مساء بعد أن خرج من عند الشيخ ، أو أقصى عن داره جرياً على عادته ، لم يقصد إلى مأواه ، بل عاد أدراجه إلى بيت الأستاذ ، ولما يكد هذا يوصد بابه .

ودقت ساعة البرج بداية الثانية عشرة في رنين أجش . وكانت ريح الليل تصفر صغيراً قوياً خلل الأشجار الباسقة القائمة من حول الدار العتيقة كزمرّة مظلمة من الأطياف ، وقطع السحاب ترق كالسهم في كبد السماء المترامية ، والقمر باهتاً ممتنعاً كوجنة الميت .

وأسند رفائيل أذنه إلى الباب وأنصت في انتباه شديد ، لكنه لم يسمع شيئاً وبقي كل شيء ساكناً ، فنعت نفسه بالمغفل ، ولم يجد مبرراً للبقاء .

وبغثة رن غناء مشج رقيق ، لاح كأنما يخرج كرهاً من صدر مهجور ، ويتبدد لطفة إلى السماء . فارتشف رفائيل تلك النغبات العذبة ، وتشربتها نفسه الظمأى ، لكنه لم يلبث أن أخذ الكلب الهرم في النباح والعواء ، وأمكنه أن يسمع في جلاء قهقهة أستاذه الشيخ وضحكه القبيح بكل قواه ، فسرت في بدنه قشعريرة الفرع . وألقى نفسه يرفع قدمه يبغي الهرب ، لكنه لم يستطع من مكانه حراكاً ، إذ لاح له وجوب حل اللغز في نفس اللحظة التي هيئت له ، حتى لا يسم سلام حياته إلى الأبد في الصميم بعد ثقته غير المحدودة بأستاذه . وتذكر أنه رأى مرة بابا عتيقا في مؤخرة البيت يكاد أن يكون منسياً ، فربما أمكنه فتحه . وتسلسل من الحديقة المجذبة إلى حيث الباب ، وعالجه فلان لمحاولاته وانفتح ، فهب في وجهه تيار هواء بارد كأنه خارج من قبر بايل ، فاستكت ركبتاه ، وخيل إليه

أنه قد تخطى برعونه دائرة أمانة رسمها حوله ساحر ذو سلطان ، وأنه أسلم نفسه إلى بطش الجحيم وغياهبه . وأراد العودة فاستحالت عليه ، ولاح له أنه لم يعد له خيار ، فتجاوز العتبة إلى الداخل ، فلم يلبث أن قادته قدماء إلى الغرفة التي ينبعث منها الغناء ، وكانت غير مجهولة لديه يعرفها جد المعرفة ، إذ كان يعمل فيها مع ديتريش الشيخ . وغنى الصوت وعوى الكلب ، وقهقه الأستاذ وصوص رفايل من شق مكتنز بالباب ، فرأى الأستاذ يذرع الغرفة ذهابا وإيابا ، وعلى ذراعه الكلب القزم ، وهو يقرصه على الدوام ، فينبج ويعوى من الألم بلا انقطاع . وكانت في ركن الغرفة فتاة شاحبة اللون كالزنبقة ، جميلة كالملائكة ، وقد أتجه بصرها إلى أعلى في ورع ، وترسل من فمها ذلك الغناء الرائع ، وقد كانت تلوح كأنها هي نفسها موسيقى مجسمة نزلت من السماء .

وأحس رفايل في لحظة الرؤيا كأنما يودع الحياة مغتبطا ، وأنه لا ندحة له عن أن يرتشف على صدرها ومن شفيتها حياة جديدة .
هنا اقترب الرسام الشيخ من الباب ، فعجل الفتى بالذهاب .

٤

وتقضت خمسة أسابيع على تلك الليلة ، ولم ير رفايل من الفتاة ولم يسمع عنها جديداً ، وكان يسهر كل ليلة تقريبا قبالة بيت ديتريش ، لكن كل شيء قد بقى فيه ساكنا مستكنا كصدر إنسان زايته الحياة ، واستشعر كأنه قد كان ارتشف قطرة من الهناء في السماء ، فقذف به إلى جحيم أبدي لانهاى ، وتبدت له الحياة جوفاء مقفرة ، حتى الفن قد بدا له حارقا لا مشيعا في قلبه دفئا رحيا كما اعتاد أن يكون . وأوشك أن يحتويه اليأس فاعتزم مفاتحة أستاذه قبل أن يستحوذ عليه . كان ذلك عصر يوم صحو ، وكان جالسا إلى جانب ديتريش ، والشمس

تنفذ من خلال النوافذ العالية ، وترسل أشعتها بشوشة كمنظرة الأم الحنون. وكان الشيخ على غير عادته ، نشرح الصدر ، فارتقى الفتى عند قدميه ، وقص عليه ما وقع منه وشهده في تلك الليلة المشؤومة ، وقال إنه لا مفر له من الموت أو يمتلك الفتاة . وبدأ الألم العميق على الأستاذ لكل كلمة نطق بها الفتى ، ثم تحول عنه صامتا حين آتم الاعتراف .

وقال الفتى : أستاذى ! أريد بل يجب أن أراها ثانية !

فأجابه الشيخ : الويل لك إن عجزت عن إفناء حبك للمرأة في حبك لفنك

المجيد ! إن اتى رأيها تلك الليلة لن تقع عليها عينك ثانية !

وصرخ رفائيل فرعا وقال : أستاذى ! وانطلق من الغرفة لا يلوى على شىء .

٥

عاد رفائيل إلى بيته من دون أن يعلم كيف كان ذلك ! ومرض مرضا ثقيلا الوطاة شك الأطباء في إمكان شفاؤه منه ، وكان هو لا يتكلم إلا عن أمله في موت عاجل ، وإلا عن الملائكة الحسان اللواتي يقدرن إلى الجنان ، وإلا عن الفتاة التي فنى جمال الملائكة في جمالها ، فلم يفقه قوله أحد ، بيد أن طبيعته تغلبت على المرض ، فبدأ مستحلابات في الأماكن ، وشفى الفتى الشاحب اللون ، اللدن العود .

وكان الخريف متغلغلا حين استطاع أن يغادر حجرة مرضه ثانية لأول مرة .

وكان الخراب يضغط صدر الطبيعة التي زابتها الحياة ، فالأشجار عارية ، والريح تعصف بالأوراق الذابلة الساقطة ، وعلى الأرض ينتشر ضباب بارد رطب كأنه سحابة نوم . وأحس رفائيل نفسه تقوى وتتجدد لمراى الطبيعة . وكان الثوب الداكن الكدر الذى ترتديه ينسجم ومشاعره ، ويمسح بيلسم الهدوء على قلبه الدامى . وخرج للنزهة فمضى إلى أبعد مما نوى ، فاذا قدماء تقودانه من دون أن

يشعر الى دار الرسام الشيخ الذى لم يكن رآه ثانية من عصر ذلك اليوم ، وإذابه قدام الباب ، وكان موروبا غير مقفل ، وهذا ما لم يتفق للباب أبداً من قبل ، فأوجس من مرآه على هذه الحال . ودخل البيت ، ونقش في كل مكان عن الرسام الشيخ فلم يجده ، فتمسكته الهواجس وأسرع إلى مبارحة الدار .

وكان رجل هرم يسكن في نفس الشارع جالساً ببابه ، فسأله رفائيل عن الرسام ، فعلم أنه خرج ذات صباح مبكراً ، وأن أحداً لم يره ثانية بعد ذلك . وراح رفائيل يستفسر الناس خبره ، فذهبت جميع تحرياتة سدى . فان أحداً لم يعلم عن مصيره مايقوله ، اللهم إلا إشاعة غامضة كانت تتناقلها الأفواه . زعموا أن الرسام الشيخ كان يدعى في الحقيقة بيتر بيرو جينو ، وكان يعيش في بيروجيا في سالف أيامه ، وكانت امرأته أوفر في الجمال نصيباً منها في الوفاء ، فاصغت إلى خطب فتى من الخاصة ، فذهبت حياة الاثنين ضحية على شجرة خنجر بيروجينو ، وكانت أسرة النبيل ذات نفوذ وسلطان فتعقبت بيرو جينو تطلب الثار لتطفىء ما تاجج من شهوة الانتقام . ففر إلى ألمانيا ومعه ابنته الوحيدة ، وكانت طفلة في الخامسة . وتسمى هناك باسم ديتريش ، وتولاه غم كان يدينه دائماً من الجنون ، ويستحيل غالباً إليه ، ولم يعاوده المرح ولم يدخل على قلبه السرور منذ خرج من إيطاليا ، ولم يكن سوى الفن ما يلفظ روحه ، ويخفف ضناه ، وقد ربي ابنته بعيداً عن الناس قاطبة ، في عزلة موحشة كل الإيحاش . ويظن الناس أنه ذهب وإياها إلى الدير لم يسمع جديد بعد ذلك عن الرسام الشيخ . أما الفتى فقد طهره هيب الألم ولم يأت عليه ، وقد أصبح الرسام العظيم رفائيل سانزيو ، وبات في كل العصور على ألسن الناس أجمعين ، ولم تستهوه فتاة من بنات حواء بعد ذاك ، بل كان يتجه إلى السماء في لوحة وحنين . وقد باتت له هناك بلا ريب تلك التي أحبها على الأرض ، ووفى لها هذا الوفاء ، أما صورته الرائجة جمعاء التي بلوح أن قد رسمتها له يد ملاك ، فصور طبق الأصل من الوحيدة التي عمرت قلبه .

يوحنا يعقوب أنجل

كاتب هذه الرائعة ناثر ألماني شهير ، هو يوحنا يعقوب أنجل Engel ، وروائي من خيرة الروائيين . ولد في أواسط القرن الثامن عشر ، ودرج على توحى الحقائق ومحاربة مفاسد الجيل . امتازت كتابته بالزعة الواقعية ، والعرض المجرد السافر ، وكان صادق النظر دقيق التصوير .

وأنجل من الدائرة التي يرتبط بها ليسنغ Lessing وأقرب كاتب ألماني إليه من حيث الموضوع الشفاف والنثر المتساند القوى الذي كثيراً ما يبلغ في حرارة موضوعه وفي روايته شأو الدراما .

وليس أنجل نداءً لليسنغ في الدراما ، ولا عديلاً له في التعمق واتساع الأفق وإن دأناه إلى حد كبير . وقد يقابل هذا التفوق لليسنغ أن لأنجل طريقة في تركيب الجملة تعز لحبكها وكأها على الكثيرين . وكان أنجل رجلاً على الثقافة ساهى المرتبة ، تولى تربية الأمراء وفي جملتهم أمير بروسيا وملكها بعد ذلك فريدريك غليوم الثالث . وكان عضواً في أكاديمية برلين ومديراً أول للمسرح الأهلي وأستاذاً ومشتغلاً بالفلسفة وتحصيل اللغات . وقد عاش إحدى وستين سنة ومات في مستهل القرن التاسع عشر .

حلم غاليليو

ليوهنا انجل

كان غاليليو غاليلاي يعيش في أوان القصبة في أرسيتري بفلورنسا في سن وهي حاسة ساجية وهالة من الشهرة . وكان قد حرم أكرم حاسة وهي حاسة البصر وإن كان ينعم بالربيع : ينعم بالبلبل العائد والزهر الفواح ، وينعم بالذكرى المتجددة من مسرات فائتات .

وفي آخر ربيع له في هذه الحياة قاده أصغر تلاميذه فيثيانى وأبرهم جميعاً به إلى الحقل المحيط بأرسيتري ، فلاحظ أنه مضى في الحقل إلى أبعد مما تحتمل قواه ، ورجا من قائده أن لا يتجاوز به منطقة فلورنسا ، ثم قال له مازحاً معقياً : إنك تعلم يا صديقي ماذا أقسمت أمام المحكمة المقدسة .

وأجلسه فيثيانى فوق ربوة ليستريح . وانه لفي تلك البقعة ، واجو عقب بالروائح الذكية إذا به يتذكر تحرقه إلى الحرية ، إذ هو ذات مرة في رومة عند اقتراب الربيع . فقام بنفسه أن يصب البقية الباقية من مرارة على مضطهديه القساة ، لكنه سرعان ما ضبط النفس ولامها بهذه الكلمات : إن روح كوبرنيكوس^(١) لتسخط إن فعلت .

لم يكن فيثيانى قد علم بعد بقصة الحلم الذي أشار إليه غاليلاي بهذه الكلمات

(١) Nikolaus Copernicus هو مؤسس علم الفلك الحديث ، إذ عارض النظرية البطليموسية القديمة القائلة بأن الأرض ثابتة والكواكب تدور من حولها ، فقال بدوران الأرض والكواكب حول الشمس . وقد احتفل العالم العلمى بأسره في سنة ١٨٧٣ بمرور ٤٠٠ سنة على ميلاده .

فاستوضحه ماقال . لكن الشيخ الذى كان بره المساء فوق مايحتمل ، وأرطب
مما تطبق أعصابه المريضة ، شاء أن يعود أولاً قبل أن يوضح ..

وقال لتلميذه وقد استجم قليلا : لست تجهل كم قست على الأقدار ، وكم أبطأت
الحرية . فأنى لما وجدت أن أقوى شفاعاة لى من حمايتى من آل مدسيس ، ونفس
المحدارى إلى سحب أقوالى قد بقى كلاهما بلا تأثير ، ارتيت على فراشى ساخناً
على مصيرى ، نائماً على العناية الإلهية ، وجعلت أصيح بأعلى صوتى وإلى أبعد
مما يخطر لك ببال ، ناعياً حياتى التى لم تعلق بها وصمة ، ذا كراً جدى فى عملى
وكدى فى اجتياز تيه الحكمة الزائفة طلباً للنور الذى لم أستطع اجتلاءه . كنت
أقول : « كم حشدت قوى النفس جميعاً لتنفذ بك إلى الحقيقة على رغم التحامل القوى
التقديم الذى كان يعترض طريقك ! وكم حرمت نفسك اللذائذ وأبعدت عن
شفتيك الرحيق الذى كان مشتهاك أن تحتسبه ، كى لاتتخاذل فى عمالك الروحى !
كم وهبت الحكمة ساعات نومك ، وكم ارتعشت من البرد وارتعدت من الجليد
وأنت ترعى الفلك وعجائبه ، والناس من حولك رقود لايزعجهم هم ، أو منهمكون
ينعشون الجسد بالملاذ ! كم سهرت الليالى الغائمة السكدرية على ضوء المصباح طمعاً
فى أن تعلن فضل الله وأن تضىء العالم بنوره ! فماذا كانت ثرة عمالك بعد هذا
كله أيها التعس ؟ ماذا كسبت من كل تجيئك للخالق وتنويرك للخلق ؟ أذلك
الغم الذى يكثف مصيرك ويخفف ماء عيذك ؟ أم هذه الدموع التى لاتقوى على
حبسها وهى تطفىء نورك الضئيل إلى الأبد ؟ »

بهذا كنت أخاطب النفس يا قيثيانى ثم ألقى نظرة ملؤها الحسد على
مضطهدى — كنت أصيح : « هؤلاء الأزرياء الذين يسترون سخفهم بالصيغ
الغامضة ورذائلهم بالمطارف المهيبة ، الذين يفترون على الله ألا كاذيب ليجعلوا

منها كلماته ، وينزلون نعمتهم بالحكيم كي لا يزعجهم من نعاسهم اللذيذ نور الحق الذى يعليه الحكيم . هؤلاء المنحطون الذين لا يعملون إلا لشهواتهم ودمار العالم ، كيف يضحكون فى قصور الأسى ، وينعمون فى فوضى الحياة السادرة ؟ كيف حرموا الفضل صاحبه وجردوه من أقدس ما يملك وهو الشرف ؟ وكيف يجشو الشعب بين أيديهم ضارعا وهم خادعوه عن ثمرة كده ومتخذو ولائهم من دسم قطعانه وعصير عنبه ! — أيها التعس الذى لا تعيش إلا لله ولعملك ، والذى لم تشب يوماً فى نفسك غير أظهر الشهوات وأقدسها وهى الشغف بالحقيقة ، أنت يامن هو عند الله خير من هؤلاء كاهناً ، إذ تكشف عن معجزاته فى نظام الكون وترى الناس آياته فى الدودة الحقيرة ! أقدر لك الآن أن ينقصك الشيء الوحيد الذى تضى فى طلبه ، والذى منحه حتى الحيوانات فى الغابة والطيور فى جوه الحرية ؟ أى عين تسهر على مصائر الإنسانية ، وأية يد عادلة توزع بالقسطاس متاع الحياة وطيباتها ؟ فترك الأدياء ينهبون كل شيء ، وتحرم الأجلاء كل شيء . وغلبنى النعاس وأنا على هذه الحال ، وما كاد يفعل ، إذ تقدم من فراشى شيخ مهيب المنظر ، فوقف عنده يتأملنى راضياً صامتاً ، واستقر بصرى فوق جبينه المفكر وخصل رأسه النفسية وكلى إعجاب به .

وصاح بى أخيراً : غاليلاي ! إن ماتعانيه الآن إلا أنا تعانيه فى سبيل الحقيقة التى لقتك إيها ، ولولا أن أنجاني الموت من هذا الأسر وردنى إلى تلك الحرية الخالدة لطاردتنى الخرافة التى تطاردك .

وصحنت أنا : كوبرنيكوس ! وضممته إلى صدرى قبل أن يحير جواباً ، — آه يا فيثيانى ! إن أواصر الدم التى تصلها الطبيعة حلوة ما فى ذلك شك ، لكنه أحلى من تلك الأواصر ما تصله الروح ، وأمكن من روابط الحب الأخوى

وأغلى ، ما تربطه الحقيقة ، والمشاعر التي يتقدم بها المرء إلى الصديق فتوده إليه الحكمة ، ما أدهأها ، فهي مشاعر العمل الناجح والقوة الروحية النامية والرغبة في السخاء بكل كنوز المعرفة .

وقال الشيخ بعد أن رد على عناقى : لقد خلعت ما كان يسترنى ونضوت الغلالة التي كانت تخفينى ، وأريد أن أكون لك من الآن ما كنت سأكونه لك في المستقبل — مرشدك ، فالراحة هناك إن هي إلا ضرب من العمل ، والروح الطليقة التي تحررت من أسر الجسد لا تنى هناك عن العمل دون ما كمال . فبحثنا في الأعماق عن الحقيقة الالهية يتحول هناك إلى إرشاد لمن يلحق بنا من أهل الأرض ، وأنا خليق بأن أرشدك وقد كنت أول من وجه روحك إلى اكتناه اللانهاى .

واقترادنى من يدي إلى سحابة موطاة فحملتنا إلى السماء ، وطرنا في فضاءها الذي لا يحده . رأيت هناك القمر يا فيفيانى برتفعاته ووديانه ، ورأيت نجوم المجرة والثريا والجوزاء . رأيت بقع الشمس وأقمار المشتري . كل ما رصدته إذ ذاك من هذه الأرض رأيت هناك بالعين المجردة خيراً من نظراً وأصدق خبراً ، وقد تنقلت في ملكوت ملكوت السماء بين ثار أبجاثى ، كما ينتقل المحسن بين حسناته فوق هذه الأرض مبهتهج النفس . وكل ساعة قضيتها على هذه الأرض في الكد والنصب تحفل هناك بالهناء الذي لا يحسه من فارق الدنيا وقلبه من الحكمة خواء .

لن أ كف يا فيفيانى أبدا حتى في هذه السن المرتعشة عن البحث عن الحقيقة ، فان طال بها هنا لا تقع عينه هناك إلا على ما يسره . يسره اليقين الذي ثبت والشك الذي أصلح . وقد شعرت بهذا كله ، ونعمت بلحظات الهناء التي قضيتها هناك .

وإذ أنظر يا فيقيانى وأعجب ، وتغمرنى عظمة الذى خلق هذا كله بحكمته
القادرة ، وحمله وحفظه بحجته الخالدة ، كانت كلمات مرشدى ترفعنى إلى معان
أسمى - قال : « ليست حدود حواسك التى تحدها الكون أيضاً ، وإن طالعتك
عالم من الشمس على أبعاد لا يدركها الفكر ، فلا يزال بصرك يستضىء فى الأثير
الذى لا ينتهى بآلاف لا تحس من هذه الشمس . وكل شمس ككل منطقة من
حولك مأهولة بكائنات تشعر وأرواح تفكر . وحيثما كانت مسالك فهناك أجسام
تدرج ، وأينما تسعد كائنات تكون كائنات . ولا بقاء فى هذه اللانهاية المترامية إلى
ماشاء الله لعنكبوتة واحدة إذا لم يهبها الخالق المدبر الحياة أو المادة الصالحة للحياة
وفى هذا العديد المتعدد الذى لا يحصى من الكائنات يسود حتى فى أتفه الذرات
نظام لا يضطرب : قوانين خالدة تربط السماء بالسماء ، والشمس بالشمس ،
والأرض بالأرض ، بروح من الانسجام . ومادة التأمل فى الخلود لكل حكيم
خالد بعيدة القرار ، ولا انضوب لمعين الغبطة التى تتفجر من هذا التأمل . وهل
أنا بحاجة يا غاليليو إلى أن أقول لك إن هذه الغبطة لا تصيبها الروح التى ما برحت
مقيدة برفيق بليد ، لا تستطيع المضى فى عملها إلى أبعد مما يطيق هذا الرفيق ،
ولا تلبث أن تشعر بأنها ترد إلى التراب كما حاولت الارتفاع ! »

فصحت : « قد لا يستطيع المرء أن يصيب هذه الغبطة بكل ما فيها من إفهام
إلهى ، لكنه يعرفها على التحقيق يا كوبرنيكوس على طبيعتها وماهيتها . أو فأين
النفس التى لم تبهجها الحكمة فى هذه الحياة الأرضية ؟ وأى هذاء لم تشعر به الروح
فى هذا الجسم الفانى إذا ما جعل سحر الأفكار الغامضة ينبجلى ، ويطلع نهارها ،
وينتشر ضوءها قدما حتى تتم المعرفة ، ويعم نورها الكامل ، وتنكشف للعين
المجردة المغتبطة آفاق من الجمال لا تحصى ! — تذكر وأنت الذى أطلعت على

غوير الأسرار الإلهية وكشفت عن بديع صنع الخالق ، تذكري تلك اللحظة التي خطر لك فيها خاطرك الجريء الأول فتملكتك الغبطة ، وتألمت قوى نفسك جميعاً على هذا الخاطر تقتنصه ، وتكونه ، وتنظمه ، تذكري كل شيء تام في ذهنك متناسق تناسقاً باهرأً ، وإذا أنت تستعرض كرة أخرى صنيع الروح الجميل ، وكأنك نشوان برحيق الحب ، تستشعر شبهك بخالقك وقدرتك على فهمه وإدراكه !

أجل يا مرشدي ، حتى في هذه الأرض لا تعدم الحكمة مسراتها ، وإذا لم تكن الحكمة كذلك فكيف وسعنا أن لانكتثر في أحضانها لغرور الحياة ؟ «
وهبطت السحابة التي كانت تحملنا إلى الأرض ، واستقرت فوق تل يواجه رومة ، فانبسطت لأعيننا عاصمة الدنيا ، لكنني مددت يدي من مرتفعي مزدرياً محتقراً ، وأنشأت أقول : يمكنكم أن تحسبوا أنفسكم شيئاً مذكوراً يا سكان هذه القصور ، إذ ترفلون في حلل القرمز ، ويجلب الذهب والفضة لموائدكم أنفس ما تخرج أوربا والهند . لكن الحكيم ينظر إلى هؤلاء الأغبياء كما ينظر النسر إلى الدودة في الشرفة ، فهم مثلها سجناء النفس لا يستطيعون الخروج عن هذه الورقة التي التصقوا بها ، أما الحكيم الحر فيصعد إلى الأعلى ويشرف على الدنيا أو ترفعه أجنحة التأمل إلى ربه ويحوم في سمائه بين النجوم .

وبينا أتكلم على هذا المتوال إذا بسحابة من الجد الصارم تظلل جبين مرشدي ، وإذا بذراعه العطوف تزل عن كتفي ، وإذا به يرميني في الصميم بنظرة تنذر بالهبوب . ولقد صاح بي قائلاً : يا عديم الأهلية يامن لا تستحق شيئاً ، أهكذا شعرت على الأرض بمسرات السماء ، وتجد اسمك بين أيدي الحكماء ؟ أهكذا ارتفعت بقوى النفس لتستطيع المضي في عملها دهرأً ، ولتكون في ظل

الحقيقة أ كثر حرية وأعظم أثراً؟ أمن أجل هذا كرمك الله بأحمال الاضطهاد.
 وجعل الحكمة من نصيبك واستحقاقك ، وزان قلبك بالفضائل وروحك بالمعرفة ؟
 هل اجتثت ذكرى الطيب من نفسك فلم تترك أثراً. وطغت نفسك باثورة على الله ؟
 هنا استيقظت من حلمي فألفيت نفسي قد رددت عن أعجاد السماء الى سجنى
 ففاضت عيناي حتى غمر الدمع فراشي ، ثم رفعت بصري في ظلام الليل وجعلت
 أصيح : رباه أيها الفياض بالحلب ! هل اغتصب التراب الذي نفخت فيه الروح ،
 ما هو هبة من لدنك ورحمة ، فأضاف ما ليس من حقه الى حقه ؟ هل الخير الذي
 غذيت على صدرك وسندت الى قلبك ، والذي ناولته قطرات الهناء من قدحك ،
 هل نسي فضلك عليه وتفضيلك اياه ؟ اللهم أره بالعمى ، وأصم أذنه بعد الآن
 عن صوت المحبة ، ودع المشيب يوقر في السجن ظهره ! ثم ليطب بهذا نفساً ،
 وليستشعر الحمد على ما أصاب من مسرات ، والهناء في انتظار ما هو آت !
 في هذه الضراعة يا فيفياى صبيت روحى صباً ، وكان الله بى رحيماً ، فلم يستمع
 الى تذمر الساخط ، بل استمع الى حمد الخامد ، وأشعرنى الهناء الكثير ، فها نذا
 أعيش حراً فى أرستري ، وها أنت ذا يا صديقي تقودنى بين زهور الربيع .
 وتحسس يد تلميذه ليضغط عليها شاكراً ، فتناول فيفياى يده ورفعها الى
 شفثيه أمانة التبجيل .

الضـرير

لفردريك ويتسل

كتبها كارل فريدريك جوتلوب ويتسل Friedrich Gottlob Wetzel
Karl الكاتب الشاعر الالماني الذي عاش بين قرنين ، القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر .
هذا مدبر وهذا مقبل ؛ هذا مشرف على النهاية ؛ وذلك لم يكدهل . فوات في الاربعين
وكان مع ذلك كثير الاثر ، قوى الموهبة ، اشتغل ؛ فيما اشتغل ، بالتأليف المسرحي
فكتب هراً فريد Hermanfried واشتغل بالصحافة ، فخر صحبة وفرنكيشين
مركورز ، وكان شاعراً بليغاً .

سألت أمي يوماً وهي تصف لي مطلع الشمس في أحد الجبال : ما الشمس
يا أماه ؟ فأجابت منائرة : مسكين يا بني ! ما أراك تفهمها أبدا ؟ فقد ولدت ضريراً !
ومسحت بيدها على جبينى ، وأمرتها على عيني في حنان .

واضطرمتُ - فقد أبهجنى وصفها للشمس . وبين الناس وحى إياهم ستار ،
فهل أظفر برؤية الشمس مرة ! ! ولتغيب بعد ذلك ، فحسبى أن ألم الإمامة بأأجهل
عن أمي ، وأنعم تفصيلاً بما أعرفه جملة -

ونشطت مخيلتى نشاطاً كبيراً ، وجعلت روحى المشوقة تنفض جسمى نفصاً ،
تبغى المهرب ، وتطلب الخلاص إلى النور . وكانت هناك الأرض التى يهفو
إليها حدسى ، ويهتف هاتفها بى ، الأرض الناعمة بعجائب الطبيعة ، الحافلة بآيات
الفن ، أرض الأحلام ! . . .

وكانوا يتحدثون عن الليل والنهار ، وليس لى من الاثنين سوى نصيب
واحد : نهار أبدي أو ليل أبدي - والآخر ، كما يذهبون ، هو نصيبى !

وجلست في طيّ ظلامي ، وذهبت روحى تطوى الدنيا الواسعة العجيبة ،
وتعرضها ، لكن الضوء مازال يجفوني .

وكنت أصعد في لولب الحياة ، كما يصعد المرء من حول الصخرة السامقة ،
معصوب العينين . لكنى كنت أحس لمس الزهرة ووجنتها الحريرية ، وأرتشف
من عبيرها الرقيق العطري . غير أنى كنت أحلم ، فالزهرة نفسها ، على قولهم لى ،
أجل من عبيرها ، ومن وجنتها الحريرية ، ولا حد لجمالها .

وفي ذات ليلة حملت حملاً متفززاً عجيباً ، خلت فيه أنى أرى النور . وكان
النور حقاً ، فلما تنبّهت جهدت سدى فى استحضار الرؤيا .

فى ذلك الأوان حلقت الموسيقى فى سجنى المظلم كالروح الحبيب ، وضفرت
حول أوتارها رقيق الزهر ، من خمائل الشعر ، أكاليل .

إنها الأرض المقدسة التى أطأها الآن — إنها أرض الشوق .

وكان الملك الذى ينتقل بين العروسين — عروس الموسيقى وعروس الشعر —
ويحملهما إلى ، فتاة ، أورثتها عذراء السماء اسمها الأرضى .

كانت مريم فى مثل سنى ، وكانت تبهج الغلام الضرير بأغانيها وأنغامها ،
فنبهت الحب والرجاء من أحلامهما ، فتلفتا لأول مرة من حولهما مشرقين ،
وغشيا الحياة ملكين طاهرين .

كانت مريم يتيمة الأبوين . وحين اتخذتها أمى ربيبة عاهدت الله عهداً
مغلظاً ، أن تهب السماء إياها ، إن أنا ابصرت . خفف من ذلك الحين شوقى إلى
الشمس ، لأنها سوف تسلبنى مريم وتحرمنى أغانيها .

وكانوا إثر ذلك كثيراً ما يتحدثون عن طيب ، أملوا من فنه النفع لى —
فتنازعنى من ثم شعوران : حبى للشمس وحبى لمريم ، وكانا متعادلين ، يستوليان

على قلبي قوتين متكافئتين - واقتادوني إلى الطبيب وكادوا عنوة يسوقونني إليه .
وأمرني بالهدوء - فعلا صدرى وازداد اضطرابى ، فقد كنت بأبواب الحياة
وكأنى أولد من جديد - وأحسست إذ ذاك ألما قويا بعينى ، فصرخت . فقد
علاودنى حلمى الذاهب . لقد رأيت النور ! أشعة براقه وشرراً خاطفاً يتطاير
لناظرى ألوماً - نظرة عجلي فى أغنى كنوز الحياة .

ثم طوانى الليل السابق من جديد ؛ فقد عصبت عينائى ، ولم يسمح لى بدخول
الحياة الجديدة إلا هوناً ما ، وقليلًا قليلًا .

لم أر ما يتخلل محيطى من أمكنة - بل كانوا يروننى بعض الأشياء
ولا يزدون ؛ ولم يك يقربنى كائن حى فيما خلا الطبيب .

وإذ أُمسى فى عينيه قادراً على احتمال العظيم قادنى إلى الليل ، فاذا فوق رأسى
صور من الأنجم تتلاؤلاً فى البعيد الذى لا ينال ولا يسبر ، وإذا بى تحت آلاف
العوالم المؤلفة كالمنتشى ، أدرك الخالق ولا أنطق باسمه - تنهض أمانى خرائب
قديمة من أرض سابقة ، هى الجبال ، معتمة غايضة مغمدة فى جوف الليل ، ومن
حول أطرافها تتنافس الأضواء فى جو صاف جفته الغيوم . وغابات مستقرة فى
الأعماق يسدل عليها الظلام ستاره إلى الأقدام ، وتهز أعاليها الحالكة هزاً خفيفاً .
وكان الطبيب إلى جانبي جاداً هادئاً ، وعلى بعد خطوات منا يتحرك شيء
كالشبح المتنوع .

فصليت !

وبغمة تبدل المنظر : ففوق الجبال تلوح أشباح تصعد إلى السماء ، وفى قلب
السماء تشعب نجوم من خوف الأشباح ، ومن خلفى تنكشف مرآة - محيط
من النور .

فارتعدت ، فقد خلت الله مقبلاً على !

وتثاقل على الأرض الضباب وطواها في رفق ، لكن الأطياف التي كانت
تصعد إلى السماء كانت تمنع في الصعود ، والأنجم الزهر لم تلبث أن انطفأت ،
فطلعت على أثرها ورود من العسجد من خلف الجبال تلاحقها في السماء الزرقاء ،
وازهر في الجو ربيع ، من مس ساحر ، يزداد بهاء ، وزخر لناظري محيط كامل ،
واندلع لهيب إثر لهيب في فيوض السماء .
وفوق غابة الصنوبر طلعت الشمس الأبدية عالماً ملتهباً ، تضيء في آلاف
أشعتها من جديد .

فدفعت عن عيني يدي ، وخررت سريعاً على الأرض .

وحين استيقظت كان إله الأرض يلاً الفضاء ، وكانت العروس المجلوة قد
حسرت قناعها وكشفت عن فتنتها الكبرى لعيني الإله .
في كل مكان حولى قداسة ، الربيع في الجبال والمروج كالعلم اللذيذ —
ونجوم السماء هبطت على الأرض زهوراً تضيء قلب الكلاً ، وبحر النور يتفجر
على الخليقة من أنف عين وعين ، تتصاعد فيه الألوان كالأرواح . كل يزخر
بالحب والحياة — ففي الأشجار ثمار وأكاليل زهراء ، ومن حول التلال والجبال
عبير تعبق به الأجواء ، وفي الكروم لآلىء تلهب ، وفي الجو أزهار تطير
وتتراوح ، بيد أنها فراش ، ومن آلاف الحناجر غناء صاحبها تنف يرفع بالحمد
والثناء . وعين الإله في محيطه اللانهاى تنظر وتطل من اللؤلؤة المستقرة في كم الزهرة .
وجرؤت على التفكير في الأبدى !

وعلى حين غفلة طرق صوت سمعى من خلفي — وأزيمحت أستار أخرى عن
وجه الحياة — فالتفت ورأى عجلاً — ولأول مرة ! أشهد أمى دامعة العينين !
أيها الليل ! أيها الليل عد ! فابت أحتمل كل هذا الضياء ، وكل هذا الحب !

فريدريك شيلر

لخصنا هذه القصة لطولها وخشية ألا يتسع المقام لها بتمامها وحرفها . وقد حرصنا فيها على مواضع أوردناها بنصها ، واحتفظنا للنواضع المخصصة بروحها ووقتها . وقد نكون أغفلنا علامات الاقتباس في بعض ما نصصنا عليه . وأثبتناها في البعض الآخر . فليغفر لنا القارىء هذا الجيد عن المؤلف فطعله حملنا عليه ما اتفق من اتساق السرد ، ومطابقة النص للإيجاز .

وبعد فشيلر أنبا في العالم ذكرنا من أن يحمله القارىء المثقف ، فليس من شأن هذه العجالة أن تبصر به أو تصوره ، لكنه قد لا يكون غنى عن لفتات خاطفة اليه . فهو شاعر الشعب الألماني المحبوب ، وهو إلى جانب جيته غاية ما تطور اليه الأدب الكلاسيكي الوطني الألماني .

ولد شيلر في ١٠ نوفمبر في سنة ١٧٥٩ في مارباخ . وكان أبوه ضابطاً ، وكانت أمه ابنة له صاحب فندق . أريد به أن يكون قسيساً ثم وجه إلى دراسة الحقوق لكنه كان يحب بحر الأدب عباً ، ويصب الإنتاج صباً ، وكان ذهنه من نار . وكانت وفاته في التاسع من مايو من سنة ١٨٠٥ .

لعب القدر

لفريدريك شبلر

كان أليزوس فون ج... من الحضريين ذوى المكنانة ، رباه أبوه ، وكان في خدمة إحدى الإمارات - تربية جرة ، فنضجت عبقريته السعيدة مبكرة . وكان حين التحقق بميش مولاه ما يزال لدن العود ، لكنه كان واسع العلم عامر الوطاب ، فلم يلبث أن اكتشف فيه الأمير مقدراته العظيمة ، وآمله الكبار . وكان أليزوس يضطرم بحمية الشباب ، وكان الأمير كذلك . وكان أليزوس جريئاً مقداماً ، وكان الأمير يقدر هذا الخلق ، لأنه خلقه أيضاً . وكان أليزوس سريع الخاطر ، مليح النكتة ، غزير الاطلاع ، فاستطاع أن يبت في محيطه من روحه ، وأن ينشر في كل مجلس يغشاه من مرجه ، وأن يخاع على كل مايلقاه فتنة ويبعث فيه الحياة . وكان الأمير ممن يقدر هذه السجايا لأنه كذلك يتحلى بالكثير منها . وكان كل ما يباشره أليزوس من جد الأمور وهزلها يحمل طابع العظمة ، فلم ترده عقبة عما يروم ، ولم يوهن خطأ من مثابرتة . وكان يعلى من قدر هذه الصفات شخصه النبيل الموفور الصحة والقوة ، وكان يحيش من ذهنه المتقد بالحياة ، ويحف به من مشيته ونظرتة وكيانه جلال طبيعي يلف منه تواضع كريم . وإذا كن ذهن هذا السحير الشاب سحر الأمير ، فقد استحوذ ظاهره الجذاب عليه استحوذاً ، واستبد بحواسه استبداداً . وكن تقارب سنهما وانسجام ميولهما وشمائلهما ، قد ولد بين الاثنين علاقة سرعان ما جمعت كل ماتلك الصداقة

من قوة ، وما يستعر في الحب المتقدم من نار . ورفع أليزوس عند الأمير مرتبة فوق مرتبة . لكن هذه الأمارات الظاهرة كانت دون ما يقدره الأمير في أليزوس بكثير ، وأزهر حظ الشاب ، ورفعته إلى العلا في سرعة فائقة ، لأن رب نعمته كان على ربوبيته يعبد ، وكان صديقه المشغوف به . وإنه لدون الثانية والعشرين إذا به يلقي نفسه في ذروة هي في حياة أسعد السعداء نهاية المطمع والختام . لكن ذهنه الدؤوب لم يدعه يستقيم طويلا إلى عجب الفراغ وزهو ، أو يتنع بظاهر العظمة الباهرة وهو الشاعر بتدريته على ممارسة جلائلها . فكان والأمير ينتهب اللذات انتهابا ، يكب — وهو ذو الخطوة الأثير — على الأضابير والأسفار يستكنه مستورها ، ويهب الأعمال من نشاطه وجده ماملكه ناصيتها ، وجعله لها حاذقا ، فلم يترك أمرا ذا خطر إلا زاوله بنفسه حتى بات مشير الأمير الأول ووزير ، والمسيطر آخر الأمر عليه ، بعد أن كان واحدا من رفاقه ، وزميلا له في مبادله . وبات الطريق إلى الأمير عن طريقه ، ومقاليد الأمور وتقليد المناصب والمراتب والمنح والمنع بيده .

كان أليزوس حين بلغ هذه المرتبة ما يزال شابا صغيرا ، وحين وصل إلى الذروة قد صعد تصعيدا سريعا ، فلم يقصد في المتعة بها ، فلم يابث أن جمح به طموحه ، وأن زايله تواضعه حين أدرك غايته . وأسكر شموخه ما كان يلتقي من خضوع أكبر الأماراة ومذلتهم له ، وهو دونهم حسبا وكرامة وثروة وأبدى سلطانه المطلق قسوة بعينها كانت كامنة في طبعه ، فكان أعداؤه يرتعدون منه ، وكان أصدقاؤه لا يتورعون عن مطلب عنده مها بلع من عسره وبهظه . وقد أثرى غيره في جاهه أكثر مما أثرى هو ، ولم يكن يصدر في تصرف عن حق بقدر ما يصدر عن الهوى . غلا في رضاه غلوا كبيرا ، وأسرف في انتقامه فلم يعرف

فيه حدا ، وحال حساده وشائثوه أعداء له الداء ، وانفض من حوله حتى صنائعه وأسرى معروفه . كاهم يتربص به وكاهم طريد غطرسته وعتوه .

وكان من بين هؤلاء نبيل من ييمونت يدعى الكونت مارتينجو ، رفعه بيده ، ودسه في حاشية الأمير صنيعة من صنائعه ، وبديلا له في مبادله . ولم يكن يخشى ضره إذ كان قادرا متى شاء على رده إلى العدم الذى أوجده منه ، بل إن خشية الكونت إياه ، وأنه فى مركزه بفضله ، كانا فى وهمه يؤمنانه جانبه ، فوقع فيما وقع فيه ريشيليو حين ترك للويس الثالث عشر الفتى لوجران يلهو به . لكنه عجز عما قدر عليه ريشيليو . فكان له من ريب نعمته خصم أكر من الخصم الذى بطش به ريشيليو . فلم ينب فى يده ، بل كان طوع مشيئته ، يظهر له الخضوخ والخنوع ، ويلتمس عند مولاه الخطوة . ينتفع بالفرصة التى أتاحها له أليزوس للتقرب من الأمير ، وتعرف تلافيف نفسه ، والطريق إلى كسب ثقته . حتى ألم بدخائله وتسلى إلى قلبه ، ونال آخر الأمر الخطوة عنده .

وقد نالها بأساليب تعلم أليزوس أن يحتقرها ، وكان له من كبريائه وعلو نفسه ما يقززه منها ، لكن مارتينجو لم يتورع عنها . فقد كان يعلم أن سبيل الغواية أحوج إلى الدليل والرفيق من طريق الفضيلة ، وأن علم نقائص الناس أفعال فى التسلط عليهم . فراح يثير شهوات عند الأمير كانت ساكنة ، ثم يعرض نفسه فى إشباعها مشيرا ومعينا . وقد دفعه إلى موبات لا تطيق كثرة الشهود والعارفين ، فعرف من أسرارده مالا يعرفه ثالث . ووفق بإفساد الأمير إلى وضع الأساس لخطة القضاء على ولى نعمته ، وتم له الاستيلاء على قلب لم يكن يدور بخلد أليزوس أن يشاركه فيه أحد .

ولامرئ أن يستغرب كيف يتم هذا التحول الخطير ولا ينتبه أليزوس

إليه ، وتعليل ذلك بسيط ، فقد كان الوزير أوثق بقيمته ومكانته من أن يخطر له أن الكونت يمكن أن ينافسه . وكان الكونت أحضر ذهنا وأشد حذراً من أن تبدر منه بادرة تتم عليه ، أو تذهب بطمأنينة الوزير وأمنه ، ولم يكن الوزير يكثر لما بين الأمير وسميره من خصوصيات ، فقد كان نفسه يحتقر أن يكون في موضع مارتننجو ، وهو رجل إنمائي يسعى إلى العلا ، وصداقة الأمير تنفعه في هذا السعى ، فهي وحدها التي تستهويه ، لكنه حين بلغ غاية التمتع وحقق كل الآمال لم يلتفت إلى طريق العودة ، وترك السلم الذي صعد عليه يسقط من خلفه .

لم يتنفع الكونت في مقارنته للأمير بالأدوار الثانوية . فكان كلما ازداد لديه خطوة تطلع إلى أعلى ، فارتفعت على الأيام . مرتبته ، وعرض جاهه ، وازداد حزن مذلته لألويروس في نفسه ، واشتدت عليه وطأة تعاليه . وكان هذا كلما ارتفع صنيعته وريب نعمته ، يحاول تذكيره بضعة نشأته ، فيزيد الشئان بغضاً له ، وانطواء على نية الأذى ، ومضياً في تدبير السوء .

ووضع الكونت خطة للقضاء على الوزير ، ولم يكن متعجلاً ، فهو يعلم أن خطوة خصمه عند الأمير متأصلة الجذور ، وأن أية محاولة قبل الأوان خليقة أن تعصف به هو ، وتزيد ألويروس تمكناً ، فعنى بأن تكون الضربة التي يسدها مميتة في الحال .

وقد فقد الوزير شيئاً من حب أميره مافي ذلك شك ، لكنه عوضه باطراد هيئته ، ومن يدع لوزيره الاضطلاع بهام دولته والنهوض بها عنه يقل استغناؤه عنه ، واستمداده لنكران فضله . وقد أعزه كصديق ، وبالغ في إعزازه ، فهو يحله كوزير ويغلو في إجلاله .

لكنه كيف حقق الإيطالي غرضه وبأي شيء متوسل ؟ هذا ما ظل سر امكتوما

بين القليلين الذين أصابتهم الضربة والذين سددها . ويقال إن مارتننجو أطلع أميره على أصول مكاتبات سرية مربية كانت بين الوزير وبلاط مجاور ، وقد تضاربت الآراء في صحة هذه المكاتبات أو زيفها ، وسواء أ كانت صحيحة أم مزورة فقد بلغ بها الايطالى غايته إلى أشنع حد . وبدا الوزير فى عين أميره شر من أنكر فى هذه الدنيا جميلا وخان سيداً ، وبدا ذنبه فوق منال الشوك لا يعوزه تحر أو تحقيق . ورتب مارتننجو مع الأمير أن يظل الأمر طى الكتمان ، فلا يلحظ ألويروس فى معاملة سيده بوادى الأعصار الذى يتجمع فوق رأسه ليعصف آخر الأمر به ، ولا ينفك آمنا خالى الذهن حتى اللحظة التى يسقط فيها من حالق الجاه والعز والاجلال والحسد الى حضيض الهوان والراء .

وحين أزفت ساعة الفصل كان الوزير يزور ساحة العرض ، وكان فى الجيش برتبة « أميرالاي » لكن هذه الرتبة العسكرية لم تكن شيئاً مذكورا الى جانب ما يحمله من ألقاب الأمارة ورتبها ، وما يتقلده من منصب الوزير ، وفى ساحة العرض كان له يوم فى السنة يتقرب اليه فيه كل ذى جاه ، وترتعد منه فرائص المتشككين فى رضاه . كان حتى الأمير اذا حضر هذا اليوم أحس فيه بالعزلة ، لكنه لا يخطر بباله أن يغير من أوضاعه إذ كان أحوج الى صداقة وزيره ، وكانت أجدى من المظاهر عليه .

هذه الساحة التى كان ألويروس يتلقى الولاء فيها وكان قبلة الأنظار ، قد اختارها مارتننجو مشهداً مرعباً لهوانه فيدنا هو ناعم البال ومن حوله كذلك خلاة الذهن ، يأمر فيها وينهى ، و يترقب الكل أوامره ، إذا بمارتننجو يظهر ومعه بعض مرافقيه لا كرجل البلاط اللبق ، المنحنى بالتجلة ، المفتر الثغر ، ولكن كأشد ما يكون قحة وزهواً كأنه سيد متبوع . وقد كان قبل لحظة تابعاً .

ظهر مارتننجو على هذه الصورة . وتقدم نحو الوزير بخطى ثابتة بادية للتحدى ، ثم وقف حياله مغطى الرأس يطلب سيفه في هدوء بأمر الأمير . وتناول السيف المجرد وغرسه في الأرض ووطئه بقدمه فانكسر قطعتين ، وتطايرت شظياته إلى قدمى الوزير . وكأنا كانت هذه إشارة معطاة فانقض مرافقا مارتننجو على ألويروس أحدهما ينتزع وسامه الصليبي عن صدره ، والآخر يحل أشرطة الكتفين وحمائل البذلة ، وينزع عن القبعة رباطها ، وحزمة ريشها .

كل هذا في مثل لمح البصر وعلى مشهد من خمسمائة رجل يحيطون بالوزير ، فلم ينطق منهم أحد ، ولم تتردد فيهم أنفاس . وقد وقف هذا الجمع المذعور ممتنع اللون ، خافق القلب ، عليه سياء الموت وتيبسه . وإن ألوف غير ألويروس خلقاء أن تصرعهم غشية الذعرة الأولى من مثل هذا المصائب . لكن أعصابه الحديدية ونفسه القوية صمدت لهذا الموقف الرهيب ، وخبرت المكروه فيه عن آخره .

وسيق من الساحة إلى مركبة انطلقت به وسط شوارع المدينة فكنت ترى النوافذ مفتحة ، والطرقات حافلة بالطلعة يتصايحون من خلف الموكب : هذا ساخر وذلك شامت ، وآخرون آسفون أسفا أشد على نفس الأبى من السخر والشامة . وألقى ألويروس نفسه في العراء ، ثم في طريق مفض إلى المحكمة العليا التي كابد أمامها صنوف العذاب من خشية الموت . ثم اقتيد في طريق مأهول إلى حيث قدر له أن يكون : إلى السجن . وقضى ، بين أن سيق من ساحة العرض وبين السجن ، اثنتى عشرة ساعة حافلة بألوان المهول لم يذق فيها طعاما ولا شرابا ، فتداعت بنيته القوية ، وأخرج من المركبة مغشيا عليه ليزج به في جب بشع في سرداب القلعة حيث عاوده الرشد . فكان أول ما أخذ بصره في حياته الجديدة حائط السجن الرهيب . ثم أجال نظره في المسكان فوقع على رغيف ضئيل وجرة

من الماء ، ويجوارها كومة من القش لفرشه .

ولبت على هذه الحال حتى اليوم التالى فإذا كوة فى أعلى الجب تفتح ، وتند منها يد بسلة تتدلى إليه بزاز كزاز الأمس . ولأول مرة ، بعد هذا التحول الخفيف فى حظه ، ينزع منه الألم والحنين بضعة أسئلة : كيف أتى إلى هنا؟ وماذا اقترف ! لكن أحدا فوق لم يحر جوابا ، وانسجبت اليدان اللتان أدلتا إليه الزاد وأغلقت الكوة .

وأحصى فى هذا المكان اللعين تسعين وأربعمائة يوم أدليت إليه بعددها أرغفة لا غناء فيها ، من الظهيرة للظهيرة ، وعلى وتيرة واحدة ، لا يرى وجه آدمى ولا يسمع صوته ، ولا يستخلص شيئا من هذا المصير المرعب عن مستقبل أو ماض ، ولا تخلص نفسه من الشك ، ولا يجيها شعاع من نور ، ولا تنعشها نسمة نقية ، بعيدا عن العون ، محروما من عطف الناس .

وشىء آخر طفق به كيل شقائه ، واكتشفه فى أوائل أيام اعتقاله ، وذلك أنه يعرف هذا المكان . فهو نفسه الذى أمر ببنائه منذ بضعة أشهر ليضنى فيه ضابط كفاء عرضه سوء طاعه لغضبه . وقد جاء إلى هذا المكان بشخصه ليعاين ببناءه ، ويبحث تمامه . فالآن يشرف على القلعة ، ويتحكم فى هذا الحب ضحية الأمس وهدف انتقامه لتكمل آلامه . وقد حالف شعوره بشقائه قسوته على نفسه واحتقاره إياها ، والألم الذى لا تعرف القلوب المتكبرة أمر منه ، وهو أن يكون المرء تحت رحمة عدو لم يرحمه .

لكن عدوه بالأمس كان رجلا شريفا مستقيما لا يعرف الدناءة فى الانتقام . وقد ألم قلبه الرحيم أن يتمسوا على سجينه تنفيذ التعليمات التى كان أمينا فى تنفيذها

شأن الجندي القديم . ولود أن يخفف عنه العذاب لكنه لم يستطع له سوى الأسف والرثاء .

وكان للقاعة واعظ قسيس تنهى اليه خبر السجين متأخرا ، وعلى متن الأشاعات ، فصمم أن يهون عليه . وكان قسا مبجلا ، يؤمن بأن وظيفته الرعوية لا تخدم بأنبيل من التخفيف عن رجل تعس عدم كل تخفيف .

وكان يعلم أن حاكم القلعة لا يملك أمر إدخاله عليه فسافر إلى حاضرة الأمير وجثا أمامه على ركبته ، وناشده الرحمة بالسجين الذي يغنى محروما من إحسان الدين المتسامح مع أشد المجرمين ، ويذهب قانطاً من رحمة الله .

وطلب القس من الأمير أن يأذن له في الدخول على السجين الذي هو من رعيته بحق الاعتراف ، والمسئول هو عن روحه أمام الله . فأجاب الأمير رجاءه وأذن له في إدخال السرور على قلبه بزيارته ، وكان غضبه عليه قد تنفس بشيء ما كان أول محيا آدمي طالع ألويروس التعس في الأشهر الستة عشر التي قضاه في السجن إلى ذلك الحين وجه مسعفه . وقد كان الصديق الوحيد الذي عاش له في هذه الدنيا سبباً لشقائه ، وقد عجز جاهه عن أن يمد به بصديق . فهذه الزيارة التي أداها له القس كانت وكأنها من ملك كريم . ولست أحاول أن أصف مشاعره . لكنه جعل من ذلك اليوم ، إذا خنقه البكاء ، يترفق في البكاء لأنه ألفى في القس من يكيه .

وقد تملك القس الذعر حين دخل هذا الجب الذي جعل للقتل ، وقدشت عيناه عن إنسي فيه — فرحف إليه من أحد الأركان شيء مهيل يلقى الرعب في القلوب ، وكأنه يزحف من مأوى وحش لامسكن إنسان . هيكل عظمي شاحب اللون كرمز الموت ، قد زايل وجهه كل ما يدل على الحياة ، واحتفر فيه الأسى

والأس تجاعيد بعيدة الغور . وقد نمت لحيته وطالت أظافره بفعل الزمن والاهمال طولاً فظيعاً ، وبلت ثيابه من طول الاستعمال بلى ساحقاً ، ووبىء الهواء من حوله من وفرة الأقدار .

هكذا وجد القسيس أثر الحظ وحليفه فى سالف الزمان ، فثار لمنظره نأثره وهرول إلى حاكم القلعة يستعطفه للتعس المسكين ويستنديه منة أخرى ليس من دونها نفع للمنة الأولى .

فلما اعتذر له الحاكم بتعليماته ، قرر السفر إلى مقر الأمير ليسأله العفو عن السجين . وقد قال له إنه لن يقرب سجينه بشئ مقدس ما لم يرد إليه شبهه بالآدميين فأجابه الأمير إلى ما طالب وبات السجين من ذلك اليوم فى عداد الأحياء قضى أليزوس فى تلك القلعة عدداً من السنين فى حال أخف وطأة من حاله السابقة وأرحم به كثيراً ، بعد إذ أفل نجم المخطوظ الجديد ، وتعاقب على مكانه كثيرون غيره . وكان هؤلاء أكرم نفساً من سفهم ، وليس ثم ما يثارون له من سجينهم . وأخيراً حل يوم الخلاص بعد عشرة أعوام — لكنه لم يحاكم ولم يبرأ ، بل تلقى حرته من يد سيده منة ومنحة ، وفرض عليه أن يغادر البلاد إلى غير رجعة .

وهنا ينقطع جبل الأخبار التى تلقيتها من أفواه الناس وأنشأت منها تاريخ أليزوس فون . ج . وأجذنى مضطراً إلى أن أخطئ من الزمن عشرين عاماً بدأ أليزوس فى خلالها حياته الجديدة بالخدمة فى جيوش أجنبية . وقد بلغ فيها القمة التى أسقط منها فى وطنه . ثم تولى الزمن نصير التعساء الذى يحقق العدالة بخطاه الوئيدة ولكنه لا ينفلها — تولى أيضاً قضية أليزوس . فقد ولت سنو اللهو وإشباع الشهوات عن الأمير ، وأخذت الإنسانية تقرر حقها عليه حين ابيض شعره . فاحس الحنين إلى حبيب صباه وهو يمشى إلى القبر ، واستدعى المبعد الى

وطنه ليعوض الشيخ ما ألحق بالرجل . وقد كان ألويزوس عاوده الحنين متتدا رفيقا ، فحين تلاقيا كان التلاقي مؤثرا ، والاستقبال حارا خداعا ، كأنما كانا افتراقهما أمس . وحدهج الأمير وجه ألويزوس بنظرة فاحصة ، فاذا وجه يعرفه وكأنه لا يعرفه ، وخيل إليه أنه ينصى تجاعيده الذي احتفرها بيده . وقد فتش في وجه الشيخ عن قسمة الشاب التي استبدت بحبه فلم يجد ما يبحث عنه . وتكلف كلاهما رفع الكلفة فاستشعرا مثل برود الثلج ، وظل اتلبان يفصلهما الى الأبد الخزي والخوف . والمنظر الذي يذكر الأمير بتسرع لا يمكن أن يشعره راحة الضمير ، كما أن ألويزوس ما كان ليحب من نكبه وكان علة شقائه . لكنه تذكر الماضي هادئا متعزيا كالحالم الذي يستشعر الراحة بعد التخلص من حلم ثقيل على أنه لم يرض طويل وقت حتى كان ألويزوس يتبوا كل مراتبه السابقة ، يريد الأمير أن يعوضه خير العوض من ماضيه كابتا ميله عنه . ولكنه أكان بوسع الأمير أن يرد الى صفيه السابق قلبه الذي أتلغ فيه الأحاسيس بالمتة ؟ أكان بوسعه أن يرد عليه سنا الامل أو أن يصطنع للشيخ هناء يعوضه ما سلبه اياه وهو رجل ؟

لقد ظل ألويزوس فون . ج تسع عشرة سنة أخرى ينعم بهذا الخريف البهيج في حياته ، فلم تستطع المصائر والمنون أن تطفى فيه نار الهوى ، ولا أن تكدر فيه صفو الروح الطروب . فكان في السبعين من عمره يطلب ظل ضيعة كانت له وهو في العشرين . ومات أخيرا حاكما لتلمعة .. حيث يتقل سجناء الدولة . وكان في أ كثر الظن خليقا أن يظهر نحوهم من الرحمة ما تعلم تقديره في نفسه . ولكنه كان قاسيا هوائيا في معاملتهم . وفي سورة غضب على أحد هؤلاء التعساء لقي الحف الذي أرقده في نعشه في الثمانين .

هينريش هيني

شاعر وكاتب ألماني مشهور . ولد في ١٣ ديسمبر ١٧٩٩ بمدينة دسلدورف من أبوين يهوديين ، وتعلم عند الجوزيت ، ثم ذهب الى همبرغ ليتعلم التجارة لكنه لم يلبث أن غادر المدينة الى مدينة بون ليدرس القانون . وهناك اختلط بطائفة من الادباء والفلاسفة ، وطبع في برلين أول ديوان شعرى له فلم يوق نجاحا ، فأحرقه ذلك . وأتم دراسة القانون وتنصر في الـ ااسة والعشرين لكنه عاش حياته كلها لا هو نصراني ولا هو يهودى . وعكف بعد ذلك على التأليف فأخرج مأساتين هما المنصور ، وراكيف ، فلم يكن نصيهما من التوفيق كبيرا . وكتب صورا في السفر فشقت له طريق الظفر بما حوت من لذع وملاحظات ألمعية . ثم أصدر كتاب الاغانى فخلد اسمه ؛ ثم عكف على الكتابة فكان الفسك ، الرشيق ؛ الساخر ؛ يحركه الحب المستعر والحاسة المتقدة ؛ ويحركه السخر السام والتهكم اللاذع من أعماق الاعماق . تتخالط مشاعره الصميمة أحيانا نغمة دميمة . فقد أحب ألمانيا ووطنه وأبغضها معا ؛ وعاش على معاش من الحكومة الفرنسية . فهو في نظر البعض موضع إعجاب يرفعه الى عليسين . وفي نظر البعض الآخر وصمة في جبين . وقد مات

سنة ١٨٥٦

تمثال الرخام والراحلة

لرئيسه هينى

فى هذه اللحظة امتيةظت المريضة ، فتطلعت إلى الصديق عيناها الحنونان ، الزرقاوان ، وكأنهما ترنوان من أعماق حلم تسألان وترجوان . . . قالت بذلك الصوت الناعم الذى تسمعه للمصدور فيعرشك : فيم كنت تفكر الآن يا مكسمليان ؟ وهو صوت تسمع فيه نغمة الطفل ، وتغريدة الطير ، وتسمع فيه مع ذلك حشرة الموت فى صدر المحتضر ! فيم كنت تفكر الآن يا مكسمليان ؟ وهبت من ضجعتها وقد عاودت السؤال ، فتلوت خصلها الطويلة حول رأسها كأنها أفاع من عسجد منها الروح .

فصاح مكسمليان : « بربك ! » ، وردها على الأريكة فى رفق ، قال : أبقي مضطجعة حيث أنت ، وأمسكى عن الكلام ! سأقول لك كل شئ ، كل شئ أفكر فيه وأشعر به ، بل سأقول لك مالست أعرفه .

ثم استطرد يقول : وفى الحق أنى لا أدرك تماما ما أفكر فيه ولا ما أشعر به . صور من طفولتى تمر بخاطرى غائمة مبهمة : فهناك قصر أمى وحديقته المهجورة ، وهناك تمثال الرخام الجميل الملقى فوق العشب . وقد قلت « قصر أمى » ، فلا تصورى بالله شديداً نفخا تحف به الروعة ، فقد اعتدت هذه القسمية ! وقد كان أبى يوكد كلمة « القصر » توكيداً خاصاً ، ويتسم لهذا التوكيد ابتساماً غريباً . فلما تقدمت بى الأيام أدركت معنى هذا الابتسام ، وكنت إذ ذاك غلاماً فى الثانية

عشرة أسافر مع أمى الى القصر . وكان سفرى هذا هو الأول ؛ لبثنا فيه طول النهار نقطع الغابة الكثيفة ، وترتسم فى ذا كرتى ملاحظتها المظلمة . وعند المساء وتفتنا بعارضة أفقية تعترض الطريق الى مرعى فسيح ، فكثنا نصف ساعة ننتظر قبل أن يأتينا الولد من السكوخ القريب ويرفع الحاجز ويدخلنا . وأقول « الولد » لأنه هكذا تنادى العجوز مارتا ابن أخيها البالغ من العمر الأربعين . وقد تركنا ننتظر « هذا الوقت الطويل لأنه لم يشأ أن يستقبل سادته الا بتأليق ، فذهب يرتدى بذلة التابع اتى ناله المتوفى ، واذا كان يعلوها الغبار فقد جعل ينفض عنها غبارها قبل أن يرتديها . ولولا أننا لم نمهله للبس جوربيه كذلك ، وهكذا ظلت ساقاه العاريتان المديدتان الحمراءان ، وليس بينهما وبين سترته القرمزية القانية من تباين يذكر . هذا الى أنى لم أدر آ نئذ هل كان يرتدى تحت سترته سراويل ؟ ! ولما قادنا « الوالد » الى بناء صغير متهدم ، استغرب خادمنا يوحنا أن يكون هذا هو القصر الذى كان يسكنه والدى المرحوم ، وقد ظالمنا سمع معنا عنه . واذا تأمره أمى أن يذهب فيأتى بفرش النوم يسقط فى يده . فكيف يتصور أن ليس فى القصر فرش للنوم . وهو اما أنه لم يسمع بتاتا ما أمرته به أمى عند السفر من أن يحضر معه فرشا . واما أنه وجد أن لاضرورة للتعبد فلم يصدق بالأمر وكان البيت الصغير المؤلف من طبقة واحدة يحتوى أيام عزه الغاير على خمس غرف صالحة للسكنى ، أما اليوم فهو صورة حزينة من صور الماضى : أثاث محطم وطنافس مهاللة ، وألواح من الزجاج لم يلم واحد منها من العطب ، وأرض المكان منزوعة هنا وهادنا ، وفى كل مكان آثار سيئة لما كان من بغى الجند وعدوانهم . وقال « الولد » وحلى وجهه ابتسام الغباء : لقد كان نزول الجند عندنا مسليا جدا . لكنه لما أشارت أمى بأن ندعها وحدها ، خرج الولد مع

يوحنا لأعمالها وذهبت أنا الى الخديقة أعاينها . فإذاهى أيضا صورة لخراب عديم
العزاء . فالأشجار الكبرى اما مقطعة الأوصال ، واما مطاحة يعالو جذوعها الملقاة
نبات طاغ كما أنه يسخر منها . وقد نمت الأدغال هنا وها هنا فوق ما كان من
مسالك وهنا وها هنا تماثيل قائمة طاحت رؤوس معظمها ، أو جدعت أنوفها على
الأقل ، ومن بينها تمثال لديانا غطى الحلاباب المتسلق نصفه الأسفل فى أهزء
صورة ، وتمثال آخر لإلهة الوفرة والخصوبة قد أزهز على قرنه نجيل كريبه الرائحة ،
إلا تماثالا لا أعلم كيف سلم من يد الإنسان والزمان ؛ قد ألقى عن قاعدته على
العشب فظل ملقى هناك لم يمسه سوء ، تمثال إلهة من الرخام ذات قسما صافية
بديعة ، وصدر نبيل ناهد ، يتجلى من بين العشب النامى كما تتجلى رؤى الأغر يق
وقد كدت أرتاع حين رأيته ، إذا سرت إلى منه هبة غريبة قابضة ؛ وأقصتني
عن منظره الظريف غباوة خفية .

كانت أمى حين عدت إليها واقفة بالنافذة ، غارقة فى الفكر ، تعتمد رأسها
على ذراعها اليمنى ، وتجري دموعها من دون انقطاع على خديها ، ولم أكن رأيتهما
تبكى هكذا من قبل ، فضمتنى إلى صدرها فى حنان ولهفة . ورجتني الصفح
أن حرمنى إهمال يوحنا من فراش أنام عليه . قالت : « ومارتا العجوز تشدد عليها
وطأة المرض ، فلا تستطيع يابنى أن تنزل لك عن فراشها . على أن يوحنا سيحضر
لك وسائد المركبة يعد منها مضجعك ، وسيجعل معطفه غطاء لك . أما أنا فسانام
هنا على القش ، فهذه حجرة أبى المرحوم ، وكانت قبلا ذات رواء . والآن
دعنى وحدى » . وتفجر من عينيها الدمع أغزر من ذى قبل .

فهل كان المضجع الذى لم آلف ، أم الفؤاد الذى هاجه الشجن ، هو ما أطار
عن جفنى النوم ؟ كانت أشعة القمر تنفذ رأساً من الألواح الزجاجية المحطمة ،

وكأنها تستهويني إلى الخروج إلى ليل الصيف الزاهي . وقد تقلبت فوق فراشي على الجنبين ، وقد أغمضت عيني ، ثم عدت أفتحهما مؤرقا ، فما كانت لتفارقني صورة التمثال الرخامي الجميل ، أو ينقطع تفكيرى فيه . ولم أستطع تفسير الغباوة التي تملكنتني لمراه ! وقد غاظني هذا الشعور السخيف ، وقلت أخاطب نفسي في خفوت : غدا نقبلك أيها الوجه الرخامي الجميل ، ونقبلك من ذلك القم الذي تضامت شفتاه عن ثغر في أظرف تسكوين ! وتولاني قلق لم أحس مثله قط ، سرى في جميع أعضائي فلم أعد أقوى على مغالبة الدافع الغريب الذي كان يدفعني إليه فوثبت أخيرا من فراشي ، والشجاعة الجريئة تملكني ، وقلت : سأقبلك الليلة أيها التمثال العزيز فليس هذا بضائري ، وتركت البيت مخافتا حتى لا تسمع أمي خطاي ، وسهل على ذلك أن مدخل البيت ، وان زود بلوحة كبيرة تحمل شارة الأسرة ، كان خلوا من الأبواب ، وجعلت أتحسس طريق متعجلا بين عرائش النبات في الحديقة المهجورة ، والسكون شامل ، والرغبة سارية ، وضوء القمر الساجي يغمر المكان . وقد كانت ظلال الأشجار كأنها مسمرة فوق الأرض كذلك كانت الإلهة الحسناء مستلقية فوق العشب الأخضر بلا حراك ، لكن الذي قيد حركتها لم يكن ، فيما بدالى ، موات الحجر بل سكون الكرى ، فلما اقتربت منها خشيت حقا أن يوقظها أخفت صوت قترفع جفنيها ، فخبست أنفاسي حين انحنيت عليها أتلى قسما وجهها الجميل ، ثم صدني عنها وجل سرى في ضلوعي ، لكنني عدت فردتني إليها شهوة طفلية خفق لها فؤادى ، كما لو كنت مقدما على جريمة قتل ! وأخيرا قبلت الإلهة الحسناء بحرقة وحنو ويأس ، كما لم أقبل في حياتي ، وان أنس لا أنس هذا الإحساس المرعب الحلوى الذي استولى على حين مست في برودة الشفتين الرخاميتين تشعرني الهناء .

وسافرنا في اليوم التالي ، ولم أر التمثال الظريف بعد ذلك ، لكنه لبث سنوات أربعاً يشغل قلبي ، وبات يغمغمني من ذلك اليوم شغف بالتماثيل الرخامية عجيب ، فأنا الى هذا الصباح أشعر بجاذبيتها القوية ، فقد جئت من لورنزيانا ، مكتبة آل مدسيس ، ووقعت ، ولا أدري كيف وقعت ، على المصلى الذى اتخذت لها فيه هذه الأسرة الإيطالية المجيدة مضجعاً من الحجارة الكريمة نامت عليه ملء الجفون ! هناك فى هذا المصلى لبثت ساعة كاملة أطيل التأمل فى تمثال رخامى لامرأة ، يشهد تكوينه الجمالى القوى بقدرة ميكائيل أنجلو وجرأته ، بينا شخص التمثال ترف حوله حلاوة أثيرية ليس من عادة المرء أن يطلبها عند هذا المعلم . هذا الرخام قد احتبس دولة الأحلام بكل ما فيها من غبطة ساكنة ، وفى هذه الأعضاء البديعة سكن هدوء حنون ، وبدا ضوء القمر الملطف وكأنه يسرى فى العروق ... هذه ليلة ميكائيل أنجلو بوناروتى . ألا ليتنى أستطيع أن أنام نومتى الأبدية بين ذراعى هذه الليلة . . . !!

واستطرد مكسميليان بعد هنيهة يقول : لقد كانت رسوم النساء دائماً أقل تأثيراً فى نفسى من التماثيل . لكننى شغفت مرة بلوحة جبا ، وكانت لعذراء بارعة الجمال عرقها فى كنيسة بدينة كولونيا على نهر الرين . كنت اذ ذاك من رواد الكنائس المواظبين ، وكانت نفسى مدهة بروحانيات الكشلكة ، قينة بأن تجاهد كفارس من الأسبان ، طيلة الزمان ، فى سبيل مريم ملكة الملائكة ، وأجمل سيدة فى السماء والأرض ، وأن تجعل من جهادها مسألة حياة أو موت ! كنت أهتم إذ ذاك بالعائلة المقدسة جمعاء ، وكنت أرفع قبعى هاشاً كلما مررت بصورة للقديس يوسف . بيد أن هذه الحال لم تدم طويلاً ، فقد انصرفت فجأة

و « من دون انذار » عن « الأم » حين تعرفت في متحف للفن القديم بحورية يونانية قيدتني بأصفادها الرخامية زمناً طويلاً .

وتضاحكت مارى قائلة : وحبك ، النساء المنحوتات أم المرسومات ؟
قال مكسميليان : لقد أحببت منهن أيضاً من مات ! وانتشر على وجهه شجن عظيم ، ولم يلحظ أن مارى ارتفعت لهذه الكلمات ، فمضى يقول في هدوء :
« من أغرب ما كان أنى أحببت فتاة بعد أن ماتت بسبع سنوات ، فحينما تعرفت بفيرى الصغيرة راقتنى كثيراً ، ووقعت من نفسى موقعا حسنا . ظلت ثلاثة أيام مشغولاً بها ، أحس الهناء كاملاً فى كل ما تفعل وما تقول ، وفى كل تعبير لكلماتها الفاتنة العجيب . وأنا فى كل هذا لا تشطى بنفس ولا تسرف فى الخنان وكذلك حين علمت بعد هذا بأشهر أنها توفيت فجأة من حمى الأعصاب ، لم يروغنى الخبر ترويعاً شديداً ، ولم يهزنى من الأعماق ، وقد نسبتها نسياناً تاماً ، وأنا مقتنع بأنى لم أفكر فيها مرة لعدة سنوات !! حتى إذا مضت سبع سنوات كاملة على الوفاة . وكنت يوماً فى بوتسدام أنعم بالصيف الجميل فى وحدة مسترسلة دون إزعاج ، لا اختلط بأحد ، ولا يعدو تطوافى التماثيل الموجودة فى حديقة سان سوسى Sansouci ، حدث أن تذكرت ملامح وجهه . وأسلوباً فى الحديث والحركة متناهياً فى اللطف ، دون أن أتذكر لمن هذه الملامح وهذا الأسلوب . وليس يعذب كالتنقيب فى الذكريات القديمة عن شيء مفقود . ومن ثم شد ماسرنى أن فوجئت بتذكر فيرى الصغيرة ، ون تبينت أن ما كان يقلقنى ويداعب ذاكرتى ، إنما هو وجهها الحبيب المنسى . وقد اغتبطت بهذا الاكتشاف شأن من يلتقى صديقاً حميماً على حين غفلة بعد طول الغياب . فجعلت الألوان الباهتة تزهو شيئاً فشيئاً . وأخيراً تمثلت الأنسانة الصغيرة الحلوة لناظرى

لحما ودما ، تبسم ، وتعبس ، وتتنذر ، وتبدو أجمل من ذى قبل . من ذلك الحين لازمتنى هذه الصورة الظريفة ولم تتر كنى . ملأت حنايا النفس ، فحيث كنت ووقفت ، ووقفت ، وكانت إلى جانبي تتحدث إلىّ وتضحك معى فى غير ماضير ، ومن دون غلو فى الحنو . أما أنا فازددت مع الأيام افتئانا بالصورة ، وازدادت الصورة كل يوم تحقنا فى ناظرى .

ومن السهل أن تستحضر الأرواح ، لكنه من الصعب أن تردها إلى عدمها البهيم ، فانها لتتظر إلينا عندئذ متوسلة فتكون قلوبنا لها أقوى شفيع . . . وقد تعذر على التخلص من فيرى فأحببتها بعد موتها بسبع سنين . وقضيت فى بوتسدام ستة أشهر غارقا فى هذا الحب . وعظمت عنايتى بتجنب الناس عن ذى قبل ، فاذا مر أحد فى الطريق قريبا منى ، أحسست أشد الضيق ، وبات يحدونى من كل لقاء مثل الهيبة التى تحدو أرواح الموتى الهائلة بالليل ، فانهم يقولون إن هذه الأرواح إذا لاقت حيا نفرت منه كما ينفر الحى من الشبح . واتفق أن جاء بوتسدام سائح لم يكن مناص من ملاقاته لأنه شقيقى . فحين رأيته وسمعت منه ما وقع من حوادث الأيام الفائتة تنبّهت كما يتنبه النائم من حلم طاغ ، وشعرت فجأة ، وأنا مدعور ، بمبلغ الوحدة التى كانت تطوينى ، فقد مرت بى فصول السنة فلم ألاحظ تغيرها ، ولم أفطن إلى الشجر الذى تساقط ورقه من أمد ، واكتسى بنضج الخريف ، فرعيته عندئذ متعجبا . وبارحت بوتسدام على الأثر . وودعت فيها فيرى الصغيرة وفى مدينة أخرى ، كانت تنتظرنى فيها أعمال هامة ، انخرطت بظروفى وصلاتى الوثيقة فى سلك الحقيقة الجافة .

الطريد

[هذه القصة لمكسيم جوركي ، الكاتب الروسي الشهير ، الذى عاصر العهدين ، وشايع الثورة على أحدهما . فلما حكمت لم يمنح لها ، ولم يرض كل الرضا عن أساليبها . فاعتزل لخدمة الادب ، وظل أميناً على مثله العليا حتى مات . وهو كاتب صادق الحس ، صادق التعبير والتصوير وقصته هذه ذات مغزى ورمز لا يخفيان على بصير]

طلع البدر أحمر كالدم ، فكأنه يخرج من بطن هذا السهل الذى ازدرد من قديم لحوم البشر ، وتشرب الغزير من دم الانسان ، فبات لأرضه هذا الدسم ، وغدا هذا السهب الريان .

كانت الأوراق تلقى علينا ظلالا كالشباك ، ترقص فوقنا أنا والعجوز ، وكانت السحب ترمى ظلالها الزاحفة على الأرض ، يتخللها ضوء القمر ، فتنتشع عتمتها ، ويتولاها الشفوف ! وكانت الأصوات لا تبلغ مسمعنا من ناحية البحر إلا وهنا : فتارة نلحظ بكاء كان ، وأخرى يترامى ضحك الحسان ، وآنا يغنى فتى غناء رخيا ، والموج فى هذا يتلاطم على الساحل ويتناهى إلينا إيقاعه المنتظم .

« أنظر ! هذا الارزأ يسير هناك ! »

فنظرت إلى حيث أشارت العجوز بيدها المرتعشة المعقوفة ، فاذا ظلال تمر أبابيل ، وإذا ظل منها أشد ظلمة من سائرهما يخطف أسرع من إخوته ، لأن السحابة التى ألقته كانت أقرب من أخواتها الى الأرض .

قلت : « ما من أحد هناك »

قالت : « إنك لأشد عمى منى أنا العجوز . ألا ترى هذا الظلام الذى ينطلق فى السهل ؟ ! » فعاودت النظر ، فلم أبصر شيئا ، اللهم إلا ما سبق لى أن لحظته من ظلال .

قلت : « ما أرى غير الظل فلم تسمينه لاررا ؟ »

قالت : « لأنه كذلك . وقد بات اليوم أشبه بالخيال ... لقد عاش الى الآن آلاف السنين ، فقددت الشمس في خلاها لحمه ، وجففت دمه ، ويبست عظمه ، وذهب مع الريح بددا . انظر كيف يفعل الله بالمرء الفخور . . »

فرجوت العجوز أن تقص على قصته ، فلقد حزرت من تلميحها أن ههنا أسطورة من تلك الأساطير الرائعة ، التي نسجها الخيال في هذا السهل ، فانشأت تقول : « كان هذا منذ آلاف مضت من السنين . فهناك وراء هذا البحر إلى بعد سحيق ، أرض ونهر عظيم . وفي تلك الأرض من ورق الأشجار ، وأعواد العشب ما يقي ظله الإنسان حرارة الشمس القاسية الحامية ، وفيها كذلك تربة صالحة .

« سكنتها قبيلة منيعة الجانب عزيزة السلطان ، كثيرة القطعان ، ولوعة بالصيد ، طارد أبناءها الوحش بقوة وكانوا في مطاردته من الشجعان . فكانوا إذا عادوا من الصيد أداروا الأقداح ، وقارعوا الملاح كؤوس الراح ، وراحوا يقبسون من الحسن كما تقبس من النار .

« وذات يوم والقوم في وليمة انقض نسر من السماء ، وخطف من بناتهم حسناء فاحمة الشعر ، ساجية كالليل . فانطلقت في إثره سهام الرجال ، لكنها عادت من دونه مرتدة الى الأرض . وطفقوا يبحثون فلم يجدوا الفتاة ، ثم مالبثوا أن نسوها كما ينسى كل شيء في هذه الدار . »

وتهدت العجوز ، وأمسكت عن الكلام . ثم خرج من صدرها ما يشبه الهرير ، فكأنتها غمغمة القرون حركت الذكرى منسيها الدفين . وجعل البحر يصاحب الأسطورة بصوت خافت ، فعلها من تلك الأساطير التي نشأت ونمت وترامت على شاطئانه .

« وتقفزت عشرون من السنين فاذا المخطوفة تعودوا هنة ، خائرة ، والى

جانبا قى جميل القسمات ، قوى العضلات ، كما كانت أمه من قبل . ولما مثلت أين كانت هذه السنين قصت عليهم كيف حملها النسر الى الجبال ، وكيف اتخذها امرأة له . وهذا ولدها ، قد مات أبوه بعد اذ شاخ ووهن ، وبعد اذ ارتفع الى حالق ، ثم ضم جناحيه ، ووقع فوق الصخور قهشتم .

« فرعى الجميع فرخ النسر بعين الإعجاب ، ورأوا فيه شديها لولا أن له عينين جامدتين مزهوتين شأن ملوك الطير . وأقبلوا عليه يكلمونه فيجيب إذا شاء أو يلزم الصمت . فلما جاء شيوخ القبيلة استهان بهم ، وجعل يخاطبهم كما يخاطب الأنداد . فأحسوا الإهانة فى سلوك الفتى ، ورموه بقلة الأدب . فألوف من لداته يوقرونهم ، وألوف يكبرونه يطيعونهم ، ورد هو عليهم وعينه تطفح بالجرأة : إن الزمان لن يجد بأمثالى . فايقرم الجميع ماشاءوا فلن أقرم . فثاروا وصاحوا به : لن يكون لمثلك مكان بيننا فاذهب حيث شئت ! »

« فضحك ، وذهب حيث شاء - إلى فتاة جميلة كانت تنظر اليه مرتاعة ، فضمها الى صدره ، فدفعته رغم ما كان من جماله ، وصدفت عنه خشية أيها . وكان من أولئك الشيوخ الذين قاضوه وأصدروا حكمهم عليه . فضربها الفتى حين صدت عنه ، وطرحها على الأرض ، ووطىء بقدمه صدرها ، فنفر الدم من فيها صوب السماء ، وضافت أنفاسها ، وجعلت تتلوى كالحية ، ثم لفظت الروح .

« فحمد الدم فى عروق النظارة ، فلم يكن لهم يثل هذا المنظر عهد . ولبشوا برهة صامتين يحملقون فى الطريحة الدامية الشجر ، الجاحظة العينين ، التى تطلب الثأر بأفصح من الكلام . وجعلوا يتفرسون باهتين فى الواقف الى جنب جثتها فردا حيا لهم أجمعين ، جامداً متعالياً ، لا يطأطأ رأساً ، يتحداهم أن ينزلوا به العقاب . » وما إن أفاقوا من غشيتهم حتى أنقضوا عليه ، وشدوا وثاقه ، وتركوه هكذا

إذ كان البطش به لا يشفى غليلهم ، ولا يستقيه كأس الهوان .

وساد الليل ، وتباعده غوره ، وازداد رونقه بما كان يتخلله من روعة الأصوات الخافتة الغريبة : فهناك السنجاب يصفر في السهل حزيناً ، وهناك الجدد يصرون بين الكروم ؛ والاوراق تحف ، والبدر الكامل الذي كان قبل ذلك دائماً قانياً ، يشحب ، وهو يرتفع الى علاه ، ويسكب على السهل ضوءاً مشوباً بضباب يزداد انتشاراً .

« والتأم عقد الجمع وجعلوا يتشاورون فيما ينبغي أن يكون عقاب المجرم الذي يناسب جرمه . فارتأى أحدهم أن يشد الى خيول عديدة ، ويوكل اليها تمزيقه . لكنهم استضاءوا هذا الجزاء على هوله . وارتأى آخر أن يرموه جميعاً بسهامهم فلم يعجبهم هذا الرأي أيضاً . اذن فليحرق ! لكن الدخان يتصاعد من الحطب خليق أن يستر عنهم أوجاعه . وتقدم هذا برأى وذاك بآخر . لكن شيئاً من هذه الآراء لم يرقهم ولم يلق ارتياحهم . والأم خلال ذلك جاثية على ركبتها أمامهم ، صامته ، لا تجد مسعفاً في التوسل الى القوم من دمع أو كلام . وظلوا على هذه الحال طويلاً يفكرون ، فقال حكيم منهم بعد طول التأمل : لنسأله لماذا فعل فعلته ؟ » فسألوه فأجاب : حلوا وثاقى أولاً ، فلن أتكلم مشدود الوثاق . فحلوا وثاقه ، فسألهم : ماذا يطبون ؟ وكانهم عنده بعض العبيد .

« فقال الحكيم : لقد سمعت ما نطلب

« قال . ولم تطلبون أن أفسر أعمالي ؟

« قالوا : لكي نفهمها . ثم قالوا : أيها المتكبر أنصت ! انك ميت لا محالة ،

فدعنا نفهم لماذا فعلت فعلتك . إنك زائل عما قريب ، ونحن الباقون ، فمن الخير لنا أن نزداد علماً .

« قال : اذن فلا أقل لكم إنى قتلتها لأنها صدت عنى - وقد كنت أريدها لنفسى

« قالوا : ولكنها لم تكن لك ولا ملك يمينك

« قال : أفلا تحتاجون إلا الى ما تملكون ؟ انى أرى لكم ألسنا ، وأيديا ،

وأرجلا .. وأراكم تملكون مع هذا حيواناً ، وتساء ، وأرضاً ... وكثيراً غير ذلك

« قالوا : ان ما يأخذه المرء يدفع ثمنه من نفسه : من عقله ، وقرنه ، وحرته ،

وحياته .

« قال : لكنى لن أبذل فى شىء نفسى .

« وطال كلامهم وكثرت ردوده ، وانتهوا آخر الأمر الى انه فى رأيه لا مثيل

له على هذه الأرض ، وليس خلافه شىء فى هذه الدنيا . وروّع القوم ما وجدوه

من وحدته ، فلا أهل ، ولا أم ، ولا ماشية ، ولا امرأة . ولا هو يطلب من

هذا شيئاً »

ورنت من الساحل ضحكة مريحة ضحكاتها فتاة ، وغنى فتى غناءً جهورياً

صاحبه فيه آخرون الحين بعد الحين . وانساب الهواء بسرب من الأناغم يسبح

فى الجو ، ثم لم يلبث أن اختفى فجأة ، وكأنه لقى من يقتنصه . . واستطردت

العجوز :

« وعاد القوم الى التشاور فى نوع الجزاء الذى ينزلونه بالفتى ، فانشأ حكمهم

يقول : ان عندى جزاءً ما أراكم تهتدون اليه فى ألف من السنين . فليكن جزاؤه

من نفسه ، فأطلقوه . دعوه وشأنه فعقابه رهن حرته . وحدث عندئذ حدث

عظيم ، فقد قصف الرعد فى السماء ، وكانت خلوا من الغيوم ، فكان سلطان

الطبيعة يوكد أقوال الحكيم . فأمن الجميع على كلامه ، وتفرقوا كل فى سبيله ،

إلا الفتى الذى بات من ذلك الحين يدعى لارراً أو الطريد ، فانه قهقهه فى إثر

القوم ، وبقى في مكانه حراً طليقاً ، كما كان أبوه . لكن أباه لم يكن بشراً ، وهو من البشر . بات حراً كالطير مباحاً دمه ، يسطو على القبيلة يسرق غنمها ، ويخطف بناتها ، فتطلق عليه السهام ، فلا تنفذ الى جسمه ، لأن عقوبته الكبرى تخفيه عن الأنظار . وقد كان يقظاً ، نهاباً ، جسوراً ، قاسياً ، لكنه لا يلقى إنساناً وجهاً لوجه . وكان لا يرى إلا من بعيد ، فمن رآه أطلق عليه سهمه ، وما أكثر ما أطلق عليه من سهام . وقد لبث يتحاشى الناس في وحدته حقة من الزمان . لكنه أتى للإنسان أن يأتي في حياته شيئاً واحداً لا يأتي غيره . انه لا يطلب المتعة وحدها ، فالمتعة تفقد مع الزمن قيمتها . انه يطلب الألم .

« ومن ثم اقترب من الناس وما كاد يفعل ، فقد اقتضوا عليه ، فلم يحرك ساكناً ، ولم يزايل موضعه ، ولم يدفع أذاهم عن نفسه — فحزر أحدهم غرضه ، وصاح بالبقية : كفوا أيديكم ، انه يطلب الموت . فكفوا أيديهم عنه . فما كان قصدهم أن يخففوا عنه عبء الحياة وقد آذاهم ، أو أن يعجلوا بنيتة ، وضحكوا منه ، فانتفض حين رن في أذنه هذا الضحك ، وفتش عن شيء في صدره ، ثم انتبه إلى حجر على الأرض فرفعه ، وحمل به بغتة عليهم ، فتفادوا من ضرباته ولم يضربوه ، وكلّ الفتى ، وخارت قواه ، فسقط على الأرض ، ثم نهض والتقط سكيناً كانت قد ضلت في مدافعه ، وطعن بها صدره فتكسرت السكين كأنها صدمت حجراً صلباً ، فسقط ثانية على الأرض وطفق ينطحها برأسه ، فساخت الأرض تحت ضرباته ، وانخسفت .

« فصاح القوم مبتهجين : انه لا يستطيع الموت .

« وانصرفوا عنه وخلفوه وحده ، فانطرح على الأرض ووجهه إلى أعلى ، فلمح في السماء نسوراً قاهرة ، كأنها فيها نقط سوداء . وبقى طريحاً وفي عينيه من الغم

مالو قسم على البشر لسممهم أجمعين . ولبت من ذلك الحين يبحث عن حتفه
ولا يلقاه ، ويهيم على وجهه في كل مكان ... ها هو ذا قد بات خيلاً ، وسيبقى
كذلك إلى آخر الزمان . انه لا يفقه للناس قولاً ولا فعلاً . انه يبحث عن حتفه أبداً
ويهيم أبداً ... انه لا حياة له ولا يبسم له ممات . انه لا مكان له بين الناس ...
وهكذا يلقي المتكبر الجزاء »

وتنهدت العجوز وأمسكت عن الكلام ، وتدلى رأسها على صدرها ، وجعل
يتمايل تمايلاً غريباً ، ثم غلبها النعاس .

جورج دى مورييه

هذه القصة واحدة من مائة من خير القصص التى ظهرت لنخبة من القصاصين البارزين . وقد توفر على تلخيص كل منها كاتب ضغط مئات صفحاتها فى أربع ، فجاءت الخلاصة التى أنتجتها عملية التركيز ، وضمتها دفئا كتاب ، دليلا على براعة هؤلاء الكتاب ودقتهم فى الاختزال ، مع المحافظة على روح القصة والحرص على مشوقاتها .

والقصة التى نحن بصدددها لجورج دى مورييه الفرنسى الاصل ، المولود فى باريس سنة ١٨٣٤ . هاجر أبوه من فرنسا فى عهد الفزع وأقام فى لندن مع غيره من المهاجرين . وجاء جورج مع أبيه فى الثالثة أو الرابعة من عمره ليعود إلى باريس فى الثانية والعشرين يطلب الفن فى الحى اللاتينى ويظل فى دنياه . فكانت هذه الصورة التى خطها بالقلم ، والتى تنقل موجزها اليوم . والموجز للكاتبه اليس جرويه .

وللكاتب دى مورييه قصة « يتراييتسن » التى أكتبته شهرته كقصاص فوق ما اشتهر به كفنان ودعاب . وقد شاء القدر أن ينال من فنه ، فانتلف عينه اليسرى وكاد أن يتلف اليمنى ، فكان مصابه فى بصره شر مصاب وقد مات فى انجلترا سنة ١٨٩٦

تريلى

لجورج دى موريه

فى الحى اللاتينى بباريس معمل شائق آوى « ثلاثة من فرسان الفرشة » هم تالبوت واين أوتافى ، وكان فتى ضخما من يور كشير ، أشقر الشعر ، أزرق العينين التحق بالجندية أولا ، ثم استجاب أخيراً لرغبته فى أن يكون فنانا . وساندى مالك الستر أوليرد كما ناداه أصدقائه ، أراده أبوه محامياً ، لكنه جاء الى باريس يرسم مصارعى الثيران ، ويغنى الأغانى الفرنسية ولكنه اسكتلندية صميمة .

والثالث وهو بيللى الصغير أو وليم باجوت كان شابا انجليزيا رقيق الحاشية من سكان لندن . وكان العيش والعمل فى باريس من أحلامه فلم يلبث حلمه أن تحقق ، فاتخذ وصديقه المعمل معا . وكان كثيرا ما ينظر الى هذين الصديقين فيعجب : أفى الأحياء أم فى الأموات من وفق الى مثل هذين الصاحبين المحيدين . وكان يؤمن إيمانا صادقا بكل ما يقولان أو يفعلان ، فكان يهز قلبيهما بهذا الايمان هزاً ، فيجابه لتعلقه بهما وحيويته نحوهما . وكان يستبينان همته ومضاء ورقته فى كل الأمور فنال إعجابهما .

وفى ذات يوم من أبريل جاد غيثه كان الصحاب الثلاثة فى المعمل ، يعمل كل ما يلائم ذوقه : يطوح تافى زوجا من المضارب الهندية بقوة ، ويرسم ليرد على القائمة ، ويجشو بيللى فوق الأريكة العريضة قبالة النافذة الكبرى يحدق فيما يقابله من أسطح باريس ، ويفكر فى مستقبله ومستقبل صديقيه .

وإنه كذلك اذا بقرع قوى على الباب يقطع عليه تأمله ، وإذا رجلان يدخلان أولهما شخص طويل القامة ، بادی العظام ، في سن يفضل فيها التقدير بين الثلاثين والخامسة والأربعين ، عليه سماء اليهود ، وحسن الملامح ، لكنه مكفه الوجه له عينان سوداوان براقتان تطفحان بالجرأة ، وله جفون ثقيله وأهداب مديدة ، وكان معروفا باسم سفنجالى ، يتكلم الفرنسية بطلاقة تشوبها لكنة ألمانية . أما رفيقه فكان شابا ضئيل الجسم أسمر اللون يتأبط كما نوا وقوسا ، ولعله من النور .

وأبدى سفنجالى لساعته أن عندهما ما يعزفانه ، وجلس إلى البيان ، وأجرى أصابعه فوق مفاتيحه ذاهبا آيبا ، في سهولة ومقدرة شأن الأستاذ . ثم أنشأ يعزف ارتجالة شوبان الخافتة ، فأجاد في عزفها إجادة استخنت بيلى الصغير حتى كاد قلبه ينفجر من فرط التأثر والغبطة . وأن ينس لا ينسى بيلى هذه الارتجالة التي قدر له أن يسمعها مرة أخرى ، في يوم آخر ، وفي ظروف غريبة .

وعزف سفنجالى ورفيقه جيكو معا عزفا تناهى في الابداع ، وتلك تافى وليرد منه ماتملك بيلى من حماس طاغ هو أغور من أن تعبر عنه الألفاظ .

وبغثة قطع عليهم متعهم طارىء جديد : نقر عال ببرجمة الاصبع على البساب الخارجى ، وصوت جهير قد يكون لذكر أو أنثى ، وقد يكون ملك من الملائكة ، ارتفع بنداء الجبلين من أهل التيرول ، وهو نداء اللبان البريطانى حين ينبه الى ان اللبن فى أسفل الدار .

وقبل أن يأذن أحد بالدخول ظهر شخص غريب تشمله ظلمة الردهة . وكان فتاة مسرقة فى الطول ، مكتملة التكوين ، ترتدى معطفار ماديا مما يرتدى جنود فرنسا المشاة وتحت المعطف قميص قصير مخطط ، وقد ظهر فى أسفلها رسماها الأبيضان العاريان ، وضلت أصابع رجلها فى زوج ضخم من خفوف الرجال .

والفتاة وإن لم تكن جميلة حقا قد كانت على جانب من الفتنة عظيم ، وكانت أشبه بصبي انجليزى موفور الصحة موفور النماء . وإذا تغلق الباب خلفها قالت باهتمام كبير : إنكم جميعا انجليز ، أستم كذلك ؟ لقد سمعت الموسيقى فقلت أدخل عليهم وأمضى معهم بقية النهار ، ولا أحسبكم تعترضون ؟ إن اسمى تريلبي . تريلبي أوفيرال .

أجل لقد كانت تريلبي الاستوديوهات وتزوج الفنانين ، تنعم براحة الظهيرة . وقد تبوأَت فى المعمل عرش الانزوج تتناول عليه الغداء ، وتصغى الى الموسيقى وانتهى سفنجالى من عزفه فلاحظت تريلبي انه لم يكن مفرحا جدا ، وعرضت عليهم ان تغنيهم بالانجليزية أغنية تعرفها . وغنت لهم « بن بولت » فلما فرغت من غنائها كان السكون المربك يخيم على المكان ، وكان سامعوها فى حيرة من غنائها أجد هو أم هزل . لقد كان صوتها يغمر المعمل لكنه خلا من كل لحن أو موسيقى ، وكان صاحبته صماء عن النغم ، وقد كانت كذلك .

على أن تريلبي كسبت قلوب الفرسان الثلاثة بفتنتها وأنسها ، وخاصة بيلي . وقد كان بيلي هو الذى فاز من ودها بأ كبير نصيب . كانت تطهى لهم أحيانا وترتق ما تفتق من ثيابهم ، وتصغى إلى موسيقاهم وأحاديثهم الشائقة عن المجد الذى كان اليونان ، والعظمة التى كانت رومه . وكانت أحيانا تنقد عملهم كأنها واحدة منهم . وقد كانت فى الواقع كذلك .

وبلغ أمرها معهم ذروته ومنتهاه حين زار بيلي معملا آخر فوجد تريلبي جالسة إلى الرسام انموزجا كاملا . فصدم صدمة أشعرته بحبه العظيم لتريلبي . فهرع إلى صديقيه ليعلن اليهما انه ذاهب إلى باريزون ليصور الغابة ، وانه يريد أن يكون وحده .

ونظرت تريبي إلى الأمر نظرة مختلفة في ضوء مختلف ، وأطالت التأمل ، وعاركت النفس . فصحت عزيزتها على ألا تجلس بعد ذلك إلى رسام ، وإن تحصل قوتها بالعمل غسالة راقية وكواعة مغ صديق قديم يدير مغسلا ، ويريح من عمله ربحا طيبا . وما من شك في أن تريبي كانت من أولئك النسوة الزالات اللواتي يرجع زلهن إلى الجهل أكثر مما يعود إلى سوء القصد . وقد تبينت خطأها الآن ؟ وإذ تبين حبها لبيلي تولاهما شعور جديد غريب ، وبزغ في نفسها احترام الذات وقد سأل بيلي تريبي تسع عشرة مرة أن تكون له زوجا فكانت ترفض في كل مرة ، إذ تحس أنها ليست كفؤا له . وفي ليلة من ليالى الميلاد سأها للمرة المتممة للعشرين أتريدني زوجا ؟ فإذا كنت لا تريدني فسأبرح باريس هذا الصباح إلى غير رجعة . وإذا كانت تخشى أن تفقده إلى الأبد ، أجابت آخر الأمر سؤله . وسمعت أم بيلي بخبر الزواج المنوى ، فسافرت إلى باريس لتتحرى سيرة تريبي ، فلما فعلت قررت أن تريبي ليست الزوجة التي تنشدها لولدها . وصارحت تريبي بذلك كله ، ورأت تريبي أن تضحي في سبيل حبها العظيم لبيلي ، فوعدها بالرحيل وبألا تعود إلى لقياء . فهذا في رأيها خير ما تؤديه له . ووفت تريبي بوعدها ، ومرض بيلي مرضا شديدا . فلما تأثل التماثل الكفى إلى الشفاء ، رجع إلى إنجلترا مع أمه ، وانحمت من فؤاده صحيفة الهوى أو هكذا بدا . وعز أمرها على تافي وليرد لأنهما فقدتا تريبي وبيلي معا ، وبقيتا أمدًا لا يسمعان عن الأولى قليلا أو كثيرا . ومضت السنون فأصبح بيلي رساما شهيرا وبات له في لندن بيت وأصدقاء كثيرون .

نم ما لبث الفرسان الثلاثة ان تلاقوا جميعا فى باريس ، فزاروا مسارح الأيام الغابرة ، وذهبوا أخيرا الى المعمل القديم وقد بات فى حوزة مستأجرين آخرين ، وكان ما يزال على حائطه رسم ييلى الشهير لقدم تريلبي مصونا تحت غطاء من الزجاج وتحت أليات من الشعر مهداة الى : تريلبي المسكينة ، الجميلة ، الطيبة ، العزيزة .

وذات ليلة حضروا حفلة موسيقية فى قاعة كبرى فى شارع سانت أونوريه ولم يكده عازف الكمان الأول يأخذ مجلسه حتى عرفوا فيه صديقهم القديم جيكو فلما دقت الساعة معنة بدء الحفلة ظهر مدير الجوقة - وإذا به سفنجالى . وساد السكون لحظة ظهر فى خلالها غلامان صغيران ، كل يجذب حبلا حريريا ، فانفرج الستار عن سيدة مديدة القامة ، مقبلة إلى مقدمة المسرح تمشى رويدا . فنهض النظارة يستقبلونها وهى قادمة تنحنى ذات اليمين وذات الشمال . لقد كانت تريلبي .

واستقرت عينا تريلبي على سفنجالى ، وأخذت بأشارة منه تغنى من دون مصاحبة - أخذت تغنى بصوت عظيم فى رخامته وعدوبته وغناه ، فياض كأنه يتدفق من كل صوب - ثم تجاوزت عينا اليمامة فيها سفنجالى الى ييلى رأسا فانبعث فيه فجأة كل سلطان الحب الزائل واستولى على عرشه من جديد .

وأخيرا جاء الدور النهائى فى الحفلة - تريلبي تترنم بارتجاله شوبان من دون الفاظ ! فيا للروعة . اين من تلك الأنعام أى بيان ! وهكذا كان ظهور تريلبي الأول على مسرح باريس وسط تصفيق قاصف ، وحماسة رنانة فى جمهور غفير . أما ظهورها الأول على مسرح لندن فكان شيئا آخر : كان سفنجالى إذ ذاك مريضا عاجزا عن إدارة الجوقة فاتخذ مجلسه فى مقصورة تواجه تريلبي رأسا . بيد انه لم يكن لوجوده فى تلك المقصورة التأثير الذى كان لموقفه فى مركز

القيادة . وإذ يأزف وقت غنائها انشأت تغنى أغنية « بن بولت » وما كادت
فان المكان دوى عندئذ بقمعة الجمهور ووضج بالصفير والتحقيق . لقد فقدت
تريلي التدرية على الغناء الصحيح .

وبدت تريلي وكأنها تستيقظ من سبات عميق فلم تدرك اين هي . فأخرجها
أصدقاؤها القدامى من هذا المأزق ، وأخذوها الى أم بيلي . وخر سفنجالى من هول
الصدمة ثم عاجلته المنية بعد حين .

وعلم الأصدقاء من جيكو انه كانت هناك تريليان ، فلم يكن على سفنجالى
إلا ان يلفظ كلمة بعينها حتى تحول الفتاة مثال من الرخام لاتعى ولكن تصدع
بأشارته وتؤدى ما يريد . وقد كانوا يسافرون جميعاً يقيمون أثناء السفر الحفلات :
سفنجالى وجيكو وتريلي .

وكان لهذا الاجهاد الطويل أثره المضحى فى تريلي فذوت وماتت ، ولحق
بها بيلي الصغير كسير القلب بعد قليل .

جورج ساند

قصة أخرى من تلك القصص المائة التي أشرنا إليها في القصة السابقة . وهي كما بقعتها موجز لقصة كبرى نهض بإيجازها أرفنج باتشير وألفها في الاصل الكاتبة الروائية الذائعة الصيت « جورج ساند » وهو الاسم الذي استعارته أمانتيني لوسل أورور بارونة درفان التي يرجع نسبها الى المارشال . ورتس غراندوق سكسونيا . ولدت سنة ١٨٠٤ لاب ضابط وتزوجت في الثامنة عشرة من البارون درفان فلم تسعد بزواجها ، فطلقت منه ! وعاشت مغامرة لا تخلو حياتها من الشوائب . ألفت روايات تمتاز بأسلوب شائق بارع حافل بالفكر القياض . وقد أحبت الشاعر الفريد دي ميسيه والموسيقين فرانس ليست وشوبان، وغدرت بهم جميعا . وماتت في روهان عن اثنين وسبعين عاما

المغنية النورية

لجورج - اند

كان أنزوليتو غلاما من غلمان الشوارع في البندقية . وقد كان تعلم في مدرسة الأستاذ «بوربورا» كيف يغنى . كان وسيما ، وكان تصويره يكسب صوته البديع رواءا حين يغنى . وكانت كونسيلاو التلميذة الأخرى لبوربورا فتاة إسبانية فلاحه نحيلة الجسم سمراء اللون ، عاطلة إلا من جمال الصوت وجمال الروح . وكانت وأنزوليتو صديقين حميمين لا أكثر . لكنه - وهو زير نساء ضال - كان يقع دائما في جهنم ، ثم يأتي كونسيلاو ينشد عندها العطف والمشورة . وقد كان ندلا عاقا .

وظهرت كونسيلاو أول ظهورها للجمهور في لباس الفلاحة البسيط ، فاستحوذ صوتهما على المدينة إذ كان يضطرم بنار الروح ، وارتقى على قدميها كل انسان ، وتقدم الشباب من الخطاب يطلبون يدها ، ومن بينهم أنزوليتو .

كان ذلك حوالى سنة ١٦٥٠ ، عهد الأبداع في تاريخ البندقية . فارتفعت كونسيلاو لنفسها رفيق التلميذة من دون الباقين . وظلت عبقريتها تفوز بالأعجاب ، وظلت هيبتها وتواضعها موضع التكريم .

وتعاقد معها الكونت جستنيان على العمل في مسرحه ، بل لقد وقع في حبها وجهدها في أن يحرم أنزوليتو منها . بيد أنها لم ترد أن تتخلى عن خطيبها ، واشترطت في عقدها مع الكونت أن يتعاقد مع خطيبها أيضا على الغناء في مسرحه وكانت

حلاوتها ووفاءها قد استعبدا الكونت واستبداه ، فازداد من جرأها طواعية لها
وكانت لكونسيلو مزاحمة مغنية تدعى كوريللا غاظها عمل الكونت غيظا
شديدا : فتلاعب أنزوليتو بغيرتها فزعم أنه يحبها . وغاب عن كونسيلو هذا الغدر
فلم تظن إليه .

وأحرزت كونسيلو في أول حفلة علنية لها نجاحا جديدا ، أما أنزوليتو
فكاد ألا يلتفت إليه أحد .

وحذر الفتاة معلمها من الزواج من أنزوليتو ، وحملها على أن تزور بيت
كوريللا ليبرر لها قوله . وهناك وجدا أنزوليتو فاقترنت كونسيلو بخيانتها وصدفت
عنه ، ولم تصغ لخطب الكونت ، وفرت الى فينا عملا بنصح بوربورا

وبعث بها بوربورا بعد ذلك بقليل الى صديقه الكونت كريستيان اوف
بوهيميا لتكون في رفقة ابنة أخيه البارونة أميليا وقد جاءت توا من مدرسة بدير
في مدينة براغ . ووصلت كونسيلو إلى قصر الكونت في ليل عاصف يحدوها
خوف من الكونت ويئثته . فطمأنتها أميليا وكانت فتاة لطيفة ، ومالت اليها
كونسيلو من فورها . على أنه في تلك الليلة التي وصلت كونسيلو فيها أطاحت
العاصفة شجرة عتيقة من شجر الضيعة معروفة باسم شجرة الشؤم ، فبلغ خبر سقوطها
بيت الكونت فأوقع فيه الفوضى والاضطراب ، ونشر فيه الفرع . وقالت
السكوتس إن شرا يتهددنا . ثم إن هي إلا لحظة حتى دخل ابنها الكونت ألبرت
ليعلن اليها أن سلاما غريبا يوشك أن يبسط رواقه على البيت ، وابتسم لكونسيلو ،
ومس يدها وانسحب وتركها في حيرة عميقة .

وكان ألبرت شابا مليحا شاحبا حزينا وكان لطيفا كريم النفس ، غير أن
له حالات في الاعتلال هي في الواقع نوبات من الغيوبة . وكان اهتمامه بأميليا

معتدلا وكان يراد أن تكون له زوجا .

وأخبرت أميليا كونسيلو بان ألبرت ليس واسطة لاستحضار الأرواح فحسب . بل هو عراف وعلامة كذلك ، لكنها لا تراه جذابا .
أما كونسيلو ففتنها ألبرت على النقيض من ذلك ، وكان فيما يلوح يفيد من محضرها كثيرا . كان يرى فيها العزاء الذى وعده إياه صوت من باطنه ، وكان غناؤها يهيب به فى غيوبته وينبئه من سباته ويقويه ، وقد باتت له طبيبا وبات لها قسيسا تعترف له .

وألفت كونسيلو نفسها محفوفة بالأسرار : فهناك أبواب سرية ولهب خفى وأطياف خاطفة تثير فضولها وتبعثها على التحرى ، وحين غاب ألبرت مرة وافتقدته زمنا قادوها إلى بئر . فنزلت البئر فوجدت ممرا سريا فقطعته فالتفت حبيبها مريضا يعنى به خادم معتوه ، فقامت على تمريضه حتى ردت إليه العافية .

وقد كان ألم بكونسيلو حى شديدة على أثر ما أصابها فى منتصف تلك الليلة من التعرض والانفعال . وعظم حب ألبرت فى نفسها واشتدت عنايته بها . ولاح وقتما أنه فائز بيدها لولا أن دخل الفاجر أنزوليتو بين الشابين المتحابين . وعلى أنها تخاذلت أمامه أول الأمر فقد عاودها ثانية ضبط النفس ونحته جانبا .

ورأى الكونت كريستيان الطيب نبيلها حين صارحته بماضيها فلم يعرب عن إعجابه فحسب بل رجاها أن ترضى بابه بعلا ، وقد ردت إليه الرشد .

فأجابت : الشرف الذى تولينى عظيم جدا . وأنا مغنية ، ولا بدلى من العود الى فى . وفرت بالليل إلى فينا لتلحق بمعلمها بوربورا هربا من أنزوليتو ، ووصلت كونسيلو إلى فينا لتجد شيخها بوربورا استاذا بلا مدرسة ولا تلاميذ .

وحاولت الحصول على مركز فى مسرح البلاط فلم تنجح . وذلك لمعارضة

الامبراطورة مارى وعداوة مزاحمتها اللدودة كوريللا، ورأت الفساد والعداوات الضارية التى كانت تشوب جو البلاط والمسرح ، فذكرت ألبرت وحملت به وبالزواج الذى عرضه .

وأخيرا كتبت الى ألبرت تعرب عن حبها له .

وأعطت الرسالة الى بوربورا ليرسلها بالبريد فأحرقها ، وكتب رسالة من عنده الى الكونت كريستيان فقد كان يغار من قنفا ويريد أن يفيد منه .

وتقضت ستة أسابيع من دون أن تتلقى شيئا من ألبرت . وإذ تسنح لها فرصة مفاجئة للغناء فى الأوبرا انتهزتها ، فقد فتحت لها طيبتها وكرم شمائلا القلوب حتى قلب كوريللا، فزلت لها عن دورها .

وانها لتجرب ذات يوم دورها الأول العظيم فى شخصية زينويا إذا بها يخيل إليها أنها ترى الكونت ألبرت يرق فى نواحي المسرح المظلمة صامتا خفيا ثم حدث حوالى هذه الآونة أن قدم البارون ترنك إلى المدينة فرأى كونسيلو اتفاقا وأحبها كما يفعل سائر الرجال . وكان البارون لصا مشهورا وقاطع طريق . فارتاعت كونسيلو لقسوة مسلكه وشوهة وجهه . وقد اقتحم عليها مخدع زينتها ذات ليلة وطارحها الحب ، ورمى تحت قدميها نفيس الجواهر ، ثم هاج وماج واختطفها بين ذراعيه يريد الفرار بها .

ففرق من الباب المفتوح رجل مقنع شديد ، وجذب اللص ، وألقى به فوق الدرج الحديدى .

وعلى أن وجه منقدها كان مقنعا فقد اعتقدت أنه الكونت ألبرت فنادته وعدت خلفه لكنه اختفى . وإذ هى واقفة تنظر إلى أسفل الدرج المظلم أعلن المعلن بدء الفصل الثانى من المسرحية فتوجهت الى المسرح فى شخصية زينويا

مضيفة إلى توفيقها ظفرا جديدا . وقد غنت لألبرت معتقدة أنه في مكان ما بين النظارة .

وثبت بقينها حين التقطت بين الأزهار التي كانت تهطل من حولها وتلقبها عليها الأمبراطورة والحاشية - غصنا صغيراً أخضر من العرعر كان عندها إمارة الأسى والقنوط ، ورمزاً للموت .

وانها لفي حيرتها اذا بها تتلقى رسالة من مدير المسرح الملكي في ليزريرج تعرض عليها عرضاً سخياً .

واذ كان بوربوراً قد أتلف خطابها الى الكونت ألبرت فقد زعم الآن أنه تلقى من الكونت ألبرت جواب هذا الخطاب وفيه يحلها من كل عهد بينهما . فقبلت كونسيو العرض الجديد آسفة ، وهي لا يخطر ببالها الشك في أستاذها القديم ، ووقعت على العقد وسافرت الى المانيا .

وحدث أن لقيها فردريك الأكبر ملك بروسيا وهو مسافر متذكراً فراقته . فامر بتكريمها في حاضرة ملكه ، لكنه أصدر أمره كذلك بان يعود بوربوراً الى فيينا .

على أن هذه التداير ما لبثت أن انهارت جميعاً فقد أبلغ البارون برودلشتات عم الكونت ألبرت - ابلغ كونسيو أن الشاب يحتضر ، وأنه يتلف على رؤيتها قبل أن يمضي الى ربه . فبادرت من فورها الى القصر ولم تتردد لحظة .

وطغى على كونسيو الحب والمرثية فقبلت المحتضر وقد كان في عينها شيئاً لا يزيد على روح ، ورغب اليها ألبرت في أن تتزوجه ليكون لها ماله ولقبه ، وأصر على طلبه ولم يتحول عنه ، فاجابته اليه .

وعاش الكونت ألبرت بعد الزفاف ساعات وخلف لكونسيو الحسرة - والسلام . فقد ولت وجهها شطر الهيكل - هيكل الفن .

بوليوس موزيه

شاعر ألماني من أصل يوناني . ولد سنة ١٨٠٣ في هاريني في فوجتلند ودرس القانون في جامعة يينا وعمل في سنة ١٨٣٤ محامياً في درسدن عاصمة سكسونيا . فلما خلت من ذلك التاريخ عشر سنوات اشتغل كاتباً مسرحياً للمسرح أولدنبيرج لكنه لم يلبث أن أصيب بشلل شديد أقعده عن العمل ، فرتب له معاش . على أن هذه الحالة المرضية القاسية لم تؤثر في ذهنه فبقى له نشاطه العظيم ، حتى توفاه الله في سنة ١٨٦٧ . وقد نشرت أشعاره وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ، وألف قصصاً من بينها « مؤتمر فيرونا » وكتب عدة مسرحيات في جملتها « الدوق فون وايمر » ، « الأمير أطور أو الثالث » ، ولقصصه روعة أخاذة وتأثير ينفذ إلى القلب . وما تزال قصصه تستمتع بحفظ من النجاح إلى اليوم .

مرقص بودوان

ليوليوس موزر

شرع ليكلير يقص قصته ، وأنشأ يقول . إن أبي تاجر ثرى من تجار الحرير
بياريس وأنا وأختي لوسى طفلاه الوحيدان ، وقد فقدنا أمنا فى سنى طفولتنا
الأولى ، وظل أبونا أرملا لم يتزوج . ولقد ربيت فى بيت أبى ، وتربت أختى فى
الدير ، ولست أعلم كيف حدث أن تعرف طالب طب يدعى روييرليزاي باختى ،
وكيف حاك لها نسيج الحب ، وارتبط وإياها برباطه . وقد كان جيهما فى أبدع
ريعانه حين استقدم أبى أختى من الدير وقدمها عروسا لصديق شيخ من رجال
الأعمال والمال . وقد ذهب كل رجائها فى ألا يفرض عليها هذا الزواج ، وذهبت
كل توسلاتها فى أن يمهلا بعض الزمن ، أدراج الرياح ، فلم تلن قلبه . وكان
كل ما أجابها به هو أن أمها كانت قبل زواجها منه تساورها مثل هذه الوسوس ،
ومع ذلك فقد عاشا سعيدين . قال « ذلك إنه يا ابنتى العزيزة من يدعم زواجه
بالمال هو كمن يقيم بيتا على أساس متين . فكلاهما لا يتداعى . » وتقرر أن يكون
الزفاف بعد الصيام ، وقالت لى أختى : حسنا ، فسيكون المرفع على ذلك من نصيبى .
وكان لابد من أن أعدها بالذهاب معها إلى مرقص بودوان . وكان « أربعاء
الرماد » فلما أمسى المساء طفق مئات عديدة ممن يقفون بالمنعطفات ، يجوبون
مختلف الطرق تنم سماتهم عن مرقص بودوان . وكنت من بين الأوائل الذين

انتظمهم سلسلة الوقوف عند شباك التذاكر ، فلم تحن الساعة الثامنة حتى كنت أرى أختي لوسى تذكريتنا من وراء ظهر أيدنا . وعند الحادية عشرة مساء قبل أبي جبين لوسى ومد لى يده . فتمنينا له ليلة سعيدة ثم توجه الى فراشه . وتوجهنا نحن أيضا الى الفراش ، ولكن لنهض منه ثانية ، ونرتدى ثياب التنكر التى أعدناها ، ثم لنبادر تحت حماية البواب الى المرقص . فلما بلغناه متأبطين ، ألفينا الدار يحاصرها عدد لا يحصى من المتنكرين المغامرين ، ذلك أن الأبواب التى لا تفتح إلا عند منتصف الليل كانت موصدة . وكان السكون يسود المسرح ، حين كان عجيج الجمهور المربط أمامه يشبه الغابة إذ تهامس قبل هبوب العاصفة تهامسها الرهيب . وكانت طرقات النجارين والوراقين الذين كانوا مايزالون يشتغلون فى بهو المسرح تسمع وكأنها الطيور النقارة تدق وتنقر . وقد كان أحيانا صوت تنعيم الآلات يتسرب الى الخارج من بين هذه الأصوات ، فكانت لوسى بجانبى ترعش لهذا المرقف .

وانا كذلك اذا بنا نسمع من كنيسة نوتردام دقات منتصف الليل الاثنتى عشرة ترن رنين المعدن ، وتطن متبددة ، مهددة ، كصوت واعظ الصوم الغاضب ، وتهتز فى الهواء اهتزازا . وكلما دقت الساعة دقة تعالى هتاف الجمهور المنتظر ، فى صورة جهنمية نصف مكبوتة . فلما كانت الدقة الثانية عشرة انفرجت أبواب المسرح . وتدفق منها الى داخله مثل السيل العرم من فلذ مذاب مصهور ، حتى اذا احتواه المكان تفرق جماعات صاحبة ، صائحة . فقد كان الجمع وكأنه كتلة مؤلفة من ألف عضو تجيش ، وتزأر ، وتسهل ، وتثب ، وتندفع ، وتهب ، وتقته قهقهة ذميمة . كتلة لاتعدو جمهورية من المرورين قوامها قتلة ، ومهرجون ، ومهرجات ، ومغفلون ، وفلاحون ، وبنات سماكين ، ونبلاء

أسبان ، وبائعات ورد ، وقطاع طرق ، وراغيات أغنام ! وقد ساهم في هذه التنكرات شباب العام الذهبي ، ولم تلبث أن امتلأت المقاصير والأروقة وأعلا الدار فضلاً عن البهو العام .

وكانت الجوقة الموسيقية متوارية في مؤخر البهو خلف الأستار الأرجوانية لا يرى من رجالها إلا بودوان الساحر واقفاً على منصته ، قابضاً على عصا القيادة بيده . وقد جذبني لوسى إلى المقصورة التي استأجرناها ، وهناك وجدنا شخصاً شقيق القد ، في لباس أسود ينم عن الشاب ، يحمل على صدره شارة جمجمة الموت مخيطة على قماش أبيض . خياناً ، وحسر القناع عن حقيقة فاذا هو ليزاي حبيب أختي ، ثم قال بامسا : سأعيد إليك مراقصتي بعد ساعة ! واختفى بها .

في تلك اللحظة رفع بودوان عصاه فانطلقت صفارة مجلجلة ، ودرم طبل ، وخيل أن الجماعة في البهو يختبئها سحر وهي ترتعش ارتعاش التشنجي ، ثم انفجرت رقصة الفانداجو ، رقصة راقصي الباليه وراقصات في الأوبرا الكبرى يدقن الصنوج ، ويدرن على أطراف أصابعهن هاربات تارة مطاردات ، مقبلات تارة متخاصرات ، تنساب أجسام الراقصين في أجساد الراقصات . ثم حاق بعضهم في بعض كأنه تملكهم نشوة مهلكة ، وطفقوا يرقصون رقصة الدنكان الخابلة ، اللاوية التي تقلب السحن ، وكلهم واحد ، مختلطين ، متعرجين ، متداخلين ، تعتلج أعضاؤهم النائرة ، الخاطئة ، بعد ارتخاء ، وتبديش بصورة مبدعة ، منكرة . وانه ليخيل إلى الرأي أن الموسيقى تحل منهم عضواً بعد عضو ، فالكل يدورون ويدومون كمن به مس .

وتسمع طلقة مدفع ، وأصوات عاصفة يتلوها طلق جديد . ثم يسود سكرن الموت لتهتك حجبه صيحة : رقصة الهوجينوت : فيبدأ الركض وتتحول الموسيقى

إلى صورة شيطانية ملاكها الأصوات، فيخيل إلى المرء أنه يسمع رنين الأجراس الداهم وصيحات : إلى السلاح ! إلى السلاح ! يتخلل هذا فقرات متقطعة من المزامير ، وطلقات متفرقة من البنادق ، وصرخات القتلة الشامتين ، وصيحات الخوف من المطاردين ، وطرفات أعين المحتضرين ، ثم يوق يلهث بأنفاس الذعر . وفي هذا الهرج والمرج من فوضى الأنغام تفرقع طلقات مصممة من بندقية شارل التاسع الحديدية ، يطلقها من نافذته بين الشعب ، وتصحبها ضحكات أمه كاترين دى مديسيس الابليسية التي تشبه صوت الزمارة .

من هذا كله كانت تتألف رقصة الكوادريل فهي حرب أهلية راقصة ، مأغرب اختلاط حابلها بالنابل ، وارتجاج الدار تحت وقعها واهتزازاتها ، فكأنها في رقصها عجلة تلف حول نفسها .

وفي هذه الحلقة السحرية كانت باريس بأسرها تدوم بأعنف شهواتها ، وكان مستقبل فرنسا يترأى في افتتاحية مقبضة ، وشبابها الأروع يظهر في ثياب ممزقة ، تتطاير خلال ذلك خصل الشعر من صاحبات باكوس إله الخمر ، ولا ترسل أعينهن مع ذلك إلا نظرات الجود . والموسيقى في هذا عواء طاغ ، وزوبعة في غابة ، يتخللها تكسر الفروع ، وانحطام الأشجار .

وهنا يسقط زوج من الراقصين على الأرض ويطيرون رتل حانق ، بعضه عبره وبعضه الآخر يتخبط عنده .

أليس هذا روبر ليزاي من على صدره جمجمة الموت ، ومن يصاحب أختي ويرقص في مقدمة الجميع ! أليس هو الذي سقط أولاً ؟ لقد هرعت إلى البهو هابطاً إليه ، ووقف بودوان الموسيقى بضربة من عصاه ، وختم الركض ؟ ففي وسط البهو انسان ميت - ليزاي وبجانبه لوسى جاثية . تضغط قبضة يديها الصغيرتين

البيضاوين في مغارتي عينيها ، ويعنى به متنكر في زى عبيط يبسط يده المقبوضة
فتتدحرج زجاجة على الأرض ، فتنتطق صيحة من ألف صوت : لقد تناول السم .
وهكذا كان . فقد تجرع في حومة الرقص القارورة التي كان يخفيها .
وأخذت أختي وانصرفت بها الى البيت ، وهي من ذلك الحين مذهولة فاقدة
الوعي . غير أنها في لحظة وجيزة عاودها الرشد ثم خبا . فقالت عندئذ أنها أحست
يده أثناء الرقص باردة كالثلج لكنه راقصها شوطا بعد ذلك . ثم اذا به يتقلص
ويهوى إلى الأرض .

نبل

لفردريك شيلر

تكشف لنا المسرحيات والقصص عن أروع مجالى القلب البشرى فيضطرم خيالنا ، لكن فؤادنا يظل جامدا لا يتأثر . أو على الأقل يكون الوهج الذى يلم بالفؤاد وليد الساعة ، ثم تبرده الحياة العملية : ففي تلك اللحظة التى نكاد نزرِف فيها الدمع من فرط التأثر لطيبة حقيقة لا تعمل فيها ، ربما نهزنا سائلا طارقا ، وأغلظنا له القول . ومن يدرى أن هذا الكيان المفتعل فى عالم المثال لا يقوض كياننا الحقيقى ؟ اننا نحوم هنا حول طرفى الاخلاقية : الملك والشیطان ، ولا نقرب وسطها وأعنى به الانسان .

ولهذه القصة التى أروىها عن اثنين ألمانيين ميزة لا تنكر ، ذلك انها حقيقية واقعية . اخوان بارونان أحب كلاهما آنسة نبيلة ، فى ميعة العبا ، وجلال الخلق . لا يعلم أحدهما ما يكن لها الآخر من هوى دفين . وكان جبهما صباية وحنانا قويا لأنه كان جبهما الأول . وكانت الفتاة بارعة الحسن ، مرهفة الحس ، فتحول ميل كل منهما إلى جوى مستعر ، لأن كليهما لم يفتن إلى ما يتهده من أهول الأخطار . وهل أشد وأخطر من أن يجد أخاه منافسا له ؟ وقد كان كلاهما أعنى الفتاة من اعتراف باكر ، وأخفى عن أخيه دخيلة النفس ، حتى تلاقت مشاعرهما على غير انتظار ، فارتفع الستر ، وانكشف السر .

كان جبهما عندئذ فى عنفوانه ، والاضطراب المشثوم يملك قلبيهما ، حتى لا قبل لكليهما بالتضحية للآخر . والفتاة فى هذا كلها شعور بورطة التعيسين ،

لا تجرأ أن تنحاز إلى هذا أو ذاك ، ولا تملك إلا أن تخضع ميلها ، وتنزل على حكم الحب الأخوى .

وانتصر الأكبر في هذا العراك بين الواجب والعاطفة . وهو الذى يفصل فيه فلاسفتنا في كل الأزمان بضربة حاسمة ، ويشبك فيه الانسان العملى مثاقلا ، فقال الأكبر للأصغر : أعرف انك تحب فتاتى ، وأنت مثلى مغرم بها ولست أسألك ، في جانب من يقف حق الأكبر — فابق أنت هنا ، وسأخرج أنا إلى الدنيا الواسعة ، أحاول أن أنساها : فاذا أمكننى ذلك فهى لك يا أخى ولتبارك السماء حبك . وإذا عجزت ، فدورك في الخروج تفعل مثل الذى فعلت وغادر المانيا من فوره ، وسارع إلى هولنده — لكن صورة الفتاة تبعته حيث ذهب . واذ كان بعيداً عن الأرض التى نبت فيها حبه ، وكان قصيا عن الجهة التى تضم هناء القلب كله ، والتى لا يستطيع العيش إلا فيها ، فقد مرض هذا التعس وذوى كالنبته ينزعها الأوربي المغتصب من حضن أمها آسيا ويغرسها في حوض قارس بعيدة عن الشمس الرحيمة .

وبلغ أمستردام والياس بالغ منه مبلغه ، وأحرق به الخطر على فراش يتقلب فيه من الحمى . ولازمته صورة وحيدته في أحلامه ، وخالطت بجرانه ، وتعلق شفاؤه بنواها ، وشك الأطباء في نجاته ، ولم ينتزعه من أحضان الموت إلا التأكيد له بأنه سيرد إلى حبيبته .

وبلغ بلده متهدما ، وهيكلا متنقلا ، وصورته هى أشنع صور الأسى المضنى فلما وصل إلى البيت أصابه الدوار على سلم حبيبته وأخيه .

قال : أخى ، ها أنذا أعود . ويعلم الله كم كلفت قلبى — فلست بعد ذلك مستطيعاً شيئاً . ثم سقط مغشياً عليه بين ذراعى الفتاة .

ولم يكن الأصغر أقل من أخيه تسميافما هي إلا أساييع حتى كان على أهبة السفر يقول: أخى ، لقد حملت أملك حتى هولنده - أما أنا فساأحاول حملة الى أبعد من ذلك ، فلا تقتدها الى الهيكل حتى أحدث لك من أمرى خبرا . وحبنا الأخوى يحيز هذا الشرط وحده . ووالله ان بت أسعد منك لتصبحن لك ، ولتبارك السماء جبكما ، فاذا لم أبت ذلك السعيد فليحكم الله بيننا ، وداعا ! واحفظ هذه الصرة ولا تفضها حتى أتوارى عن الأنظار - إني ذاهب الى بتافيا .
ووثب الى المركبة .

فحملق فيه الاثنان مبهوتين ، فقد فاق أخاه نبلا . وقد حز في قلب أخيه شيئان : الحب وقد الأنبل في الرجال . وكان درج المركبة الهاربة يقصف في قلبه كالرعد ، والخوف على حياة أخيه يملأ النفس . فالآنسة - ولكن لا فسيذكرها الختام وفضت الصرة فاذا بها وصية لأخيه بكل أملاكه في البلاد الألمانية إذا هنىء الهارب في بتافيا . وركب قاهر نفسه البحر مع بعض التجار الهولنديين ! وبلغ بتافيا سالما . وإن هي إلا أساييع حتى بعث الى أخيه بالأسطر التالية :

« هنا حيث أحمد الله القادر ، هنا في هذا القطر الجديد أفكر فيك وفي حبنا بكل ما يشعر به الشهيد من هناء . لقد شرحت صدرى تلك المناظر والمصائر الجديدة ، ووهبني الله القوة على أن أبذل للصدقة أسمى تضحية . لك - يا الله ! ان ههنا دمة تجري - لكنها الأخيرة - وقد تالكت جأشى . لك الفتاة ! أخى لقد كنت خائفا ألا تصبح لى ، أعني أنها ما كانت لتصبح سعيدة معى . ولو خطر لها هذا الخاطر ، لكان انتهى معها أمرى . أخى ! - أخى ! يعز على أن أدفع بها اليك . فلا تنس كم كلفك الفوز بها - عامل هذا الملك دائما كما يعلمك الآن حبك الفتى - عاملها كما لو كانت أعز ما ترك أخوك لك ، وهو الذى إذا

احتضنته لن تبذل له غير الحنان . وداعا ! لا تكتب الى اذا احتفلت بعرسك
فما زال جرحى يدمى . اكتب الى لتحديثى عن هنائك . وان عملى لكفيل بألا
يتخلى الله أيضا عنى فى عالم الغربة . »

وتم الزواج . وسعد الزوجان عاما بأهنا قران — ثم ودعت الزوجة الدنيا
وذهبت الى خالقها . وحين احتضارها أفضت الى من اختصتهن بثقتها بأشأم سر
كنه صدرها : لقد كانت تحب القصى أكثر مما أحبت بعلمها .

وما يزال الأخوان على قيد الحياة . الأ كبر فى ضياعه بألمانيا ، وقد تزوج
من جديد . والأصغر فى بتافيا ، وقد سعد بحياته وتألق نجمه . لكنه طاهد الله
ألا يتزوج وقد حفظ العهد .

يوهان وفجاء فون جيت

أ كبر شعراء الألمان وأعظمهم تعدداً في النواحي . ولد في ٢٨ أغسطس ١٧٤٩ بمدينة فرانكفورت الواقعة على نهر الماين ابناً للمستشار يوهان كاسبار جيت وكاترينا "يصابات المولودة باسم تكستر Textor . ودخل جامعة ليبزيغ بع ١٨ صبا سعيد فتفتحت فيه نواحيه المتعددة القذة ، فدرس الحقوق ، ولكنه وهب نفسه لعرائس الفن فدرس الرسم في جملة ما درس . وقد كان لتأثير هررد الشخصي فضل كبير في تعميق نفس جيت وصفاء ذهنه . وانصرف جيت إلى هومر وشيكسبير واوسيان بدل الفرنسيين الذين كان يكرمهم ، وعلق فن المعار الجوتي والأغاني الشعبية الألمانية ، وعلق قلبه أول ماعلق ، فريدريكا فون سيستنايم فأشعلت فيه نار الحب الحقيقي . وغرامياته عديدة ، وآثاره لاتحصي ، وجوانبه من اتعددت بحيث لاتغنى فيها الإشارة . وقد شملت عبقريته هذا كله ، ودل عليها كل ماتناول أوكتب . وقد اتخذ دوق وايمر مستشاراً له ولما يناهز الثلاثين . ورافق أميره إلى سويسره وساح في إيطاليا حيث أكل مسرحياته الشهيرة « ايفيجنيا » و « إجننت » و « تاسو » ، وقد ترجمنا له الاثنتين الأوليين وستظهران قريباً

وقد ارتبط العظيم بشاعر آخر عظيم هو شيلر برابط الصداقة الحميمة ، واشترك واياه في العمل ، «أثمرا خوالد في الأدب والفن . وارتبط بكريستيانا بوليوس برابطة الزواج في سنة ١٨٠٦ بعد زواج عرنى في سنة ١٧٨٨ ،

وقد عاش منذ ١٨١٥ يتقلد منصب الوزارة لكنه عاش قيه للعلوم والفنون ، ومات في خدمتها يبعثه الشعب ويعبده . وقد انجب ولداً لم يلبث أن لجمه الموت فيه . وقضى الشاعر العظيم في ٢٢ مارس ١٨٣٢ متجاوزاً الثمانين من عمره الخافل .

فردينان

لبوهانه و . فوه جينه

الأولاد ينمون أكثر ما يكونون عن الأب أو الأم ، في المظهر أو المخبر ، في الجسد أو الروح على السواء . وهم يجمعون أحياناً بين طباع الوالدين جمعاً خاصاً يبعث على الدهشة . ومن هذا القبيل شاب ندعوه فردينان . فتكوينه يُذكر بوالديه . وتتميز روحهما في روحه . ففيه خفة أبيه ومرحه ، وانتهازه متع الساعة التي تعرض له ، واستثثاره بالفرص دون غيره . وفيه تفكير أمه الهادئ ، ورعاية عقلها ، واستعدادها الطيب للتضحية في سبيل الغير . ومن ثم كان المتصلون به كثيراً ما يفسرون سلوكه بأن له نفسين متباينتين .

كان فردينان في صباه قتي محظوظاً ، فوالده موسران . وكان الوالد إذا أسرف وخرج في لهوه ولباسه عن القصد ، عرفت الأم كيف تحمد من إسرافه ، وترد الأمر إلى نصابه ، فيكون التوازن الذي لا ندحة عنه ، والمظهر الذي لا بد منه .

وكان الأولاد في غصون ذلك يكبرون ويتخذون طبع من يبدو لهم في الحياة أوفر حظاً وأكثر متعاً . فاحتدوا من ثم مثال الأب . وإذا ينتهون إلى هذا الرأي مبكرين ، جاوزت رغائبهم الحدود قبل الأوان ، وحملوا البيت ما لا يطيق . ويضع فردينان يحدوه شعور مضيض بأنه دون رفاقه في كثير ، فهو يكره أن يبرزه منهم أحد في لباس ، وهو يحب أن تكون حياته مواتية وسلوكه طليقاً .

وأبوه المثال الذى يبدو كل يوم لناظره ، فهو يريد أن يتشبه به كي يغترف من متع الحياة على هواه ، ويفوز بتقدير الناس .

وطبعى أن يشجر بين فردينان وأمه الخلاف حول هذا الطموح ، وأن يأبى فردينان الاتشاح بخليع أبيه نفاية دون الكفاية . ولم يكن فردينان يميل إلى الاقتراض لأنه تعلم من أمه أن يخشاه ، لكنه فى الوقت الذى بلغ فيه سن التطلع ، واتجهت عاطفته إلى أوتليا الحسنة ، كانت الظروف قد فرضت على الام ضرورة التقير ، فبدلاً من أن ترضى رغبات فردينان لجأت إلى عقل فردينان وقلبه الطيب ووجه إياها تستعينها جميعاً على اقتناعه فاقتنع ، لكنه لما يتننع .

وكيف يوهن من علاقته ، ويلطف من موداته ، وكل وهن أو تلطيف لا بد مسمى إلى صديق أو رفيق ، وجهه للفتاة ماذا يكون مآله إذا لم يقف عليه وقته وماله ، ولم يعمل على توثيق عراه ؟ أو لم تسلم نفسها طائعة لقيوده ؟ أو لم تؤثره على من عداه ؟

وكانت أوتليا تقيم عند عمه لها ، بعيدة عن أبويها ، وكانت فى تلك المدينة بهجة المجتمع وزينته ، فلا بد أن يحرص عليها المجتمع ، وافتن فردينان فى توفير المتع لها ، فكان المجتمع أكثر استمتاعاً منها بها . وندع للقارىء أن يتصور مبلغ ألم فردينان وهو يرى أمه تدعوه إلى واجبات أخرى غير هذه ، وتأبى أن تأخذ بيده وتعينه على أمره ، وهو إنما يلمس فيه احترام الناس وإيمانهم بسخائه ويسره وكانت خواطر بعينها لا ترايل مخيلته إلا مثاقلة فبات الآن أثقل وطأة عليه ، وأكثر ملازمة له . وكانت أفكار بعينها لا تمضه إلا لحظات ، فأضحت اليوم ترهقه ، كما أمس مشاعر بعينها تنوَّخ على صدره ، مريرة لا تطاق . ولا يقوى ملاحظة الناس كالتضييق عليهم ، فالنساء من ثم أرجح من الرجال عقلاً ، والمرؤوس

لا يلتفت إلى أحد التفاته إلى أمره وناهيه .

لذا كان فردينان يرهف أذنيه كلما سمع أن أباه خسر في لعب أو كسب ،
فاذا أفرط في نفقة قسا حكمه عليه .

كان يقول : مabal أبويه لا يجرمان نفسيهما شيئاً ويجرمان أطفالهما إياه وقد
جاءتهما الصدفة وحدها بما يملكان ؟ وهل لو كان جده على قيد الحياة أكان يتنعه
ويعطى أباه ، أم كان يختصه في وصيته بما يضمن له الهناء ؟ فالصدفة وحدها تحرمة
اليوم ما كان خليقاً أن يكون نصيبه !

بهذه السفسطة عن الملك والحق كان فردينان يزجى ساعات سخطه ، فاذا
أزمه مطلب ، أو عز عليه هو أو رفقة ، تساءل إلى أى حد ينبغي له أن يطيع قانوناً
أو عرفاً لا يقره ، وإلى أى مدى يجوز له أن يحيد عنه ؟ !

وقد كان يبلغ من اقتباض نفسه في تأملاته هذه أن يتضاءل شعوره باحترام
أمه لأنها لم تفرج كربه ، ويتضاعف مقتته لأبيه لأنه يقف في طريقه .

* * *

ووجد فردينان أن أباه ليس عديم التدبير فحسب ، بل سيء السلوك كذلك :
فهو يغترف من صندوقه أحياناً دون أن يثبت ما يأخذ ، ثم يعود في اليوم
التالى فيرفع عقيرته بأن حساب الصندوق مغلوط ، مضطرب . لا يستقيم .

وإن فردينان لفي هذه النفسية إذا بحادث غريب يقع له فيتيح لسخطه فرصة
مغوية ، ويدفعه إلى إتيان شيء لم يكن ليحس له في نفسه إلا دافعاً مبهماً ضعيفاً .
حدث أن وكل إليه أبوه فحص أوراق في صندوق ثقيل وتنسيقها ، فحمل
الصندوق الى مكتب أبيه ، فاختل توازنه بين يديه ، فصدم غطاء المكتب صدمة
انفتحت لها . وكان من عادة أبيه أن يحفظ نقوده فيه لفافات ، صفت فيها أقرص

النضار بعضها فوق بعض بمختلف أنواعه وألوانه . فرأى فردينان رأى العين ما كان يحول بصره إليه من بعيد ولا يبلغه . فامتدت يده من دون تفكير أو تدبر إلى قرطاس من تلك القراطيس التي تمتد إليها يد أيه في موضع بعينه ، في اللحظة الهوجاء ، فلا يثبت مما يأخذ شيئاً .

وأغلق فردينان الغطاء ثم عاد يجرب صدم الجانب الذي صدم أول مرة ، فانطلق غطاء المكتب من جديد في فرضته ، فبات فردينان بهذا وكأن مفتاح المكتب في يده .

وذهب فردينان يرتشف من مبادله رشقات مترعة ، ورصد نفسه لخدمة فائته ، وانقلب كل حار فيه عنفاً بل وحشية ، ولم يكن مع هذا يؤذى أحداً ، لكنه لم يحسن فيه إلى أحد .

والفرصة التي تخلق النزوة كالشرارة التي تلهب «البندقية» المحشوة . وكل نزوة نرضيها على حساب الضمير تستهلك الجسد ، فتحن في أجسادنا وحوش ، ونحن لا نقوى على ستر ما افتضح . وفردينان كلما ناقض طبعه ازداد اصطناعه للمعاذير ، ولاح في سلوكه أكثر تهوراً ، وأطلق يداً ، وأوثق بناحية بعينها صلة بل بقيداً .

وكانت أوتليا تشتهي الحلى ، فأرضى رغباتها من دون أن تعلم هي مصدر هذا الإرضاء . وكان لها عم ثرى أسرع ما اتجهت شبهتها إليه ، فظنته صاحب الفضل . وكلما أراد فردينان أن تتلقى أوتليا من عمها المزعوم هدية عمد إلى مكتب أيه فأغترف من فيضه ، حتى إذا عظمت الهدايا وساورت أوتليا الشكوك ، اعترف لها فردينان بأنه مهديها ، وأنه يهديها من جيب أيه .

واشمازت أوتليا من صنيع فردينان ، وأصرت على رد هداياه ، فقال لها إنه

ليبر حن به الألم إن فعلت ، وأؤكد لها أنه من دونها لن يعيش ، وأنها نفسها
التي بين جنبيه - فتأثرت له ، وكانت تحبه ، فوكدت حبها بالعناق والتقبل -
وسافرت أوتليا الى والدتها فأحس فردينان بالوحشة وعزف عن غشيان
المجالس التي كانت تغشاها لأنها باتت من دونها عديمة البهجة ، وقلت نفقاته ،
نخف ترده على مكتب أبيه وامتداد يده الى قراطيسه - ولاح كآءا يتغلب فيه
عامل الخير ، فجعل يفكر فيما صنع فأدهشه صنيعه ، وعجب لسفسطه عن الحق
والملك ، وكيف سولت له نفسه مالا يجوز - ووضح له شيئاً فشيئاً أن الأمانة
والإيمان موضع التقدير في الرجل ، وأن الخير يستحي أن يعبت بالقوانين ولا
يستحي الشرير ، لكنه ظلّ يلجأ عند الحاجة القصوى الى قنطرة أبيه يأخذ منه
كرهاً ، فيخيل له في كل مرة أن فيه شيئاً يجذبه من شعره ويسك بخناقه
وتجلت له قريفته ، وتبلورت عزيمته ، فقرر أن يكف يده ، وأن يعلم أباه
بخلل القفل - فحمل الصندوق بأوراقه المرتبة يريد أن يعرضها على أبيه في مكتبته ،
واضطنع الاضطراب في نقل الحمل فاصطدم بالمكتب ، فأذا به غطاءه ينطلق كعادته
وعجب أبوه أن يكون الغطاء بهذه الطواعية ، فأكب كلاهما عليه يفحصه
فوجدوا خطاطيفه قد بليت مع الزمن وتراخت أربطته - فأصلح القفل ، ولم يعد
يغوى فردينان ملهى يجد نفقته في هذا الحرز الحريز
وفكر فردينان وعاود التفكير ، ورأى أن خير ما يفعل هو أن يرد ما أخذ.
وراح يتوخى القصد في نفقاته فاستطاع أن يدخر من مخصصاته . وكان ما أدره
قليلاً ، لكنه بات مع حسن السلوك شيئاً كثيراً . وفرق بين آخر ريال تقترضه
وأول ريال توفيه مما أدرت ، وإنه لفرق عظيم .
وكان لأبيه مصنع بعيد فاعتزم أن يؤسس متجراً على مقربة منه لتصريف

منتجاته ، وعهد إلى فردينان في درس مشروعه ليكمل إليه آخر الأمر إدارته ، وليجنى هو الثمرة التي يجنيها الغير من شجرته . وزوده أبوه بمبلغ من المال لسفره وإقامته ، فتوخى فردينان القصد في نفقته ، وحسب فردينان وعاود الحساب فوجد أنه خلى بأن يدخر ثلث مخصصاته إن هو ضيق على نفسه ، وحد من طلباته وأمل أن تعرض الفرصة ليدفع بهذا دينه لأبيه ، فعرضت الفرصة ، والفرصة إلهة لا تكثر ثل خير أو شر ، فالتخير والشر عندها سيان .

ووجد فردينان المكان أصح لعمله مما كان يتوقع ، وتمنى أن تدوم إقامته فيه ، وألا يحوله أبوه عنه . واشتهى أن تنبت فيه زوجته مادام طيف الحبيب لا يبرح فيه خياله . وألنى الفرصة سانحة فيه لاستخدام معارفه ، ولتجريب مواهبه ، وتنفيذ قراراته . وكان ما بالمكان بلسماً لجراحه ، فكيف تخطر له مبارحته ببال ، وهو إن بارحه فالى بيت أبيه ، ووخر الضمير يلزمه من ذكرى عمله فيه .

وكان في المدينة صديق لأسرته : رجل شجاع ، طيب القلب ، عليل ، تقوم على العناية به ابنة أخ ، راقه أن ينفذ فردينان فكرة المتجر لأنها كذلك فكرته . وتولى فردينان بإرشاده ، وسره أن يلقي هذا الأرشاد صدهاء في نفس فردينان ، وأن يستجيب فردينان لوحى أفكاره من قبل أن يعرضها عليه .

وكان هذا الصديق يعيش عيشة البساطة ، لأنه أولاتيل إلى البساطة ولأنه ثانياً رجل مريض . ولم يكن له أولاد ، ولم يكن يؤنس وحشته أحد غير ابنة أخيه هذه التي تخدمه وتطليه ، ومن ثم اعزم أن يهبها ثروته . وكان يتمنى لها الزوج المجد العامل ليم على يديه ما أمل تحقيقه ، وأقعد عنه علمته وظروفه .

فما إن تكشف له جد فردينان حتى توسم فيه الرجل الذي ينشده ، وعظم رجاءه لما أن لحظ فيه تفانياً في العمل وتعلقاً بالمكان . وكانت الفتاة في ميعة

الصبا ، أحسن تأديبها وصح بدنها ، وصلاح تكوينها . عودتها العناية بعمها النشاط ، وعلمها القيام على صحته الرحمة فليس أكمل منها زوجة لمن ابتغى الزواج لكن فردينان كان يذكر دواما حنو أوتليا وحبها ، فلم يفتن في الفتاة الريفية إلا إلى أنها مدبرة رشيدة ، تصلح أن يتخذها لأوتليا مدبرة بيت ومشيرة . فكان لطيفاً معها يرد على رقها بأرق منها ، فإذا عرضت مناسبة أثنى عليها وأطرى خلقها . وقد زاده الأيام علماً بها وتقديراً لها ، فضاعف التفاته نحوها ، فما شكت الفتاة وما شك عمها في أن له عندها مارباً ، فزاده تعلقاً .

ومضى فردينان في مشروعه التجارى ، وعاونه صديق الأسرة على إنجازهِ وأثر المشروع ، وأفعمت نفس فردينان غبطة بهذا النجاح ، وهل أسر للنفس من القدرة على الإصلاح ، والنهوض بعض سقوط ، والسمو من الخضوض . والفضال بطل وأهل للثناء إذا أهتدى ، والسماء حفية بالاثيم المنيب أكثر من حفاوتها بالمعصوم الذى لم يأثم .

لكن فردينان على الرغم من نيّاته وإصلاحه لم يسلم من عواقب عمله ، فكان الأئ عصار التى ينتظره يتجمع فى غيبته ليعصف به عند أوبته . ولم يكن والد فردينان كما نعلم رجلاً دقيقاً فيما يتصل بدخله أو خرجه ، فكان يأخذ ، وكان يرد من دون حساب ، لكنه كشف في ذات يوم أن قرطاساً بعينه يحتوى نقداً أجنبياً ربحه فى الميسر — كشف أن هذا القرطاس ضائع . وتنبه بهذا الى أن قرطاساً أخرى قد كان أقرضها صديقاً ثم استردها ، ليست كذلك موجودة . فثارت شبهته ، وطفق يرمى بها القريب والبعيد ، ويحملها الخدم والأولاد ، وراح يهزم فى بيته كالرعد ، ويهدر كالبعير .

لكن زوجته الرشيدة العاقلة نبهته إلى أن ذبوع الخير ليسيين إلى بيته

ويعرضه للأخطار . فليكتمن هذا الأمر ما استطاع فلعلها مهتدية الى الفاعل قبل أن يعلم الناس .

وكانت عمة أولتيا قريبة ، وقد علمت بما بين فردينان وابنة أخيها ، وعجبت من نفاسة هداياه اليها ، وحدثت في علاقتهما ما يوجب القلق ، وظنت فيها الظنون . وإذ كانت ممن يؤثرن اليقين على الشك ، وكانت تتوقع عودة أولتيا في كل لحظة ، وتعلم أن فردينان كذلك وشيك الرجوع ، ذهبت إلى أسرته تسأل هل يوافق أبواه على زواجه من أولتيا ، وهل بات هو ذا مورد .

فدهشت الأم — أم فردينان — لهذا القدر من الرواية ، فلما حدثتها العمة عن الهدايا أجفلت في نفسها إجملاً شديداً ، لكنها اصططعت الغبطة بالزواج المعروض ، وطأنت السيدة من ناحية فردينان ومركزه ، ثم استمهلها وقتاً للتفكير .

واستصوبت الأم أن تكتم هذا الأمر عن زوجها . وكان كل هما أن تتحقق هل ابتاع فردينان هداياه بالمال المسروق . فقصدت الى التاجر الذي باع له واستعرضت بعض حليه ، واستفسرت عن الثمن . فلما أخبرها به تظاهرت بأنه غال ، وأن ابنها حصل منه على مثله بأرخص من ذلك . فقال التاجر: حقاً كان هذا! لكن العملة التي اشترى بها ابنها كانت عملة نادرة . فوضح الخبر وتحققت الأم الآن أن السارق هو فردينان

وعاد فردينان منشراح الصدر يتوقع الإيظراء ، وأن يكال له الثناء ، ويتربص أن يعقد الصفقات التي تعوض ماسرق وتمحو ما اقترف .

وأثنى أبوه على تجارته ، لكنه لم يكن الثناء المستطاب ، ذلك أن أباه كان برماً شارد الفكر أسفاً على ماله المفقود . وكان يزيد في تبرمه وتشنت فكره أن

دينًا عليه استحق الأداء ، ولم يجد إلى أدائه سبيلا .

وأحزن فردينان ما وجد في نفس أبيه ، وأرهقه فوق إرهاقها شهود فعلته :
حيطان المكتبة وأثاثها والمكتب ذاته ، فذهبت بهجته ، كما يذهب الزبد جفاء
وتبددت آماله ومطامحه هباء . وأحس نفسه التي سمت بتفكيرها تهبط من
حالق ؛ وأنه لم يعد الرجل الطيب الذي ظن أن يكون .

وأراد أن يبرح المكان فأومأت إليه أمه أن اتبعني ، وباعته بقصة الصندوق
« صندوق أبيه » وأخذت عليه طريق الإنكار ، فاعترف لها جائئاً على ركبتيه ،
وأخبرها أنه بسبيل الإصلاح والتكفير ، وأن التوبة خليقة بمحو الجريمة التي
اقترفها . وسألته أمه ماذا فعل بكل المال المسروق ، وأذهله أن يسمع منها
أرقاماً لم تدر بخلده ولم تمتد إلى أصلها يده . ولم تنفع مع أمه أيانته ، ولم يجده إنكاره
بل ظلت الأم تعتقد أنه سارق الجميع ، وأن من يسرق الواحدة كف لأن
يسرق الأخرى ، وأن التجارة التي يزاولها قد تكون من المال المسروق ، وأن
أصحاب السوء الذين رافق قد يكونون شركاءه في المال المسروق .

وتوعده أمه إن لم يعترف بكل شيء ليوأن بغضبها وغضب أبيه وتبلغن
للسلطة أمره . وسأله هو نفسه كيف يقنع أبويه بأنه لم يأخذ كل هذا المال ،
ورأى ما قدم لحياته المستقبلية ينهار ، ومارجا من زواجه من أوتليا يخيب .

بيد أن هذا الذي شئت فكره وجرح كبريائه وأهان حبه لم يكن أبلغ
ما آله ، إنما كابد فردينان أشد العذاب من رؤية قصده معكوساً ، وعزمه دلي
الإصلاح منكوراً هذا النكران .

لكن فردينان سرعان ما تبين أن الخطيئة تقعد للجهود الطيبة بالمرصاد
لتجبطها ، وأن اللطخة العالقة نيم عليها الاثر الباهت مهما يعمل لإزالتها . فخارت

عند ذلك قواه ومج الحياة .

وهوى فردينان على مقعد بلله من قبل بدموعه ، وناشد فردينان السماء أن تعينه ، وهو التائب المنتيب الحقيقي بعطف الأقدار ، والمفرط النادم الطامع في رحمة الله .

واستغرفته صلاته فلم يظن الى الباب يفتح والى أمه تدخل متهلة وتقبل عليه قائلة : « يا بنى ! انه ليسرنى أن أتبين صدقك واستشعر ندمك . فالذهب الذى افتقده أبوك قد وجده عند صرافه ، والمال الناقص قد تعهدت برده »
فأدخلت كلمات الأم السكينة على قلب فردينان ، وبات يؤمن بأن فى مقدور المرء أن يريد الخير وأن يتمه ، وأنه بمشيئة الخير وصنيعه يكسب المرء عطف ربه وعونه .

وضاعف غبطة فردينان أن يرضى أبوه عن خطبته لأوتليا ويرحب بزواجه .
وإذ يرتفع عن كاهله عبء الجريمة وينطلق من قيودها ، يأخذ فى التفكير فى مستقبله ، ويتقرب بفارغ الصبر عودة حبيبته .

وإنها لتعود آخر الأمر ، ويهرع اليها ليراها أجمل مما اعتاد أن يراها ، وإنه ليرصد الساعة التى يفتاحها بحديث القلب ، ويهتبل الفرصة إذ تحين ليقبل عليها بعطفه ورجائه وأمنيته ، إذا بها مستخفه لا تكترث لقوله بل لعلها كانت تسخر منه ، وتمجن معه ، وتتصوره وإياها فى حياتهما المنتظرة من رعاة الأغنام .
ووجم فردينان وارتد إلى نفسه يراجعها وقد جعلت تنضح بالمرارة بعد إذ كانت تذوب حنواً . واشتأز من مسلكها ، وأحس عاطفته تجمد نحوها ، فجعل يتقصى هفاتها ويتلمس أخطاءها . ولم يحتج إلى كثير من البصيرة ليتبين أن ابن عم لها قد جعل يسترعى انتباهها ، وأنه يفوز بقسط كبير من ميلها .

وفقدت أوليا تأثيرها على فردينان ، وانفك سحرها ، ووضح رباؤها
وقدرتها على اصطناع الرقة آونة ، والجفوة أخرى ، وأنها تكون فاتنة حيناً
منفرة حيناً ، فاعتزم أن يتخلص منها قليلاً قليلاً ، واستقر رأيه على قطع
الخيوط الأخير .

لكن الخيط الأخير على وهيه لم يكن هيناً قطعه ، فقد وجدها وحدها ذات
يوم فعاوده حينئذ اليها ، فذكرها بوعداتها ولحظات عمرت بأمانى المستقبل .
فتلطف معه ورقى له فأقبل عليها من جديد يكشفها بشروعاته . لكنه عبثاً
تلمس عندها الميل إلى هذه المشروعات والاكتراث لها .

وأحس فردينان أن ليس من خير يرجى من هذه العلاقة الموصولة المقطوعة .
وكان خليقاً أن ينصرف عنها وأن يقطع فيها برأى . بيد أنه انصرف متردداً
مرزعزعا ، ذلك أنه لم يكن من الهين عليه أن يتحرر من مفاتها وهي كثيرة .
وكان شئ واحد كافياً لقطع الخيط الأخير الذى لم يكن هيناً قطعه ، ذلك هو
الألفة التى لمسها بين أوليا وابن عمها ، وقد كانت ألفة من النوع الذى
لا يطيق غيره إلى جانبه .

لكنه عاد يتردد ، وكتب اليها يخبرها بين أن تتبعه أو تحله من وعده .
وكانت قد اختارت ! ! فردت عليه فى لغة ذات وجهين ، ردت إليه وعده
واحتجزت قلبه ، فهى مازال مرتبطة به ، طليقة مع ذلك منه .

وعجل فردينان بالعودة إلى مقامه الجديد ، وحزم أمره ، واتخذ الفتاة التى
تصدر فى كل شئ عن سجيته زوجاً له .

لقد عرفت فردينان فى السنوات الأخيرة رب أسرة مهيبة عديدة . وقد

قص على قصته وتبينت طابعها القوي في نفسه ، وبدتهني منه أشياء وأشياء . فهو يعف عن الشيء حين لا يضيره تناوله ، وهو في هذه العفة حريص على الفضيلة في ذاتها ، لا نافر من شيء يغير هذه الفضيلة . كذلك رأيت يعود أولاده على أن يكفوا أحياناً عما يغري بالاعقبال . وقد أخذته مرة بأمر لم يرقني بادي الرأي ، فقد حرم غلاماً صغيراً من أطفاله من تناول لون من أحب ألوان الطعام إلى الغلام . ولشد ما أدهشني ألا يمتنع الغلام لهذا الحرمان ، وأن يظل محتفظاً بابتهاجه . وكذلك كان إخوته الكبار كثيراً ما يرون بفاكهة مشتهاة أولذاذة من اللذائذ فلا تمتد أيديهم إليها ، ثم هم مع ذلك يسمح لهم بكل شيء ، فالبيت يضج بعيشهم وجدهم ، ويزخر بحماقتهم ورشدهم .

كان فردينان يلوح وكأتما لا يكثر شيء من عمل أولاده . وكان يطلق لهم الحرية لا تعرف كاجأ ولا زماماً . ثم إذا به فجأة يروم أن يسير كل شيء في مثل دقة الساعة ، فإذا بساعات الأولاد مضبوطة كلها في اليوم التالي . يتلقى كل منهم أمره بما ينبغي عليه في فراغه وشغله ، فلا يتخلف منهم أحد عن واجب وكل إليه أدائه .

كان فردينان يضي الساعات الطوال في تبرير هذا اللون الغريب من التربية ، وكان في صفوة أقواله يزعم أن على المرء أن يفرض على نفسه القناعة ، وعلى غيره الطاعة . لا ليكونا ديدنه على الدوام ، بل ليستطيع ضبط النفس وضبط الغير في الحين المناسب وهتي شاء .

البارون فوكيه

البارون دى لامت فوكيه شاعر أعشق فروسية القرون الوسطى وعاش خياله فى جوها ، فهو كما قال أيشندورف «دون كيشوت الرومانتيك» . ولد سنة ١٧٧٧ براندنبيرج واشترك فى حرب التحرير الألمانية فى سنة ١٧٩٤ وعاش بعد تلك الحرب فى ضيقة لزوجته الكاتبة الشاعرة كارولينا دى لامت فوكيه ثم ذهب الى هال فألقى فيها محاضرات فى الشعر والتاريخ . واستدعاه فريدريك ولهم الرابع ملك بروسيا الى برلين تكريماً له ، لكنه مات فى العام التالى لاستدعائه فى برلين منسيا . وكانت وفاته فى سنة ١٨٤٣ . والبارون فوكيه حفيد جنرال هذا الاسم من قواد فريدريك الاكبر وخلصائه . وهو من أسرة عريقة فرنسية الأصل اشتهرت بالفروسية والبطولة فى الحروب . وقد كان فوكيه متحمساً للعصور القديمة والشعر القديم . وآثاره تنضح بذلك . وفيها الكثير من مسرحيات البطولة وقصص الفرسان . وقد بقى من آثاره جميعاً قصة «أوندينه» الشعرية ، وهى قصة حبيلة إلى النفوس .

اكيل الغار

للبارون فوكيه

في ساعة متأخرة من ذات مساء كان شيخ من فرسان النبلاء يهبط جبلا شاهقا من جبال الهارتز وقد تملكه الإعياء .

وكان هذا الشيخ يدعى لويتهولد ، وكان ذات يوم سيد هاتيك النواحي ، لكنه اليوم مغلوب على أمره ، أقصاه كونت غنى عن قصر أسرته ، وسكن هو ذلك القصر الفخم . فكان الشيخ في أصيل كل يوم يخرج من كوخه ، ويصعد الربوة يتأمل القصر ، ويرعى برجيه إلى أن تغيب الشمس ، ثم يهبط الوادي حيث يأوى ضعيفاً عديم الأذى . ذلك أن ورثته الوحيد وولده البطل المقدام الطروب قد كان قضى وهو يزود عن شعبة أبيه .

وكان الشيخ إذ يعود إلى كوخه ير داءاً بكندية ابتناها في عزه ، وأودعها وفات ولده ، بعد إذ سقط في ميدان الشرف ونضارة الشباب ، فكان يجثو قبالة بابها الصغير ويصلي على روح سيجبيلد الحبيب . فلما كان اليوم فعل كما يفعل كل يوم حتى إذا نهض من ركعته أطل ملتاعاً من خلال النافذة ليرى النعش فلم تسعه رؤيته ، لأنه كان مواري خلف جدار وراء الهيكل ، وليس معه مفتاح الباب . وقد كان بعد دفن ولده بهظه الألم وهو الوالد الثا كل فرمى بالمفتاح في ماء فأثر ثم ندم على ذلك أي ندم . وكان مسكيناً تعوزه النقود لا بتياع مفتاح لقفل الباب البديع الصنع فظل محروماً هو وزوجه الورعة وابنة أخيه ديوتفينا

خطية سيجيبلد — ظلوا محرومين من إثارة الهناء الذي لم ينعموا بأعز منه ولم يكن الشيخ لويتهولد في يوم ما أشد لوعة مما كان في ذلك اليوم ، إذ ينظر إلى باب الكنيسة متحسرا وكأنا يتوسل إليه أن يخلي له الطريق ويحسب الباب يصدع بأمره ، لكن الباب ظل جامدا لا يلين وقد طالما عبثت يده بأكرته ابتغاء الآتية فلا تكاد الأكرة تعلو أو تهبط في هذا القفل الصدى . ولما لم يفز هذه المرة أيضاً بطائل تولى ميمماً كوخه يهز رأسه أسفا ويذرف الدمع مدرارا ولقى زوجه ياب الكوخ تترقب عودته ، وقد أعدت لعشائه طعاما تافها ، فسألها : أين ديوتفينا ؟ فقالت : لقد ذهبت إلى مخدعها لأن اليوم يوم خطبتها لسيجيبلد ، وهي كما تعلم تحيي ذكراه بالاعتكاف والصوم فتنهّد الشيخ تنهدا عميقا ولم ينطق برهة بينت شفه ، ثم عاود الكلام فقال : كم عندنا من النقود ؟

قالت : جولدان أو نحوها .

قال : وكم يطلب صانع الأقفال ؟

قالت : ثلاثة جولدان ذهبية .

فعاد الشيخ إلى تنهده وجعل يتفحص المكان من حوله . فقالت العجوز : أجل ليس عندنا ما يباع بعد الآن سوى هذا ، فان صانع الأقفال مستعد لأن يدفع فيه بضعة جولدان من الذهب .

فقال الشيخ : أتعنين هذا ؟ وأشار إلى سيفه القديم . فأومات العجوز بالإيجاب . فهب مغضبا يصيح : معاذ الله ! حقا اني لم أعد أومل أن أبرم بهذا السلاح القديم شيئا في هذه الحياة ، لكن مكان سيفي هو فوق نعشى ليدل على شرفي . وما أظن سيجيبلد يغفر لي في جنته تصرفي في هذا السلاح الكريم فبكت العجوز ، وأخفت وجهها بيديها الهزيلتين الجوفواوين . فقد كانت

ما تزال تذكر كم لعب ولدها بهذا السلاح وهو بعد صبي جميل مرح النفس ،
طروب الفؤاد ، ولم كان يحدثها عن أمانه في حياة مستقبله مكللة بالنصر
ولاذ الشيخان أخيرا بالصمت ، وأطفئنا النور ، وتوجهنا الى النوم ، وما أن
انتصف الليل حتى نبه الشيخ صياح عجيب وأصوات غريبة تشيع في الوديان ،
ثم لمح على زجاج نافذة المخدع الصغيرة نورا يعكسه في ربوة من ربي الغابة
شبيه الالهيب المندلح .

فأراد الشيخ النهوض لتفقد ما حوله ، فهاهت به امرأته أن : ابق راقدا
أيها الرجل فاني لأسمع هذا منذ برهة طويلة ، وأصلى هادئة صامتة . ولست أشك
في أن ما نسمعه هو ضوضاء الزمرة الحانقة
قال : بلى فان ما أسمع الآن غير الذي طالما سمعته من زئير الصياد الوحشي
في جوف الليل .

قالت : لا بد أن يكون هذا من عمل السحر ومن يعلم ما يختمر فوقنا الآن
فابق راقدا بربك واثن عنان الفضول
فأذعن الشيخ ولزم الصمت ثم جعل يصلي في خفوت ، لكنه عاد بعد
هنيهة يقول : لكأني أرى أحدا ممتطيا جوادا أشهب يمر بالنافذة وفي ركبه
شبه من ركبة ابننا المرحوم .

فارتعدت العجوز ، وحشته على السكوت لكنه لم يلبث أن عاود الكلام فقال :
أسمع كيف يصرخ صارخ من الجبل ، وكيف يهيب بمن معه أن ينتهبوا
ويضربوا . وقد ذهبت عاصفة الليل بتلك الصيحة ولما يكدر كها سمعي لكن
سيجبلد كان يصيح بها قبيل مقتله .

قالت العجوز : اذا كنت تبغى أن يقتلني الخوف والفرع ، أو كنت تريد

أن تذهب برشدى فامض فى أقوالك هذه فما أحسننى بحاجة الى كلمة أخرى .
فسكت الشيخ وكبح جماح أفكاره المضطربة المتعارضة ، وقرت تلك الجلبة
العجيبة كذلك أوضاع ضجيجها بين الأودية . وأسلم الشيخان نفسيهما الى
السكرى والصبح يتنفس .

وطلع النهار وأشرقت الغزاة وفاضت أنوارها على الجبال . وجلست العجوز
الى مغزها ، واتوى الشيخ الخروج بمعزقته وفاسه ليتعهد حديقته الصغيرة . بيد أنه
التفت على عتبة الباب وقال : غريب هذا ! ما إن يشوش الليل الرأس باحاجيه
ومخاوفه حتى يابى الصفاء أن يعود اليه . ولقد لبثت حتى مطلع النهار أحلم باعياد
الحصاد كما اعتدنا أن نقيمها فى نعمائنا فى برج القصر

فقاطعه الزوجة بقولها : «حقا ان هذا الغريب ! فقد كنت أنا كذلك أحلم
بهذا فرأيت الفلاحين يغدون الى فناء القصر يحملون المناجل وتحمل النساء والبنات
المدامات معبدات الأرض معقودة حولها الأشرطة الملونة . واكليل الحصاد يتالق
عاليا فى زرقة النهار الصيفى . وولدى الحبيب فى الطليعة ما يزال طفلا لدن العود
قد غطته جدائل الأزهار . وعقد على رأسه اكليل جميل جعله كالعروس وازين
صدره بزهرة كبيرة حمراء » وأطرقت حزينة فقال الزوج ليصرفها عن ذكرى
ولدها الوحيد وشجنها الاليم :

« وأغرب من ذلك تلك الأغنية الكنسية التى كان ينشدها الموكب وهو
داخل . وقد سمعتها فى يقظتى حتى لأخالى فى هذه اللحظة أسمعها ترن فى أذنى
من ناحية الجبل ، وتقرب من المنحدر المشجر شيئا فشيئا . والآن وأنا أفتح
الباب يخيل إلى أن وقعها يزداد فى سمعى رنيننا »

وكانت الزوجة قد سمعت هذا كله فنهضت دهشة تبغى الخروج أمام باب

الكوخ ويدها في يد زوجها ، لتبين تلك الأصوات من حولها . وقد شجعتها أشعة الصباح الموسية التي كست الأشجار حلة عسجدية ، وخلعت مثل هذه الحلة على ما تحت الأشجار من الأعشاب الندية . وقد زاد في تشجيعها تلك الأغنية التي كانت تفيض بتقوى الله ، وتزداد اقتراباً على الدوام تصاحبها أنغام المزمار ويزاملها العزف على الناي .

وما كاد الزوجان يقفان خارج الكوخ حتى تبينا جمعاً من القرويين بين جذوع الأشجار يحملون على قبعاتهم أعواداً خضراء ، وتحمل أيديهم المناجل اللامعة ، ويحمل البعض الحراب والرماح . فقالت العجوز : يا للعجب ! ما هذا والأوان ليس أوان الحصاد . وفيهم يخرج هؤلاء مغنين عازفين . أنظر كيف تلتهم مناجلهم في حمرة الصباح ! فتمتم الفارس قائلاً : يا عجب ! ما أراهم إلا قد أتوا أمراً جلاً ؟ ذلك إنه كان أعلم بتلك الحمرة العالقة بالأسلحة الفولاذية من أن يحسبها حمرة الصباح كما حسبتها زوجته .

وجاء القرويون في تلك الأثناء ففقدوا حلقة حول الزوجين الجليلين . وفيما هم يشحنون مناجلهم وحرابهم بعد الفراغ من غنائهم وعزفهم إذا بديوتفينا تخرج من بين صفوفهم قاصدة إلى الأبوين المبهوتين مشرقة المحيا تقول : « البركة في التبكير للصلاة . فقد لاقاني هؤلاء الأبطال عند طرف الغابة وأرادوا أن أكون البادئة بأخباركم بأنهم قاتلوا لاسترداد حصنكم فاستولوا عليه وحررت الناحية ، ولقى الغاصب حتفه . »

فحملق الفارس الشيخ فيمن حوله وكأنا عاودته في اليقظة أحلامه ليلة أمس ، فاقرب منه أكبر القرويين المسلحين سناً ، وكان شيخاً وقوراً أشيب الرأس كمولاه فتناول منه فأسه ومعرزته في رفق ، وناولوه صولحانا فضياً قديماً مطعماً بالذهب كان أجداد لويتهولد يتقلدونه منذ عصور لا تحدد . وقد استردوه مع

ما استردوا من حقوق الأسرة المقدسة ، فصاح عندئذ من بالحلقة من الرجال مهالين ورددوا قول ديوتفينا : « لقد حررت الناحية . ولقى الغاصب حتفه . » وتشابكت مناجلهم وحرابهم مازحين .

وقال القروى الهرم للزوجين وكانا مازالان مذهولين لا يصدقان : « انها الحقيقة ياسيدى . فقد عاد رتشارد ابن أختك من الحروب الصليبية أيها السيد النبيل ، وأتى بهذه العجائب كلها فى ليلة أمس حيث تبيناه فى طلائع الدور . وكان يعلم مبلغ وفائنا لمولانا الشرعى وشيخنا الوقور فدعانا الى حمل الحرب والمناجل كما لو كنا عقدنا النية من زمن على عمل لامندوحة عنه . فلم يسع حتى المترددين منا إلا أن يروا أنه لا بد مما ليس منه بد ، فدقت أجراس الهجوم وأضاءت نيران الحرب فوق الربى ، وتدفق جمعنا كالسيل ، وقد نظم أمرنا ذلك الفتى وأضرمت كلماته الحماسة فى الصدور ، فوقعت الواقعة ، وطاردنا أتباع الكونت أينما وجدناهم ، نصعد جبلا ونهبط واديا ، ثم اقتحمنا القصر ، وخر الكونت صريعا بسيفه . وقد قادمنا الفتى الظافر إليكما غير بعيد من هنا ، ثم عاد إلى قصر أجدادك ليعد معدات استقبالك . فاذا راق مولاي ومولاتى أن نسير فى ركابكما إلى هناك فثمة ثلاثة جياد قد اقتدناها من اصطبلكما ، أحدهما لمولاي ، والثانى لمولاتى ، والثالث لآنسة المبجلة . »

فمد الشيخ ذراعيه يبارك قومه المخلصين الشجعان ، وجرى إلى ثلاثتهم بالجياد الثلاثة . وأعينوا جميعا على الركوب ، وسار موكبهم بين التهليل فى طريق القصر . وكان القروى الهرم يسير محاذيا جواد الفارس يقص عليه أبناء المعركة التى دارت تلك الليلة ومأداه رتشارد من عجيب الفعال . وفيما هو منصت فى غمرة من الغبطة والأعجاب المتزايد بقلب ابن أخته - ذلك القلب الكبير ، ودرايته بالقتال ،

وبطولته التي تغلبت على حرب سجال ، إذا بقلبه النبيل تطغى عليه حماسة الشاكر ،
فيصيح عاليًا ليسمعه من في الموكب جميعًا فيقول : « أقسم بشرف الفرسان ووفائهم
الذين هما شرفي ووفائي لينال منقذى الشجاع أحب مخلوق إلى فوق هذه الأرض
ديوتفينا ابنة أخى ! فلتكن خطيئته أمام الله والناس . »

ورفع يده إلى السماء كمن يعزز القسم . فوقف الموكب مبهورًا يحملق في الشيخ
المنفل ، وامتقع لون امرأته من الفزع حتى باتت كالأموات ، لكنه أمكنها آخر
الأمر أن تقول بشق النفس : « أيها الرجل ماذا فعلت ؟ وما هذه الفورة الويلة
تحت هذا الشعر الأشيب ؟ أنظر حولك حيث نحن وقوف فهذه هي الكنيسة
التي يرقد فيها ولدنا الوحيد ، وقد سمعت ديو تفيينا الثقية تعاهد الله بعد مقتله عل
أن تحيا وتوت خطيئة طاهرة لسيججيلد فأى القسمين حُث به ؟ قسمها أم قسمك ؟ »
فهوت يد الفارس أسي وتنهد قائلاً : « هكذا تجرى الأمور ، تحبو السماء
للناس بنفحاتها الغالية فيأبى الإنسان في حماسه الجامح إلا أن يقتلها ضرا . »

ونظر الموكب إليه وهو مكتئب مذعور ، لكن ديو تفيينا اقتر ثغرها البديع
عن بسمة ملائكية وقالت : أبى وأمى لا تحزننا فيمينانا لا تتعارضان كما تخشيان .
واتجهت إلى القروى الهرم وواصلت معه الحديث : من أين علمت أن من قادم
الليلة كان رتشارد ؟ فرد عليها الهرم بقوله : « لك الله سيدتى النبيلة ومن يكون
إذن إن لم يكن هو ؟ لقد كان يحمل علم أسرتنا وصادتنا ، ويحمل شارتها مجنه
وربطته . كذلك كان طبعه وكلامه وركبته جميعًا مانعده في ساداتنا وكان يهتف
باسم الأسرة في صوت حربى جهورى كلما دهم جواده الأشهب جموع الأعداء .
أجل كان منه ذلك وكان إلى ذلك كثيرًا ما يردد قوله : إنا نحارب تحت إمرة
سليل الدوحة الأصيلة فمن يكون إذن إن لم يكن الفارس النبيل رتشارد ؟ وإن

يكن أحد منا لم يستطع أن يتبين وجهه لأنه كان يحمل خوذته دائماً مسدلة »
 فرفعت ديو تفينا صوتها عندئذ قائلة تحف بها هالة من الجلال : « دعوني أقص
 عليكم ما وقع لى الليلة ، وعوا جيداً ما أقول لأنى أقول الصدق وانطق بالحق
 الأبلج كما تنطق به عذراء طاهرة .

« كنت واقفة بنافذة مخدعى أروى من ماء عين تارة ، ومن دمع عيني
 تارة أخرى شجيرة آس بديعة زاهرة كنت أعدتها فى الأيام الهنيئة الخالية
 لأجل منى إكليل العرس وقد نمت وترعرت لكن العيد الذى كانت ستتجلى
 فيه كان قد كتب عليه الذبول . وإنى لأسبح فى هذه الأفكار وأمثالها إذا
 بحركة يباب المخدع تفرغنى ، وكنت سمعت شيئاً يصعد السلم الصغير بخطى خفيفة
 خافتة تصحبها قعقة سلاح ، وإذا كان أبواى قد ناما من أمد طويل وكان الليل
 قد أوغل سرت فى رعدة من الخرف ثم رأيت الباب قد فتح نصف فتحة وامتدت
 منه ذراع مدرعة تحمل ربطة الميدان التى كنت طرزتها لخطيبى ولزمتة فى نعشه ،
 ثم سمعت من الخارج صوت سيجيلد يقول : أنا سيجيلد ! فهل تأذنين لى فى
 الدخول من دون أن أقتلك فزعا ؟ فصاحت : « يا إلهى » وقد أرعشنى الخوف
 وهزتنى اللوعة ، فدخل الفتى إلى المخدع صاحب اللون ، سابغ الدرع قد حسر
 عن وجهه قناع خوذته ، يمشى بخطى وثيدة وهيئة جدية رهيبة ، وقد تبينت معالم
 وجهه الظريف لكنى لم أقو على تأمله فلم أتبين أكانت عيناه جامدتين غائرتين
 كعينى الميت أم كانتا ما عهدتهما فيضنان بالعطف . وقد سألتى متوددا :
 « ألا تزال بك حاجة إلى شجيرة الآس لتستخدميها فى عرسك » فهزرت رأسى
 فعاود السؤال : « ألم تعد بك حاجة إليها أبداً ؟ » فهزرت رأسى ثانية . فرجاني
 متلطفاً صادقاً حببياً كسابق عهدي به : « إذن اجديها لى إكليلاً يا عروسى

الجميلة فلا يزال على هذا الجسم الفانى أن يتولى مهمة الانتقام والخلاص فاذا ما فرغ منها وعاد إلى نعشه أخذ معه هذا الأكليل . »

فجعلت أجدل وأجل ، لا أمل ولا أكل ، حتى غدت أفنان الشجرة إكليلا جميلا . وكان عروسى قد وقف طويلا بالباب ملازما الصمت . فلما فرغت جثا أمامى على ركبته فتوجت خوذته بالأكليل . ثم خرج يقول : « لا تفزعى أيتها الحبيبة إذ ضجت الوديان وعجت بعجيج القتال . فلقد كتب الله لى الفوز وسيؤتىنى نصره . » وحيانى بذلك مودعا . وشملنى من ظرفه ماسرى غنى فشيعة مبتسمة كما كان شائى معه حين يخرج إلى مباريات الفرسان . لكنى لما رأيته ينهب الأرض بجواده الأشهب نهبا ، هائلا طروبا ، تولانى الفزع ثانية . وأنما يا والدائ العزيزان تعرفان فارسكما كما تعرفونه أنتم أيها القوم المخلصون . فاذا فتحتم كنيسة ورفعتم الغطاء عن نعشه — وهو ما أرجو أن تفعلوه — فلا أشك فى أنكم ستجدون إكليل الآس معقودا حول خوذته عروسى مؤيدا قولى . »

فنظر بعضهم إلى بعض وقد رنق عليهم الصمت وساورهم الشك . وقام بأففس الكثيرين منهم أن ما حدث فى جوف الليل من الحوادث المزعجة قد شوش ذهن ديو تفينا كما يمكن أن يكون قد اضطرب من حلم مرعب . لكنهم لما تذكروا خروجها إليهم من الكوخ مالكة حواسها جميعا كف هذا الوهم فى خبالها عن أن يجد سبيله إلى يقينهم .

وفى الواقع لقد عاد القوم يتذكرون أن قائدهم بعد أن لم شملهم غاب عنهم برهة ثم عاد إليهم بأكليل جميل معقود على خوذته .

وقد أجببت ديو تفينا إلى رجائها ففتحت الكنيسة . لكنه قد ساور الأم

شك في هل يجوز أن يعرض جثمان ولدها هذا التعريض الجريء للنور ، فهدأ القوم روعها بقولهم إنهم سيلبثون بالباب يحرسونه حتى يعاد الباب وقفله إلى حالهما الأول من دقة الصنع .

وقد قاومهم باب الكنيسة الصديء مقاومة هائلة خيل إليهم معها أن أجسام الخلق جميعاً تجمعت وراءه لتصدم إيمانهم بتلك الظاهرة . أما ديوتفينا فكانت واقفة تبتسم واثقة بصديق كلامها .

وأزيح الغطاء عن النعش فاذا البطل الشاب راقد في درعه السابغة قد حسر قناع الخوذة عن وجهه الباسم وحول رأسه المخوَّذ إكليل الآس الذي جدلته له عروسه ، نخر الجميع لله سجداً .

وقد لبثت ديوتفينا أمينة على عهدا وعهد خالها ، وفيه لفارسها الراحل ، تسكن بيتاً صغيراً بجوار كنيسته إلى أن وافاها الأجل . ولما عاد رتشارد من غيبته بعد سنين طويلة ، وآل إليه ما تخلف عن الشيخين في سلام وسع هذا البيت فأضاف إليه ديراً جميلاً للنساء ، وظلت كنيسة سيجميلد في كنف هذا الدير طويلاً قدساً تغشى الهيبة فيه الناس ، وكعبة يقصد إليها الحجاج .

الشرر الأزرق

لمكسيم موركي

قالت العجوز ايزرجيل تقص على قصة الشرر الأزرق الذى يتراءى قبل العاصفة فى هذا السهب^(١) :

« كان فى سالف الزمان أناس يعيشون فوق هذه الأرض . أين - لا أعلم .
إننا أعلم أن غابات عظيمة كثيفة كانت تحيط بمنازل هؤلاء الناس من ثلاث جهات ،
وأن الجهة الرابعة كانت مفتوحة على السهب . وقد كانوا قومًا مرحين - أقوياء
جريئين ، يقنعون بالقليل وأغلب الظن أنهم كانوا من النور . لكنه ألم
بهم يوما وقت عصيب ، فقد ظهر عليهم من مكان ما قبائل أخرى وطردهم إلى
قلب الغابات . وكان هناك مستنقعات ، وكان ظلام ، فالغابة قائمة من قديم الزمان ،
وفروعها متضافرة لا ترى منها قبة السماء ، ولا تكاد أشعة الشمس أن تنفذ إلى
مستنقعاتها من عريشها الكثيف ، فاذا وقعت مع ذلك تلك الأشعة على ماء
المستنقعات تصاعد منها بخار كريه ، وتردى فى هذا البخار هؤلاء الناس واحداً
بعد واحد . فبيكى نساء القبيلة والأطفال ، ويفكر الرجال ، ويتولاهم الغم من
سوء الحال .

لم يكن بد إذاً من الرحيل عن هذه الغابات ، ولذلك طريقان : الأول يؤدى
إلى الورا ، وهناك الأعداء الأقوياء ، الأردياء . والثانى إلى الأمام حيث الأشجار

(١) الأرض الواسعة .

الباسقة المتوشجة الأغصان، الممتدة الأصول والجذور المعقدة في وحل المستنقعات .
وكأثما هذه الأشجار قدت من صخر ، فلا همس ولا حراك . وهى بالنهار غارقة
في غبش أغبر ، فإذا جن الليل وأوقدت النيران ، أطبقت على القوم أيما اطلاق ،
فسواء بالليل أم بالنهار ، فمن حول هؤلاء الناس طوق يضيق الخناق على من ألف
سكنى العراء . وأهول من ذلك على هؤلاء ، حين تهب الرياح على أعلى الأشجار
ويعم الغابة بأسرها هدير وتهديد ، وتغنى الغابة لاجئها اللائذين بها من بطش
الأعداء أغنية الهلاك .

لقد كانوا مع ذلك قوماً أقوياء . وكانوا خلقاء أن يقاتلوا هازمهم قتالا
ضروماً ، لكنه كانت لهم ذرية ضعاف ، فلو فتوا في حربهم لضاع بفنائهم الصغار
فكانوا يسهرون الليالي يفكرون ، والغابة من حولهم تغط لغطها الأجش ، والمستنقعات
البخرة ترميهم بأنفاسها السامة ، والظلال ترقص من نارهم رقصها الصامت ،
وكان ما حولهم ليس ظلالاً راقصة بل أطيافاً شامتة من عفاريت الغابة والمستنقعات .
وطال بهم الجلوس والتفكير ، ولا شيء يوهن الجسم والروح
كالأشجان التي تنصص الدماء من القلوب ، فوهن القوم من الفكر ، ونهض
بينهم الخوف فقيدهم بذراعين قويتين ، ودب الذعر من ولولة النساء على جثث
الفانين بأنفاس المستنقع ، وعلى مصير الباقيين ممن فليجهم الخوف — وتمالت في
الغابة أصوات الجبن ، خافتة هيابة في أول الأمر ، فترفعة أبداً رويداً رويداً ..
حتى قام بأنفسهم أن يسلخوا أنفسهم للعدو ، ويسلموا حريتهم . وما خوف
المبودية بعد أن أفرعهم الموت ... لكنه ظهر من بينهم « دانكو »
فأقدمهم أجمعين .

كان دانكو واحداً منهم ، وكان شاباً وسيماً والو سماء دائماً شجاعاً ، فقال لرفاقه

« الأفكار لا تخلى الطريق من الأحجار ، فمن لم يعمد إلى الأفعال لم تتغير له حال . فقيم تبديد القوى بالفكر والهلع ؟ فانهمضوا جميعا ، ولنضرب فى الغابة ونجزيها فلا بد لها من آخر . وكل شىء فى هذه الأرض إلى انتهاء والآن هلموا ! » فنظروا إليه ، فألفوه خيرا منهم جميعا ، فى عينيه قوة وعزم وبريق . قالوا : لتكن قائدنا ! فكان قائدهم .

قادم دانكو ، وتبعوه على بكرة أبيهم ، وآمنوا به . وكان طريقهم وعرا ، والظلام حالكا ، وعفن المستنقع فاعرا فاه يلتهمهم واحدا واحدا ، والأشجار تسد سبيلهم فكأنها جدار من أحجار ، والأغصان ملتوية متشابكة كأنها أفاعٍ ، وفى كل مكان تمتد الأصول والجذور ، وفى كل خطوة يتصعب العرق وتسيل الدماء ومضوا على هذه الحال تزداد الغابة كثافة كلما أوغلوا فيها ، وتتناقص قواهم ، فبدأوا يتذمرون من دانكو ويتساءلون إلى أين يسوقهم هذا الغر العديم الخبرة ؟ لكنه ظل يتقدمهم ، شجاعا مرح النفس . وفيما هم سائرون هزم الرعد فوق الغابة ، وجعلت الأشجار تنهال من تهامسها الأجناس المنذر بالشر ، وحلك الظلام حلوكه ، فكأن كان ما انصرم من ليال من بدء الدنيا إلى ذلك الحين قد تجمع فجأة فى تلك الليلة .

وسار الأقزام بين الأشجار المردة ، وسار القوم بين دوى البروق ونذيرها الخاطف ، وتمايلت الأشجار تطلق وتطن بأغانى الغضب ، وأضاءت البروق المحتلجة فوق الأعلى ظلام الغابة لحظة بنور أزرق بارد ، واختفى ذلك الضوء خطفا كما جاء خطفا ، فأفرغ القوم وهزا بهم . وبدأت الأشجار التى أضاءها البرق بنوره القارس وكأنها أذرع حية طويلة معروقة ممتدة إلى أولئك الفارين من أسر الظلام لتحبلهم ، وتردهم إلى الأسر . رعب وظلام وبرد تطل جميعا من حلوكه

الأغصان على السائرين ، فياله من مسير ! وقد فقد أولئك الذين أضناهم ، شجاعتهم لكنهم خجلوا من أن يعترفوا بضعفهم ، فانقضوا على الإنسان الذي يتقدمهم وقد وغرت صدورهم ، وجاشت بالشر ، وانهالوا عليه لوما وتقريرا لأنه في رأيهم لم يحسن قيادهم .

وكفوا عن السير ، وجعلوا يقاضون دانكو وقد بلغ منهم التعب والغيظ ولغظت بينهم الغاية لغظ الشامت ، وشملهم الظلام بقشعريرته .
قالوا له : « إنك إنسان لا نفع فيك ، وفيك كل الأذى لنا . لقد أضللتنا ، وأنهركت قوانا ، فلا بد من موتك جزاء لك » .

وبرق البرق ، وقصف الرعد ، فصدم كلهم على حكم الموت .
لكن دانكو صاح بهم : « لقد طلبتم مني أن أقودكم وقد قدتكم » . وتقدم إليهم متحديا إليهم : « لقد أوتيت الشجاعة لقيادكم . وأنتم ؟ ماذا فعلتم لتعينوا أنفسكم . لقد سرتهم . وهذا كل ما فعلتموه . لكنكم لم تقووا على المضي في السير لقد سرتهم فحسب ، سرتهم كما يسير قطع الغنم ! » فزادهم هذا الكلام حنقا وصرخوا في وجهه : « لا بد من موتك ! لا بد أن تموت ! » .

وأزت الرياح وصفرت لهذه الصرخة ، وهتك البرق حجب الظلمة . فنظر دانكو إلى أولئك الذين تحمل المشاق من أجلهم فرآهم قد انقلبوا وحوشا ضارية وكان من حوله الكثير منهم فلم يتبين في وجوههم ترفعا أو شفقة ، فاشتعلت في صدره نار الغضب ، لكنها لم تلبث أن انطفأت عطفًا عليهم . فقد كان يحب هؤلاء الناس ، ويرى أنهم لولاه لخنم على مصيرهم . واندلع قلبه وضاء بالرغبة في خلاصهم ، وفي السير بهم في طريق سهلة ، وأطلقت عيناه شرر هذه النار الهائلة . لكنهم حين رأوا ذلك منه حسبوه حنقا ، وحسبوا عينيّه تضيئان بنار البغضاء ،

فتربصوا له كالذئاب ، ذلك أنهم ظنوا أنه مقاتلهم ، ومدافعهم عن نفسه ،
وازدادت حلقته من حوله ضيقا ، وخناقهم تضيقا بغية امتلاكه ، وليستطيعوا
البطش به . فحذر دانكو غرضهم ، وازداد قلبه اشتعالا ، ولهينه اندلاعا ، لأنه
آلمه هذا الغدر منهم .

واسترسلت الغابة في أغنياتها الجمجمة ، وقصف الرعد ، وجاد الغيث . ودوى
صوت دانكو أقوى من قصف الرعد .

وبغثة مزق صدره يديه ، وانزع قلبه منه ، ورفع فوق رأسه .

فأضاء لهيبه كالشمس وأسطع من الشمس . وخرست الغابة بأسرها ، وقد
أضاءتها هذه الشعلة من حب الإنسانية ، وتبددت الظلمة من وضائها ،
وتراجعت بعيداً في الغابة حيث غرقت ترتعش في فوهة العفن من المستنقع .
ووقف القوم المذهولون وكأنهم بعض مسوخ الحجارة .

وصاح دانكوبهم : « هاموا ! » وانطلق إلى مكانه في المقدمة رافعاً قلبه
المضطرم ، ومضيئاً لقومه الطريق .

فانطلقوا وراءه مجذوبين مسحورين ، فعادت الغابة هنا إلى لغطها ، تهرز
أعلى الأشجار من عجبها ، اكن ضوضاءها لم تلبث أن أغرقها وقع خطى الماضين
وكانوا جميعاً يغذون السير مندفعين ، تجذبهم حركة القلب المشتعل ، واندفعه
العجيب . وقد قضى في هذه المرة الكثيرون ، لكنه لم ترتفع شكاة ولم تذرف
دموع . وكان دانكو دائماً في المقدمة مشتعل القلب على الدوام .

وبغثة انفرجت الغابة ، وتخلفت وراءهم كثيفة خرساء . وغاص دانكو
وقومه في بحر زاخر من نور الشمس والهواء النقي البليـل . وتركوا العاصفة
وراءهم تغطي على الغابة ، ليشهدوا الشمس هنا تشع ، والسهب يتنفس ، والكلاء

يتلألاً بقطرات المطر ، والنهر يلتمع كالنضار ... وأقبل المساء ، واكتسى النهر من الشمس الغاربة حمرة كالدّم الذي يسيل شعاعه الحار من صدر دانكو الممزق . وألقى دانكو الفخور الشجاع المحتضر نظرة على السهب الواسع — ألقى نظرة راضية على الأرض المنبسطة أمامه ، وضحك راضياً ، ثم سقط صريعاً . قتها مست الأشجار المتخلفة عجباً ، واشترك معها الكلاً المبلل بدم دانكو في الهمس .

لكن قومه المغتبطين المؤمنين لم يفتنوا إلى موته ، ولم يروا أنه كان إلى جانب جثمانه قلب جرى يحترق . لم يفتن إلى ذلك سوى رجل حذر منهم ، فلما تولاه الذعر وطىء من ذعره هذا القلب الجسور .. فانطقاً وجعل وهو يضمحل يتطاير منه الشرر ... » .

ولما فرغت العجوز من أقصوصتها ساد السهب سكون رهيب ، كأنما هزه صنيع دانكو الذي أحرق قلبه افتداءً للناس ثم مات لا يطعم منهم في جزاء ولا شكور . وغلب العجوز النعاس وهي مستندة إلى سلة عنبها . وهبت ريح أطارت أسماها عن صدرها الهزيل ، فسترت جسمها الفاني واستلقيت إلى جانبها على الأرض . وكان السحاب يسير في السماء وئيداً ، والبحر يهدر هديرًا مكتوماً حزينا ، والعجوز ايزرجيل تزام نوماً عميقاً لم تستيقظ منه بعد ذاك .

بیست و نهم

طفولة عبقرى

ذهبت مرة إلى صانع أطر اعتلت غشيان مصنعه لأفنش عن صورة مهجورة لشخصية شهيرة ، فاسترعى بصرى إطار أسود وصورة سوداء ، قد رسمت بالفحم ، تطل من عل على مدخل المصنع . وكانت الصورة مظلمة عابسة ، قد زمت فيها الشفتان زمة ما منها انفراج ، والشعر فيها منتفش يحيط بالوجه فى دائرة كجسم القنفذ ، والعينان عميقتان غير غائرتين تكاد تنفذ منها بخيالك إلى لانهائية لا تحد ، والوجه فى مجموعه لا هو منفرد ولا هو جذاب ، لكنه أخذ محير تقف أمامه ساعات تستمد منه مختلف الأحاسيس والتأثيرات

خملت الصورة بأطارها إلى بيتى أستضيف فيها العبقرى العظيم لودفيج فان يتهوفن . وكما كانت تطل من مصنع الأطرى^(١) على الداخل إليه ، باتت تطل من صدر مكتبى على كل زائر . ثم إذا ببعض قطع الأطار تزل عن مواضعها فتخلف بياضاً ، وبعض سواد الصورة يزداد فحومة مع هذا البياض ، ثم إذا بى يخيل إلى أن كل ما فى الصورة يزداد مع الأيام سواداً ، فقلت لنفسى : ما لى ولصحبة هذا الفنان الذى يكاد يفرض على باب مكتبى « ممنوع الدخول » . ورددت الصورة إلى صاحبها آسفاً أو غير آسف لا أدرى .

هكذا كان يلوح يتهوفن فى حياته لأعين الكثيرين : رجلاً متجهماً نفوراً يكره الناس ، فهل كان حقاً ذلك الإنسان ؟

* * *

ولد لودفيج فان يتهوفن فى السابع عشر من شهر ديسمبر من سنة سبعين

(١) صانع الاطر .

وسبعائة وألف ميلادية . وكان مولده فى مدينة بون Bonn من مدن الرين من أبوين أحدهما فنان موهوب مرح محبوب ، لكنه متلاف مسراف سكير . أما الأم فكانت ابنة طاه وأرملة تابع ، أسخط جد يتهوفن أن يبنى بها أبوه ، لكنها كانت عاقلة مدبرة ، جميلة الخلق والخلق . وكان جده لأبيه رجلاً فناناً محترماً طموحاً ، اتجر بالنبيذ إلى جانب فنه ، فكانت زوجته تغافله إلى القبو وتلازم الدنان ، حتى غدت سكيره على الأيام لم ينفع معها إلا الدير ، وقد شب ابنها يوحنا أبو لودفيج على غرارها ، فكانا معاً سبياً للكثير مما دهى الأسرة من شظف العيش وتجهم الحياة .

لم يكن أحد يعلم حين ولد الطفل لودفيج أن ملكاً من السماء هبط على مهده بهدية القدر . فلما كانت سنو الطفل الأولى فطن الأب إلى عبقرية الصبي ، فراح يبشر بها ويعلنها للناس : يعلنها إلى أصدقائه وزملائه ليعينوه على تعليم صبيه ، ويعلنها إلى صاحب البيت الذى يسكن فيه ليمهله فى دفع الكراء . . . وقد كان موتسار - ولفجانج أماديوس موتسار - وهو بعد فى حذاء الأطفال . أعجوبة بين الصغار والكبار ، يستقبله الأمراء والعطاء أحر استقبال . لكن لودفيج فان يتهوفن لم يكن موتسار ، وإن كان أبوه وأصدقاء أبيه قد جعلوا منه أعجوبة حين توفروا على تدريبه ، أو بالحرى ترؤيضه كما يروض الوحوش ، وهو بعد فى الرابعة من عمره ، يبدو مع قصر قامته وكأنه فى الثانية ، فقد أغرتهم مخائل نجابته فى الفن ، فأخضعوه لتدريب موسيقى شاق لا يتبع قاعدة أو نظاماً . وكان أبوه كلما أحس بأنه سيكون لابنه شأن اعتر به ، وأبدى اعترازه على النحو الآتى :

كان لأبيه صديق على شاكلته هو المغنى بفيفر Pfeiffer اشترك مع يوحنا

في تنشئة الصبي على منوالها المعتل المقلوب ، فكانا إذا آبا عند منتصف الليل من الحانة أيقظا ابن الرابعة من نومه وأجلساه أو أوقفاه إلى البيان يعزف عليه كرها حتى الصباح الباكر ، وهو بعد لا يصل إلى البيان إلا واقفا على مقعد . وهكذا لم تقرب عروس الفن صديها لودفيج إلا خشنة المظهر ، قاسية اليد ، غليظة القلب ؛ فلما تبدل مظهرها باتت تدانيه في ساعات وحدته حين يستسلم في العزف للتصورات فيحس مس يدها الرفيق المبارك . وحين كان يسترسل ويتلقى البركة من عروسه كان يتلقى شيئا آخر من أبيه . الصفع ! الصفع الذي يرعد أثناءه أبوه فيقول له : مالك ولهذا ، فما ينبغي لك بعد ، وما يزال حينه بعيدا !

وخرج الوالد بغلامه في الثامنة من عمره إلى كولونيا فروتردام يعرض نبوغه على الجمهور فلم يلق كبير نجاح . ذلك أن لودفيج كما أسلفنا لم يكن «موتسار» بل كان شيئا آخر من فداذة أخرى . كان شيئا لم يثن أو انه بعد ، ولم يقطع لودفيج إليه طريقة الطويل . وأسخط أبا لودفيج ان يخيب ابنه ظنه ويزلزل يقينه في عبقريته ، فأمعن في إرهاقه ، وأمعن لودفيج في التبرم بما يلقى والانطواء على نفسه ، في عزوفه وتهيبه وعزلته . تلك الصفات التي تكونت فيه مبكرة ، وكان لها في خلقه تأثير حاسم . وكان أحد الشيوخ يسمع لودفيج فاسترعى انتباهه ، فأوصى به راعيا من رعاة الكنيسة ، فتعلم فيها كيف يصاحب الصلاة على الأرغن وكيف ينغم للترتيل . وكان لودفيج يحب الاستئثار بالافتتاح ، فيسترسل في العزف على سجيته ، ويسبح في سماء خياله ، فكان أن حرك بتصوراته أوتار الخشوع والتقوى واستأثر بمشاعر المصلين . وقد ترك له الأرغن يديره كيف شاء في صلاة الصباح لتتكشف عبقريته في بيت من بيوت الله ، حيث تخلص النفس ، ويرهف الحس ، وتهيم الروح في ملكوت الله .

وفطن الأرنغى ريفه Reeve إلى عبقرية الغلام واتجاهاتها ، فتولى إرشاده ووجه جهوده المبدعة الوجهة التي ترتضيها . وكان ريفه موسيقيا مفكراً ألعيا دقيقا . فاهتدى إلى أن نواة الفن إنما هي في التعبير عن حياة النفس . وكان هذا غريباً في موسيقى ذلك الزمان ، لكنه كان ينسجم وعبقرية الصبي يتهوثن ، إذ به ألقى تحت قدميه الأرض التي قدر أن تكون أرضه ، ووجد الطريق التي قدر أن تقوده إلى دنياه الواسعة المجهولة .

* * *

لم ينعم يتهوثن في صباه كما ترى بطفولة سعيدة ، ولم يكن الصبا والشباب الزاهي مصدر فتوته ، ولم يعرف خلو البال الذي تتشبع به الطفولة الضاحكة . فقد كانت يد أبيه القاسية أثقل عليه من العوز الذي كان جاثماً فوق صدر أسرته . وكان يحز في نفسه أن يشجر الخلاف في بيته ، ويؤلم استقامته وصلاحه أن يرى انغماس والده وإدمانه واستهتاره . وكثيراً ما حدث بعد وفاة والدته أن كان أبوه يعود إلى البيت ثلاً معربداً والشرطة في أثره أو بسبيل القبض عليه فينتزعه من يدها .

كان لودفيج في الحادية عشرة يكسب قوته ويعول أسرته ، فعرف ناحية الجد في الحياة قبل الألوان ، فكان من ثم إظلام نفسه ، وكان أيضاً من ثم نظرتة الجدبة البالغة الجد إلى الحياة ، واستمسا كه بقواعد الأخلاق .

وكان لودفيج قليل العناية بمظهره ، قليل الكلام ، دفين النفس ، لكنه كان مع ذلك يقبس من متع الطبيعة وجلال المنظر بعض ما يضيء ظلام نفسه ، ويهيج قلبه الحزين . ولم تكن الطبيعة به رحيمة دائماً ، فقد شهد في السابعة

فيضان الرين على الزقاق الذى يسكن فيه ، وشهد احتراق قصر بون الذى أتت النار على جناح كامل من مبانيه ، فاهتزت فى طفولته أوتار أسى كان لها صداها فى أوتار موسيقاه .

وكان للودفيج فى العام يوم واحد على الأقل يطلق فيه النفس من قيد الكتابة . كان هذا اليوم يوم عيد ميلاد أمه ، فكانت تقام لها منصة يتوسطها عرش تجلس عليه ، وتصدح لها الموسيقى ويدور الرقص ، ويأكل وينعم من شاء من الأصدقاء والجيران . فكان هذا اليوم وكأنه العوض للودفيج من شقاء العام ، وكأنه العين التى ينبجس منها الحب المحبوس طيلة الحول .

وقد كان لودفيج يحب أمه حب إعزاز مكبوت ، فألامها أبداً قيد تصوره وهى أبداً ماثلة لعينيه . وقد عاش طفلاً فى دنياء هو لادنيا الأطفال ، فصلب حيث تكون الليونة ، ونفر حيث يقبل الطفل على أمه لدنا ناعماً . وكانت الوحدة أمه التى يخفى رأسه فى حجرها ، لأنه كان وكأنه يخجل أن يبادل أمه العاطفه .

* * *

وننتقل من هذه الطفولة الرائعة المروعة إلى لودفيج فى الثانية والثلاثين ، وبين هاتين المرحلتين تعليم وتعارف وسفر ومقابلات وتجل وتلمذ على موتسار وهایدن من أعلام الفن فى ذلك الزمان ومن خالديه فى كل أوان . هذه الظروف التى توسطت لودفيج ولما يبلغ العاشرة ولودفيج يتجاوز حدود الثلاثين ، ليس فى هذا المقام مقالها ، لكننا ألم بلودفيج فى الثانية والثلاثين مايجيب عن السؤال الذى تساءلت فى فاتحة المقال : أكان لودفيج فان بيتهوفن رجلاً متجهماً ، نفوراً ، يكره الناس ، أكان حقاً ذلك الإنسان ؟

في مدينة هيلجنشتات Heiligenstadt حيث ألف يتهوفن بعض خالدياته الموسيقية ، في هذه المدينة التي تألم وجاهد وانتصر فيها على علل الجسم وآلام النفس لما أن وهب نفسه للفن ، في هذه المدينة التي كان يحلو له أن يجول فيها ، ويجلس تحت شجر جوزها يلتمس الراحة ، ويغنى ثم يبادر إلى الكتابة ، كتب يتهوفن وصيته المشهورة المنسوبة إلى هذه المدينة فقال في بعض مواضعها يخاطب الناس :

« أيها الناس الذين تحسبون أو تعلنون أنني أعاديكم أو أنفر منكم أو أكرهكم ، ما أشد ما تظلموني ! إنكم تجهلون السبب الخفي لهذا الذي يبدو لكم . فقلبي وحسى ينبضان منذ طفولتي بحب الخير ذلك الأحساس الدقيق . فاذا علمت أنني نزوع دائماً إلى أداء الجليل فلستم أن تتصوروا مبلغ ما أعانى منذ سنوات من حالة ليس منها شفاء ، قد ساءت برأى عديمى الرأى من الأطباء ، فهي من سنة لأخرى يخيب في علاجها الرجاء . لقد أقمت بينى وبين الناس سدا لأعيش عيشة الاعتزال ، أنا الذي ولدت لى مزاج حار من نار ، وبى تعق بالمجتمع إذ فيه لى الترويح عن هذا الأوار .

« كثيراً ما حاولت أن أخرج عن هذه العزلة ، لكنه ما أقسى ما كان يصعدنى أن أخبر فى سمعى الثقيل تلك الخبرة المضاعفة المحزنة ، فهل أقوى أن أقول للناس : ارفعوا أصواتكم ! اصرخوا فى أذنى ! إني أصم ! هل أقوى أن أصرح للناس بمواطن الضعف فى حس من حواسى ينبغى عندى أن يكون أتم مما هو عند الناس وقد كان لى يوماً أتم ما يكون .

« ساحبونى إذا رأيتمونى أتجنبكم فليس أحب إلى من الاجتماع بكم . إن شعورى بمصابى ليتضاعف أن كان هذا المصاب سبباً لأساءتكم فهمى ، وأن

كان لا يجوز لى أن أنشد التفسيرية فى المجتمع البشرى ، وفى الحديث الطلى ، وفى
أن أساركم وتسارونى . . .

« يالها من مذلة أن يسمع من إلى جانبى نايًا يصدح من بعيد ولا أسمعها إذا !
مثل هذا يكاد يقنطنى من رحمة الله ، فأكاد أتخلص من حياتى . لكنه الفن !
الفن وحده هو الذى يستبقينى ، فأنى لأرى من المحال أن أودع هذه الدنيا قبل
أن أتم ما أنزع إليه . فصبراً ! يجب أن يكون الصبر عزمى الثابت إلى أن يروق
العنكبوت الصارم أن يقطع الخيط . وقد يحسن بالصبر المآل ، وقد يسوء ،
لكنه قرارى وتصميمى .

« إنك يا إلهى تطلع على فؤادى ، إنك تعلمه ، إنك تعرف أنه يكن الحب
للناس وينيل إلى الخير . فيا أيها الناس ! إذا اتفق أن قرأتم هذا يوماً فاعلموا
أنكم كنتم تظلمونى ... إنى لأرحب بالموت وأبادر إليه مسروراً ، فإذا جاء
قبل أن أتمكن من نشر كل مطوى من مقدورى الفنى ، فلتعلموا أنه جاء قبل
الأوان ، ولوددت عندئذ أن أستأخره — على أنى سوف أكون راضياً . أليس
يخلصنى من ألم لا آخر له ؟ فأت متى شئت فأتى سأخف إلى لقاءك ؟ ... »

وبلغ بالفنان اليأس حتى لتتقطع نفسه فيما يلى حسرات : « إذا وداعا ! ويعلم
الله إنه لعزيز ! وداعا أيها الأمل الحبيب الذى اصطحبتك رجاء الشفاء ، فقد
لى أن أقطعك . لقد جف عودك وضمير ، كما تذبل أوراق الخريف وتسقط .
والشجاعة التى عمرت النفس فى آونة ^(١) الصيف الجميلة . أين هى ؟ لقد زابت
واختفت ! أيتها العناية الربانية دعى نهار السرور الصافى يطلع على مرة ، فقد
طال ماجهات صدى السرور الحق فى نفسى . متى أستشعره فى معبد الطبيعة
ومجمع الناس . متى ؟ — أبداً ؟ إذا تكونن القسوة التى لا أحتمل ! » .

لكنه احتمل القسوة فانبعث الظفر من بين الأحزان ، وأدى الرسالة من

أغوار الألم . . .

انسان

فى لحة عابرة من طفولة يتهوفن Beethoven ، حاولنا أن نرسم له صورة من وحي صورة له . وكمل للبقرى من صور ، وكمل بين هذه الصور من فروق ، فان ريشة معها رشقت ، وفرشاة معها دقت فى يد صاحبها وصنعت ، ليستعصى عليها الملمح فى هذه الشخصية كل الاستعصاء ؛ لأن صاحبها لا يستقر فى مكان ، ولا يطاوع جهد الفنان . وكثير مما طابق الحقيقة أو داناها عن شخص يتهوفن قد كان جله من وحي الخيلة الواعية وصنع الخيال .

كانت قامة يتهوفن أميل إلى القصر ، فكأنما قد انضغط بعضه فى بعض . وكان له رأس ، أى رأس ! رأس غضنفر ضخمة منقوش الشعر قد تمت له به معرفة الأسد .

كان قائم لوف الوجه ، طلق الجبين ، جليله ، قد انتشرت فى وجهه آثار الجدرى فزادته تقطياً على تقطيه . وكان له أنف دميم قد ركه الله فيه ليظهر جمال الجبين المنسجم ، والذقن ذى العزم ، والفم الكريم . وكانت له عيان قلقتان مظلمتان ، حسب صاحبهما أن يفكر أو يحدث ليشع منهما بريق خاطف .

وكان إذا ابتسم — وقل أن ابتسم — ألفت مثل شعاع الشمس يخترق الجهام

* * *

بهذا الوجه أقبل يتهوفن على الدنيا وأدبر عنها .

فكانت الدنيا دائماً جادة فى أثره ، وكان أبداً فى شغل عنها بنفسه .

وبهذا الوجه عرف الدنيا متجهمة في بيته ، متجملة في بيوت الناس ، فاجتمع له فيها ما قل أن اجتمع لفنان غيره من عطف وعون ، وتشجيع وتشقيف .

نشأ يتهوفن يرى نفسه في بيوت النبلاء مختلطاً بهم ، مؤهلين به ، آخذاً عنهم ، معلماً أبناءهم . وقد كان الأمراء منهم أحمياء به يُقرونه ، وأصحابه من صفوة العطاء بارين به ييجلونه . يتهافت عليه من المجتمع كل ذى شأن يعلى من شأنه ، ويعمل على خلوده ، ويقدم إليه أكثر مما يأخذ منه ، لولا أن فن الأستاذ لا يقدر ، وأن نفسه التي تتجلى فيه لا تقوم بنفسه .

وقد اجتمعت له أباطرة أوربا وملوكها في صعيد واحد ، واستمعت له في فينا في غفلة « المؤتمر » وغيبة الكورسيكى ^(١) فأكبرته وأعطته .

واستفاضت شهرته ، وجاوزت حدود بلاده ، وهو بعد شاب ، وتجاذبت به العواصم وتزاحمت عليه تريد أن يكون لها دون فينا ، فلا تستأثر دونها بشخصه وقد كان في يتمه موضع عناية الناس ، فكم أرسل الود والحب والفن غير شعاع إلى قلبه الكسير ! وكان في شبابه على مقربة دائماً من عرائس الفن وشيخ الرامة كيوييد الطفل فيرميه ويصميه .

* * *

فلو أن السعادة تقتنى بهذا الكانت من قسمته ، لكن الطبيعة أبدعته على غرار فريد ، فهو من ناحية نفسه في ثورة ، وليكن حوله من سلام الله طبيعة كاملة ، ومن إرادة الناس طيبة شاملة ، فانه لا بد خالق في هذه الطبيعة بحره الهائج ، وفي قلوب الناس ظنهم السيء ، وإنه لا بد مباعدينه وبينهم بقدر ما بينهم وبينه من تباين وهو كبير ، ومن تشابه وهو نادر جداً قليل .

كان يتهوفن عليلا ، فهو على همته وعزمته ، وشدة أسره وجهمة قسره ، سريع التألم كثير المعاناة .

كان يقدس حرته ولا يتصرف إلا على هواه ، ولو أخطأ العرف والتقاليد واللياقة .

وكان خشن الدعابة ، فليس بشيء عنده أن يغضب الناس أو يرضوا مادام يريد أن يتفكه بهم . وكان حساسا شديدا الحساسية ، لا يطيق التأنيح بله التصريح ثم هو لا يحفل بالحساسية في غيره .

وقد كان الأشرف أول من احتضنوه وأكرموه ، وأفاضوا فيه على الناس بحراً زائراً ، فكان يعتمد حياهم موقفاً خشناً . ولو لم تمس كرامته ! ذلك أنه كان يخشى فحسب أن تهدر هذه الكرامة ، وأن يبدو للعضاء غير عظيم .

ارتحل يتهوفن عن بون Bonn مسقط رأسه في السابعة عشرة من عمره إلى فينا ممجده ومذيعه فضله ، فوجد فيها الخلد موتسار Mozart ، فكان بدء التصادم بين معلم بلغ الذروة ومعلم ناشئ يصعد في الجبل بخطى الجبار . وقد كان موتسار الأوزة الشادية في عهد دائل وعصر زائل ، وكان يتهوفن يستقبل عهداً جديداً وعصرًا مقبلاً مجيداً .

وافترقا ، أول ما افترقا ، هذا يشيع أباه إلى مقره الأخير ، وذاك إلى أمه يودعها الوداع الأخير .

وحل يتهوفن بعد موت أمه تبعات جساما في القيام بأود أسرته ، ووقفت له عجوز الهم بالمرصاد ، تسلبه كل ابتسامة يجود بها الزمان .

وارتحل يتهوفن إلى فينا للمرة الثانية في الثانية والعشرين من عمره ، فألقى فيها جمهرة الفنانين يتزعمهم هايدن ، فقتلهم ولم يأخذ في الغالب عنهم . وكان

معهم التلميذ النابى لا يحترم إلا إرادته ، ولا يوقر إلا فنه ؛ ولا يدين لعبقرية سوى عبقريته . فكيف كان ذلك ؟ وكيف نبا يتهوفن الشاب فى أيدى الأفذاذ ، وأخطأ جلهم فيه الحساب ؟

لم يكن ما هىء يتهوفن له وسعى وراءه ينشده عند هؤلاء ، بل كان مدرسة وحده ومعبود أجيال . وصفه الشاعر وايسنباخ Weissenbach الجراح الذى أجرى مبضعه فى تلافيف شخصيته ، ودق منتهى الدقة فى تشریح أنسجته فقال : « كان خلقه كوهبته جليلا كل الجلال ، فلم أصادف فى الحياة نفسا طفلة بهذه القوة وهذا القسر . يمجد فى نفسه كل طيب وكل جميل ، وتبعته على ذلك فطرة تسمو على كل تهذيب . يثور ويألم ويبيكى إذا دنس بالفكر أو القول أو العمل ما يحبه ويبجله . وينقم أبداً على الدنيا الخسيسة ويتشيع للحق ، حتى ليتجهم أبداً الدهر لمن يتبين فيه الشر .

لا شىء فى هذا العالم يستطيع أن يغويه ، وليكن سمواً فى الحياة أو جاهاً ورتبة ومقاماً . وهو فى حساسيته الرفيعة وعبقريته الفنية الدافعة يلقى الهناء كما يلقى الشقاء . ليس للمال عنده إلا قيمة الضرورة ، فهو لا يعرف أبداً ما يعوزه ولا ما ينبغى أن ينفق . وعلى أن طبعه كان يحذره من العالم ويعرف به عنه ، فقد كثر ما أوقعته سذاجته فى أحاييل الشر . وقد قدر له أن يخبر المر ويدوقه ، لكن نفسه ظلت بعيدة عن مزاوالات الحياة ، قليله الخبرة بها ، حتى ليينتم للمكر كالطفل وذهنه منه خال . »

لقد كان يتهوفن عفاً ، نقياً لم يقارف الفحشاء ، وقد كان رأيه فى الفضيله يُستخشن لأنه لم يطلب عبقريته عند معلم الرقص ولم يبذلها على أبواب العطاء . كان يتهوفن يطلب الفضاء الطلق والسعة والانتشار ، وألا يصده صاد ،

أو يخرجه ضيق . فليس أى مكان مهما رحب بالسعة التى يطلبها ، والعلو الذى يتطلع إليه ، والغرض الذى يبتغيه .

كان يريد العزلة لا الجوار ، وألا يجاور غير السماء . وكان يريد منظراً لا نهائياً ينفذ فى قلب الطبيعة الساجية المناجية ، منظراً فى الريف المترامى يطل عليه من نوافذه ، فتطالعه غاباته وجباله ووديانه ، وتجرى من تحتها أنهاره ، يسير منها السحب الخثيثة فى الآفاق البعيدة فتحوم فوقها أفكاره كطيور العاصفة ، فيخلق ما شاء الخلق ، ويستدبر فى تحليقه حدود الأرض .

وقد كان مع هذا الانسجام الباطنى مضطرب الظاهر ، يعيش مع الفوضى تحت سقف واحد : فكتبه ومجسدياته (نوتاته) فى كل ركن وطرف لا يحتضنها نظام ، وعلى معزفه أوراق مرقشة وألحان تغط فى النوم بحاجة إلى التمام . وهنا وهناك مسودة تتطلب التصحيح ، وفضلات عشاء الأمس وقناني نبيذ ، وعلى النافذة قرص كامل من الخبز وإلى جواره أطلال دارسة من لحم الخنزير ، وعلى الأرض رسائل تتناول معاملاته ، وبين أشاتها أخرى من أصدقاء أوفياء ، وإلى المعزف مكتب زرى يحمل آثار المحبرة المقلوبة ومجرى المداد المهرق فى جوف البيان ، وعلى المكتب نصف دسنة من أقلام البوص تنتظر من يقشرها ويبريها وفوق كرسيه النقش ملابسه تغطيه وتزامل عليه فضلات الطعام .

أما الغبار ففي كل مكان ، غبار ونقر فى أرض الغرفة مليئة بالماء من مخلفات صبيب الأستاذ على جسمه كل صباح .

والصمم ! الصمم الذى وقر فى أذنيه قبيل الثلاثين ولازمه بقية العمر . الصمم الذى حرمه أنبل حواس الموسيقى فى الامتاع والاستمتاع ، فتركه يغوص فى نفسه إلى أعماق ما لها قرار ، ويطلق من أعماقه بركانا يتطاير منه شرر النفس

المستعرة أيتها استعار، ألم يكن نصيبه الأوفى فى الحياة، وصنع القدر بمجالده الجبار؟
لقد كان يتهوفن يشد النفس إلى صخرة عزلته ويكابد العذاب، وكان
عذاب النفس ينهش كبده فى قسوة الرخمة ونهم العقاب.

كان يتهوفن مسلوب العزاء. فبيانه، أداته التى كانت تناسجه بأروع
الألحان، باتت خرساء وأضحت من صممه هى الأخرى صماء.

وقد كان إذا لقي أخاه فى الانسانية فابتسم له، أول الابتسام وأساء التأويل.
وإذا تحدث إليه محدث أساء فهمه، وذهب يتظن ويفرض المستحيل.

كان يسير فى الطرقات هيبية كالخة، وجهامة مجسدة تتنكر للموهوم، فاذا
بدا له أنه الواهم وأنه الظالم لم يتردد فى الاعتذار والاستغفار واسترضاء المظلوم.

* * *

وبعد. فان هذه البشرية المتفجرة لتغمر من يقربها بأصفي المشاعر. وهذه
الشخصية المتنكرة لتطالع المستطلع بأغرب الأحاسيس. وقد تعددت جوانبها،
فهى ترحم أفق المفكر وتعقل الفكر. وقد قبسنا من وضاعتها قبساً ما نحسبه
يغنى كل الغناء. فاعلنا نكتب فى القريب^(١) عن يتهوفن الفنان. فنحاول أن
نجلوه بعض الجلاء.

فد_____ان

كان يتهوفن فناناً في عصر يزخر بالفنانين ، وجباراً في معترك الجبارة العصاميين . لكن أى فنان ! وأى جبار كان ! من شاء أن يلتمسه فوق هذه الأرض ، فلن يجده ، فقد جلّ عما كان في زمانه فوق هذه الأرض ، كذلك لم يكن بينه وبين هذه الأرض من صلة إلا صلة الظاهر بالظاهر وصلة الطين بالطين . لكنه فرق بين طين وطن ، فقد خلق يتهوفن من طينة لا تنسجم مع طينة البشر ، ومعظم ما ركب في الإنسان إن صح أن معظم ما ركب فيه من عناصر الشر . موسيقى يتهوفن هي لسانه والجنان . كان في حماسه يرسل النغمة إلى كل ناحية ، ثم يتبعها ويتعقبها ويسترجعها في لفحة ، ثم إذا هي تولى وتختفي في غمرة من الانفعالات المختلفة ، فلا يزال وراءها حتى يقنصها من جديد ، في شغف جديد ، فلا يتخلى بعدئذ عنها ، بل يضاعفها في فرح داهم ، ويوجهها تويجاً شاملاً ويظفر منها بالفكرة الموسيقية الأولى ، ويبني عليها السيمفوني .

هكذا قال يتهوفن أو زعموا أنه قال ، فإذا ماسوا ما معزوفة كاملة كانت « سبيل الخواص إلى الحياة الروحية ، والمدخل الروحي الوحيد إلى دنيا من العلم أسمى من عوالمه . والموسيقى تحيط بالإنسان ويعجز الإنسان عن أن يحيط بها . » رآته بيتينا برنتانو Bettina Brentano الكاتبة الرومانسية الشهيرة وصديقة جيته ، رأت هذا الذهن الجبار يقود فرقته ، فلم تر « لأمبراطور أو ملك مثل شعور يتهوفن بسلطانه ، ومثل جماع القوة الصادرة عنه ، فقد كان يقف راسخ التصميم ، تطالع كمال معزوفته في حر كاته وملاحمه ، فلا سبيل لخطأ إلى شيء من

تأليفه ، ولا لسوء الفهم ، فكل شئ يؤدي بفضل حضور ذهنه العجيب
أ كمل أداء . »

وجلس جيته في نهار عيد من أعياد ميلاده وحده في ركن مظلم من قاعة
في بيته ، جلس يستمع قبل الظهر إلى فنان يعزف له على البيان قطعاً مما لحن
الملحنون العظام ، عصراً عصراً ، فلما جاء دور ييتھوفن أبي أن يسمع له شيئاً ،
فاستكبرها الفنان ولم يحفل بمعارضته ؛ وعزف له القطعة الأولى من سيمفوني
C-moll فأثرت فيه تأثيراً بالغاً . وفرغ الفنان من العزف ، ونهضا إلى المائدة ،
وجيته لا يفتأ من تأثره يقول : « هذا عظيم جداً ! هذا مذهل حقاً ! ألا إنه
ليعروني الخوف من أن يندك على البيت دكا ! »

فما هي هذه الموسيقى الرائعة المروعة التي عرا الخوف منها شيخ الشعراء
الهادئ الرصين ؟ وما هي العوامل التي تخللتها ، وقررتها ، وكانت علماً عليها ؟
وكيف كانت هذه الموسيقى في مبدئها هنيئة حنونا ، فعاصفة متدفقة ، فلهمة ،
فمجلوة ، مجردة ، أثرية ، زاهدة ؟ وكيف هي أحياناً جبهة ، مرعبة ، فكأنها
فولاذ يفل فولاذ ، وكأنها شيطان يجالذ الشيطان ؟

نفس ييتھوفن ! فنفسه هي هذا كله ، وموسيقاه كلها تعبير عما دار في نفسه ،
ومرآة لما اختلج في صدره واعتلج وجاش . وقد عرف ييتھوفن الحب ، وكان
يستلهم مصدرين فياضين هما الشقاء والسما . وكان بهذا تقياً نقياً ، عزف عن
مشاكل العشق ، فموسيقاه تتنفس في الحب سمو خلقياً ، وتبث حينئذ علواً .

كان حبه طاهراً ، هيباً ، مكبوتاً ، وكان مكيناً مشبوباً ، وكان نجماً هادياً
ونبعاً متفجراً . و « السَّنَاتَا المَقْمَرَة » ، التي لحنها في فتوته ، تمثل لهذا الحب ،

وقصة لهذه النفس حاملة مترسلة حزينة ، مرغية مزبدة منفعة ، تشيع فيها كآبة لا تعرف العزاء ، ولا يواتيها الرجاء .

كافت نفسه تشجر بشعورين نحو امرأتين ، إحداهما صنعة الفن ، والأخرى من صنع الله ، وانتصرت الحبيبة الخالدة ، فعاهدته على الوفاء والبقاء ، فلم تزوج بل وهبت نفسها للسماء ، واندمج العروسان في شخص واحد ، لأنه لا مناص منهما في فنه متحدتين متفانيتين .

وقد كان يتهوفن إلى قبيل الثلاثين ، وقبيل الصمم ، تشع من موسيقاه هناة المرح البريء على قتام الحياة ، فلما جاوز الثلاثين ، واستبد به الصمم ، ضرب حول هذا المرح نطاقاً ، وصفي الحساب مع ماضيه ، وانطلق إلى أجواء نائية تريد أن تكشف ، وانفرد بمأساته فجالد من أجلها القدر وكاد أن يكفر ، لكنه خرج من جلاده ثابت الجنان ، قوى الإيمان يمجّد الديان . ومن كان يعيش على هدى الفضيلة لا يجالد القدر عبثاً ، ولو باء في نظر الناس بالخسران .

فقد حانت الساعة التي أدرك فيها المعلم أن في هذا التصرف الذي جرى به القدر ولم يجد له معنى — أن في هذا التصرف معنى أسمى مما ظن ، فإنه يتوجه به وجهة أخرى ، وتتحول به المأساة تحولاً جديداً ، فما خاله لعنة يضحي بركة ، وما بذل فيه وضحي وتألم يبيت بهذا البذل أغلى وأعظم . وقد كان ساخطاً يتحدى الأقدار ، وكانت نفسه حالكة كالحلة ، فتجنب واحتجب ، لكنه أكمل في العزلة ذهنيته ، وشق الطريق إلى أعوص الفلسفات ، واهتدى إلى رحمة الله .

يريد هذا كله أن يكون موسيقى تنفجر بها نفسه ، فقد كان « القدر يطرق الباب . . . » وكان المعلم يستأذن على الموت حين كتب وصيته هيلجنشتات في الثانية والثلاثين . كان الدق المتواصل ، والعفريت النازل بأذنيه ، والتصدع الملم

بنفسه ، والروح التي اهتمصرتها المأساة ، ثم فضل الله الذي آتاه بالرضى والاستسلام
لاتنى جميعها عن شغله ، لأنها تريد أن تدخل دنيا الأنعام ، بعد إذ ضاقت بها
دنيا الآلام ، فكانت أغنية الحياة الكاملة التي سمع جيته مطلعها في السيمفونية
الخامسة فعراه الخوف ، وخال البيت يندك عليه دكا .

واتجه بعد ذاك إلى ربه وملاذه فوجد الفرج في الدين ، وكأما وجد فيه
فيض اللانهائية ، فنهل منه نهلة مما وراء المادة فأغنته كل الغناء في مواصلة البناء ،
وأخرج صلاة C-Dur

* * *

وريفيته Pastorale ! نهض لها المعلم يوما من نومه ولما تكبد السحب
الوردية الأولى تظهر في سماء البكور ، نهض وخرج ، وقبل أن يخرج صب الماء
على جسمه كعادته صبا ، وجرى الماء على الأرض كألوفه هدرًا ، وكان يصاحب
هذه الضوضاء بقدميه وطئًا ، وبصوته غناء كالعواء . خرج بعد أن أيقظ أهل
البيت يحمل رايته : قلمه الرصاص وكراسته ، فذهب يصعد بهما ربوة ، ويهبط
واديًا ، ويطن كالنحلة نشيطًا . يدخل نفقًا ، ويركب من الربى أعناقًا . ويبلغ
ذرى . ويراه الناس على هذه الحال فيرون فيه رجلهم المعروف ، في المظهر المألوف
وغير المألوف . وقد كان ماقبسه في هذه الجولات على هذا المنوال يؤلف صورة
وأشخاصًا في سيمفونيته الريفية أو الباستورال .

لأنحاول أن نصف لك موسيقى « الريفية » فهذا شيء لا يغنى فيه الوصف
غناء السماع . ففيها فكاهته الخشنة . وفيها غرام القرويين بالموسيقى النحاسية .
وفيها نشاز الزمارة وهذر المزمار . وفيها رقص رقيق على نغمات الفالس لا يلبث

أن يتحول إلى وطء شديد للأرض بالأقدام ، وهتاف تتفق منه الرثتان ، والفرع الذى يلب بعد ذلك إلى النفوس من دنو العاصفة ، والعاصفة التى تهب ، والرعد القاصف ، والبرق الخاطف ، واختلاط الأصوات ، وتخلل الضربات ، وأخذ الضجة فى الاستقرار ، والهبوب فى السكون ، والهدوء فى الشمول ، وإفراخ الروع وحلول الصفو ، والتوجه إلى الله بالشكر ، والتأمل فى صنيع الخلاق !!

صورة أخاذة هزازة . ليس ما يسمع فيها محاكاة ظاهرة للأصوات ، بل تصويراً نفسياً ، وفناً فى التعبير عن المشاعر والإحساس بحالات الانبساط والانقباض فى حياة الطبيعة وحياة الريف !
والمعلم يحب الطبيعة ويهنأ بها . وهذا الحب وهذا الهناء يتبديان فى معزوفته ويتجليان .

* * *

ويتجد بيتهوفن البطولة والحرية . قيل له أو لمح على الأصح إلى أن بو نابرت وكان إذ ذاك قنصلاً ، خليق أن بمجد فى ألحانه . فصادف الإيجاء هوى فى نفسه وبو نابرت قد سحر جيته فلم لا يسحر بيتهوفن ! ونترك أن يتجد وطفى صميم غازى بلاده ، ومذل شعبه ، فلهذا حديث لاحق عن بو اعث الفنان . لكن بيتهوفن يضع سيمفونيته فى سكون الريف ويتوجهها باسم بو نابرت ويمررها بتوقيعه .
ويعلم البوق ظهور البطل . وتعزف الموسيقى عزفا عاصفا يعلن عزمه الذى لا يهين . وينشب صراع رهيب يتمثل فى التفرز الهائل المنبعث من ضربات موسيقية قاسية : ثم تخور قوى الجبار فتنتابه التخيلات وتستغرقه التأملات والأحلام . ثم يتنبه على صوت البوق ويستأنف النضال .

والبطل هنا يموت . فترى فى أناشيد الحداد صورته رائعة جليلة ، صاعدة

إلى طباق الأبدية ، وتعزف الموسيقى « مارشا » مهيباً وئيداً ، وتقرع الطبول وتلعلع الأبواق ، ويدانيك عن كذب وشهيق يتلاشى مع توقيع « المارش » رويداً رويداً ، وتتخلله التنهيدات ، ثم يسود صمت رهيب ، فالأرض الآن خاوية بعد أوبة البطل إلى دار الخلود .

* * *

يطول بنا الكلام إذا نحن حاولنا أن نتقصى موسيقى يتهوفن ويضيق المقام ، وعلله من الأنسب أن نجترىء بهذا القدر ، وأن نختمه بكلمة للشاعر الرومانى هوفمان ، الذى كتب عن سيمفونى المعلم وموسيقاه ما تعز فيه المدافاة : « تفتح لنا موسيقى يتهوفن رهبوت الهول والغور ، فتشع على هذا الرهبوت ساطعة باهرة ، تكشف عن أطياف هائلة تغدو وتروح ، وتفضح أشباحاً مفرزة باطشة ، لكنها لا تذهب بتلك اللوعة المنبعثة من الحنين الفياض الذى تخبو فيه كل لذة مشبوبة صاحبة وتبيد . وفى هذه اللوعة التى تلتهم الحب والرجاء والمسرة ولا تفنيها ، والتى تفجر الصدور بجماع الأصوات الكاملة المعبرة عن كافة الانفعالات ، فى هذه اللوعة وهذا الألم نعيش على مرأى من الأشباح جدمغبتين « إن موسيقى يتهوفن تحرك الخوف والرعدة والرعب والألم ، وتوقظ ذلك الحنين اللانهاى الذى هو لب الرومانتيك ، فهو بذلك ملحن رومانتي صميم » .

سلوك

« قد صرت من أنت ببولدك وبالصدقة . أما أنا فصيرني من أنا نفسي وحدها .
إن في الدنيا أمراء عديدين ، يعدون بالآلاف . أما يتهوفن منه في العالم
فرد واحد »

تعاضل ممزوج بالتمرد ، وتعال على كل رفيع المقام . فإلى جانب عبقرية
يتهوفن النيرة ظلال من عبوس وتآب وكبرياء . والضوء بلا ظل لا يظهر صورة
وظلاله من ثم ترسم ظاهرة خلقه ، وتعمقها ، وتزيد في بروز ما يمكن فيه من
طيبة إنسانية وجمال نفسي . فهو ينفر من الأمير ليخونفسكي ، لأنه وعد رهطاً
من ضباط الثورة وجيش بونايرت النازل في فينا — أن يعزف لهم يتهوفن .
والعلم لا يعزف إلا إذا شاء هو لا الأمير ولا الجيش المحتل ، فهو يرفض العزف .
ويداعبه الأمير بلهجة الأمر المتوعد ، فيغادر يتهوفن القصر في ليل مطير سائراً
على قدميه ، بعد أن يترك للأمير كلمته الخالدة : « قد صرت من أنت ببولدك
وبالصدقة ، أما أنا فصيرني من أنا نفسي وحدها ... »
والأمير مع هذا راعيه ، وصاحب فضل عليه .

ويتهوفن الذي أهـدى سيمفونيته إلى بونايرت ، وهو قنصل ، تقديرًا
لعبقريته ، وبطولته ، قد مزق الصفحة التي تحمل الإهداء حين منى إليه ، أن
القنصل نادى بنفسه امبراطوراً . فقد انفجر وصاح بناقل الخبر : « أهذا أيضاً
كسائر الناس ! »

وبين إهداء يتهوفن سيمفونيته لبونايرت ومحوه اسمه من عليها مرحلة تاريخية للجندى ، وضائقة اجتماعية للفنان ، فقد سمع به بعض معاصريه لتكريته قاهر بلاده ومعرفها بالتراب ، وجفاء البلاط النمساوى ، وفترت مودة النبلاء له ورعايتهم إياه .

لكن يتهوفن لم يحفل بهذا كله قدر احتفاله بياسته على تكريم نابليون ، ثم على أسفه لهذا التكريم . فقد كان يتهوفن محباً للحرية التى تغنى بها نابليون ، وللنظام الذى وضع به البطل حداً لطغيان الدهماء ، فلما وجده طاغياً محاً اسمه من سيمفونيته ، إذ الشخصية عنده قيمة وأخلاق لا قوة وسلطان . والطاغية فى رأيه ليس بذى قيمة ، ولا ذا أخلاق ، فهو يبطش بالحرية الفاضلة وبالضمير ، ويبطش بحرية الفن ليشده إلى مركبة الظفر والانتصار .

ومن صفات يتهوفن البارزة اعتداده الشديد بنفسه ، فهو لا يعرف عظمة أكبر من عظمتة ، ولا أرسقراطية موروثة تدانى أرسقراطية فنه ، لكنه أكبر جيته لعبقريته ، وسعى إلى تعرف شخصه بعد إذ أعجب بآثاره ، وترجم إلى الفن الموسيقى أشعاره . فلما تعارفا بالذات لم ينسجما ، لأن لكل عبقرية الفذة ، ومسلكه الخاص ، وقد بجل جيته الأمانة وخدمها ، ولم ينكر على قيصر ماله ، وأعطى كل ذى حق فى الاحترام حقه ، لكن يتهوفن أبجل جيته ، وأبى الاحترام على قيصر والأمراء .

أقبلت إمبراطورة النمسا يوما ومعها أمراء البيت المالك على جيته ويتهوفن يسيران ، يتأبط أحدهما ذراع الآخر فقال يتهوفن لجيته : أبق ممسكا بذراعى ، فعليهم لا علينا إفساح الطريق ! فلم يعجب هذا الرأى جيته ، وخلص ذراعه ، وتنحى جانبا رافعا قبعته . أما يتهوفن فمضى قدما لا يلوى على شىء ، وشق

طريقه بين الأمراء شابكايديه وراء ظهره . فأفسح له الأمراء الطريق على جانبيه ، وحيوا المعلم أجمل تحية ، فلم يردّها لهم إلا حركة يسيرة من قبعتة . ووقف بعيداً ينتظر جيته ، ليراه ينحنى للامبراطورة والأمراء انحناء شديداً .

قال جيته : « تعرفت ييتيوفن في تبلتز Teplitz فأدهشتني موهبته ، ولم أر لفنان مثل تركزه وهمتته وإخلاصه ، لكنه للأسف شخصية لم تروّض ، ولا جناح عليه إذا هو أبغض الدنيا ، لكنه لا يجعلها بهذا البغض ممتعة له أولغيره . وهو منع هذا يعذر ، وحالته مما يرثى لها ، فقد جفاه سمعه . وهذا الصمم لعله يضر بالجانب الاجتماعى من كيانه أكثر مما يضر بالجانب الفنى . وقد طبع ييتيوفن على الإيجاز ، وهذه العاهة خليفة أن تضاعف إيجازه . »

وسوء الظن ظاهرة بارزة في خلق ييتيوفن ازدادت مع تزايد الصمم بروزاً ، فهو يسيء الظن بالجميع : بالخدم ، بمديرات بيته ، بأخويه ، بأصدقائه . حتى أولئك الذى هم أكثر حداًباً عليه وإرادة خيره من سائرهم .

حدث أن أحيى حفلة لأشهار ملحنة جديدة ، فغشى المكان خلق كثير حتى غص بهم غصاً ، وفرغ الأستاذ من العزف والقيادة ، فاذا بالمكان يكاد أن يندك من قصف التصفيق وعصف الاستحسان . وييتيوفن الذى يقود فرقته وظهره للجمهور غير شاعر لصممه بهذه الزوبعة ، فلما أدارته إحدى العازفات لهم ألفى القبعات والمناديل يلوح بها فى الهواء فابتسم . وابتسامة ييتيوفن نادرة ، ومن ثم كانت هنيئة مسعدة .

وذهب المعلم إلى بيته ، ووافاه اليه أصدقاؤه بحساب الحفلة وحصته فى ريعها فما كاد أن يطلع عليه حتى خر من هول الصدمة صريعاً . أربعون ريالاً ! أربعون ريالاً هى كل نصيبه من ريع حفلة قل أن كرم فى غيرها مثل ما كرم فيها .

لقد أيقن أنهم سر قوه وفي جملتهم أخوه ، وحق مثله في مثل هذه الظروف أن يظن بالصديق وبالأخ الظنون .

كان يتهوفن مع الناس على سجيته ، لا يتكلف ولا يجامل . فإذا تفتح لأحد قلبه ، أقبل عليه ، وكان معه الكريم المرح ، الذي لأحد لكرمه ومرحه زاوه كارل ماريا ويبر مع اثنين أحدهما تلميذه والآخر ناشر — زاره في مصيفه في بادن ، وكان من قبل هذه الزيارة يتجنبه ، ويتحاشى جهده أن يلقاه ، لسلطة لسانه واستخفافه بموسيقاه . فلقيتهم المعلم بستره البيت الفضفاضة البالية ، وما إن لمح كارل ماريا ويبر بينهم حتى هرع اليه محيياً ، وعانقه وقبله ، واهتصر منه قواماً رشيقاً ، واعتصر ستره أنيقة . ثم عمد إلى مجسّداته (نوتاته) فأطارها من فوق الأريكة ليخليها لضيوفه . ثم بدل ملابسه أمامهم غير مستشعر حرجاً ولا خجلاً . وضيّفهم في تلك الليلة في مطعم ، فكان يخدم كارل ماريا ويبر بعناية تبرز عناية السيدات ، وأولاه بهذا الصنيع — على قول الضيف — رفعة ، أن كان خادمه ومضيفه هذا الدهن العظيم !

كان يتهوفن يقبل وينفر دون أن يعلم لأقباله أو نفوره باعثاً غير نفسه ، فهو لا يعرف عرفاً أو تقليداً ، ولا يوقر ما تواضع الناس عليه من آداب . وإنه ليكون في ذلك كله الرجل الشريف الذي لا ترتفع إلى سموه الخلق شبهة ، ولا يحوم حول نفسه النقية ظل من شك .

كتب مرة إلى صديقة له هي زوجة صديق ، يدعوها إلى نزهة وحدها في جو رائق وطبيعة زاهية . وصدمت الزوجة هذه الدعوة ، واستاء لها الزوج ، على ما للزوجة الأوربية من حرية ، وما عند الزوج الأوربي من تسامح في حدود

العرف ، ويتهوفن لا يعرف حداً لحريته مع الناس ، فلم يرَ في دعوته ما يوجب لوماً ، وهو الرجل الفاضل الذى لم يقرب امرأة بريئة أو ظل من ريبة . لكنه لم يكن مع ذلك مستهتراً ، ولم يكن فى حريته مكابراً . فهو سريع الاعتذار إذا تبين سوء الفهم ، لا يهيمه أن يستبقى حسن ظن الناس به بقدر ما يهيمه أن لا يساء فهمه . وكَم من تلميذة له وجد الهناء بقربها لأنها تلهيه ، وكَم من أنثى تمنى لو ينفق معها بقية عمره ، لأنها توحى إليه فهو يستلهم الحسن إبداعاً ، كما يستمد من الزهرة متعة للحواس ، لا يفتنه الحسن ولا يقطف الزهرة .

وقد اعتذر إلى الصديقة عن جرأته بأنه يكون أحياناً « قليل الأدب إلى حد كبير » ، لكنه مع جميع أصدقائه « طبعى على السليقة يكره التصنع » ، وأنه « مع مزيد الأسف أن يتبين الانكار لأبرار المشاعر وأنقاها » ، وأنه « مع ما تبدى السيدة نحوه من رقة والتفات لم يدر قط بخلده أن يفسر بغير الصداقة ما يلقاه ، ولو قام بنفسها أن تلتطفها معه قد يدخل فى روعه أنها تبيل إليه لكان فى رأيها غراً سخيفاً » .

لم يكن يتهوفن يتقيد بمواعيد . نزل مرة ضيفاً على الأمير ليخنوفسكى فى قصره ، فكان يتركه ينتظره على المائدة طويلاً . ولما رأى يتهوفن أن فى ضبط المواعيد حداً من حريته وتضييقاً عليه ، طابت نفسه بمبارحة القصر على شدة عوزه إلى مثل هذه الرعاية .

وسأله أمير من رجال الكنيسة ملحنة ، فكان يرجئه ، فلما عيل صبر الأمير ، وطال استبطاؤه بعث يستنجز الفنان وعده ، فكان جواب المعلم : حتى تصبح باباً .

وللمعلم العذر في الإبطاء وخلف المواعيد ، فإن عروس الفن أو شيطانه هو الذى يُنظّم مواعيده أو يشيع فيها الفوضى ، وقد يصحبه طيلة النهار وهزيعاً من الليل سائراً على قدميه ، عارى الرأس ، خاوى البطن ، يصعد بصره فيما حوله ، ويصوبه ، ويكتب فى كراسته ، يتساق وعراً أو يستلقى على ظهره تحت شجرة يحرق فى السماء طويلاً .

قضى مرة على هذه الحال نهائياً بأكله ، فلما أقبل المساء كان قد خرج من مدينة بادن إلى إحدى ضواحيها ثانياً كى قيصره ، حاملاً سترته على كتفه معلقة فى طرف عصاه ، ضاغطاً قبعته تحت إبطه . فلما اقترب من منازل الضاحية طفق يطلع على داخلها من خلال النوافذ ، حتى التقى به شرطى فساقه إلى المخفر غير عابىء باحتجازه ، فأين يتهوون من هذا الصعلوك .

وثار المعلم فى المخفر ، وأوقف له الضابط من نومه بعد منتصف الليل ، وجيء بمن يثبت فعرفه ، وخف به إلى منزله . وفى صبيحة اليوم التالى توجه إليه محافظ البلدة معتذراً ، وأركبه مركبة البلدية الرسمية إلى مصيفه محفوفاً بمظاهر التجلة .

لما اشتد الصمم على يتهوون تعذر عليه مسابقة فرقته فى العزف ، فكان يقف أستاذ بعينه من خلفه ، تأثر الفرقة بإشارته دون إشارة المعلم ، إذ كثيراً ما كان ينقطع بينه وبين فرقته حبل الاتصال حين يعزف على البيان . فقد كان ينهال عليه عزفاً أو ضرباً تنقطع منه أوتاره ولا يكون بينه وبين التحطيم إلا القليل . ويتهوون حين يعزف على البيان ينحنى فوقه ويكاد يختفى تحت درجه ، فإذا أخذ فى عزف الكريستندو^(١) رفع رأسه رويداً رويداً فإذا دخل فى «الفورت»

(١) التدرج فى قوة العزف ورفع الصوت .

وثب عاليا ، وقد كانت عضلاته فى أثناء العزف تقفز ، وعروقه تبرز ، وفمه يرتعش ، وعينه تتقلب تقلبا مفرعا ، فكأنه ساحر أو مستحضر أرواح .

لم يتزوج يتهوثن ولم يكن له ولد قط . لكنه عرف الأبوة المسرفة الشديدة الحنو كما لم يعرفها أحد ، وخبرها مع ابن أخيه ، كارل . كفله طفلا فى التاسعة شديد العوز إلى من يتعهد به بعد موت أبيه ، وأضفى عليه من رعايته ، وعنايته ، وحنوه البالغ ، ما كان الطفل حقيقا أن يحفظ له جميله . لكن الطفل كان عاقا فلم تثمر فيه تربية أو معروف ، وكان الوحيد من بين خلق الله جميعا الذى استطاع أن يصرف المعلم عن فنه . فقد كان كارل فتى متلافا ، مقامرا ، منصرفا عن الدرس إلى النساء يقترض المال بلا حساب . وقد تحالف الفتى والمرضى على هدم الفنان ، وكان سببا من بين الأسباب التى أفضت إلى موته بنا نكبه به من أسى وعلة ويأس .

كان مقدار بره بهذا العم أن تركه فريسة الحمى مصابا بالتهاب رئوى حاد ، دون أن يعنى العناية الكافية باستحضار الطبيب وقد أنفذه فى طلبه . وكان ما فعله أن ذهب إلى مقهى يلعب فيه البليار مع بعض الرفاق وعهد إلى ساقى المقهى بهمة استدعاء الطبيب .

وحين كان المعلم فى مرضه الأخير طريح الفراش لحق الفتى بفرقة العسكرية دون أن يحفل بتوديعه الوداع الأخير . والعم مع هذا يأبى فى مرضه هذا أن يمس أسهما ادخرها لفتاه ، ويعتمد على عطف مريديه .

وقد ودع الفنان العظيم هذا العالم فى السادس والعشرين من شهر مارس

١٨٢٧ في الساعة والخمسين . ودّعه وبضعة من معارفه في بيت صديق لهم
يتباسطون ، فلما جاوزت الساعة الخامسة مساء هبت زوبعة شديدة ، وقصف
الرعد ، وبرق البرق ، وعصفت بالجو عاصفة ثلجية هوجاء . وبعد ساعات جاء
ضيوف جدد يحملون نبأ لحاق يتيهوفن بالدار الأخرى في الساعة الخامسة والدقيقة
الخامسة والأربعين .

بسماء

يوهناى . إنجل

فى هذا الكتاب قصة للكاتب الألمانى الشهير يوحنا يعقوب إنجل Engel هى :
« حلم غاليليو » . قدمنا لها بكلمة عن الكاتب لا نرى ندحة عن الإشارة إليها لأن هذه
القصة قصته أيضا . ولعل من قرأ « حلم غاليليو » قد لاحظ صدق نظر الكاتب ودقة تصويره ،
وتساند نثره القوى ، وأسلوبه الواضح الشفاف . وفى قصته هذه لطافة ، وفكاهة ،
وحكمة ، هى بعض مسه الرقيق لنواحي الحياة . وقد كان إنجل من خيرة الروائيين ، على
الثقافة ، سامى المرتبة ، مرييا للامراء ؛ وكان عضواً فى أكاديمية برلين ، ومديرا أول
للمسرح الأهلئ ، وأستاذا مشغلا بالفلسفة ، ومحصلا للغات . وقد ولد فى أوامط القرن
الثامن عشر ومات فى مستهل التاسع عشر فى الحادية والستين .

حكيم قاص

لأنجل

ولد السيد توبياس في مدينة متواضعة ، وسط بين المدن ، لاهى بالكبيرة ولا بالصغيرة ، ولما شب واستطاع التنقل لم يجاوزها إلى أبعد من القرى المجاورة لها ؛ لكنه خبر الدنيا أكثر مما خبرها غير واحد ممن بددوا ميراثهم في باريس أو نابولي . وكثيرا ما راقه أن يقص على معارفه قصصا صغيرة مختلفة مما خبر في الحياة . وهى قصص ليس فيها من الخيال والشعر شيء كثير ، ولكن ما فات من خيالها وشعرها ، يعوضه واقعها ويزيد . والغريب المميز في هذه القصص هو أن كل قصة منها تجمع بين دفتيها أقصوصتين متزاملتين ، وإليك المثال :

في ذات يوم جاء السيد فيت أحد معارفه ، ويدعى السيد تيل وجاءه يطريه ، ويثنى على حصافته وعقله . قهّل الشيخ « فت » ، وكأنا أعجبه هذا الثناء من « تيل » الشاب ، فسأله قائلا . أعاقل أنا حقا ؟

— إن الدنيا بأسرها تتحدث بذلك ياسيد « فت » ولوددت أن يكون لى مثل عقلك .

أها ! إذا كانت هذه طمبتك فما أسهل ما تطلب — القى بالك ما استطعت إلى ما يفعل الممررون !

— ماذا ياسيد « فت » ؟ ما يفعل الممررون ؟

— أجل ياسيد « تيل » ! وافعل عندئذ غير ما يفعلون

— مثال ذلك ؟

— مثال ذلك ياسيد « تِل » : في أيام الصبا والشباب ، كان يعيش هنا في هذه المدينة رياضيّ يدعى « فايت » . وكان قزّما ، هزّيلا ، فظا ، لا ينقطع له طواف في الطرقات ، يهمهم وهو سائر ، ولا يكلم أحداً . وأندر من هذا عنده أن ينظر في وجه إنسان ، فقد كان دائماً متجهماً ، منطويا على نفسه ، يتأمل باطنه . فماذا تظن ياسيد « تِل » أن كان الناس يسمونه .
— كيف ؟ — دماغا عميق التفكير .

— بالضبط ! ممرورا ! كانوا يسمونه ممرورا ! فكنت أقول لنفسى ، وقد كرهت لها قبل هذا اللقب : يجب أن لا يحاكي أحد السيد « فايت » ولا يفعل فعله ، فهذا غير جميل . فليدع المرء باطنه لا ينظر فيه ، وليتأمل الناس في وجوههم ، ولا يخشى أن يُسَمَّهم بالحقّة . ثم ما همهمته لنفسه ، والناس موجودون ، يستطيع أن يخاطبهم وأن يتحدث إليهم ! — أليس كذلك ياسيد « تِل » ؟ أولست على حق ؟
— بلا ريب ! بالتأكيد !

— لكننى فى الحق لا أدرى ، لا أدرى على التحقيق — فإن شخصا آخر كان يسير أيضا في الطرقات . وكان اسمه السيد « فيلنك » ، معلم الرقص . كان ينظر إلى كل إنسان ، ويحدّق في وجهه . وكان يتحدث مع كل من له أذن تسمع ، صَغَت أو لم تصنع ، ولا يدع أحداً يفلت من يده . فهل تدري ياسيد تل ما كان الناس يسمون هذا ؟

— رجلا مرحا .

— تقريبا ! كانوا يسمونه أيضا ممرورا ! فعدت الى نفسى أخاطبها : هذا غريب فماذا يجب أن تصنع إذن لتكون في رأى الناس عاقلا ؟ تفعل لا كما يفعل السيد فايت تماما ، ولا كما يفعل السيد فلنك بالضبط ، لا كل ما يفعل هذا ، ولا كل ما يفعل ذاك . فانظر أولا في وجوه الناس كما يفعل أحدهما معلم الرقص ،

ولا تخش في نظرتك لومة لأثم . ثم ارجع إلى نفسك وتأملها كما يفعل الآخر ،
الشيخ الرياضي . خاطب الناس جهراً كما يفعل السيد فلنك ثم فاج نفسك سرا
كما يفعل السيد فايت — أرايت ياسيد تل ؟ هكذا فعلت ؟ وهكذا استحققت
العقل في نظر الناس .

وزاره شاب من التجار يدعى فلاو يندب سوء حظه ، ويشكو الزمان فبداه
الشيخ فت بقوله : ما عليك من بأس !

ثم هزّه وقال : أطلب الحظ ياسيد فلاو ، ولا تن عن طلبه
قال : لقد طالما طلبته فما أجدى الطلب — فالنكبة ما تزال تلى النكبة . وإنه
ليقوم من بنفسى أن أزم بيتى فى المستقبل واستسلم للأقدار .
— كلا ، كلا ! ياسيد فلاو ! فاطلب الحظ كما قلت دائماً ، واعن فى سعيك
بالوضع الذى يكون لوجهك .

— ماذا ؟ وضع وجهى ؟

— أجل ياسيد فلاو ! وضع وجهك . وسأبين لك ذلك — لما بنى جارى
الذى عن يسارى بيته كان الشارع وقتئذ مكتظاً بشتى الأخشاب والحجارة
والحواجز ، فجاء مرة عمدتنا السيد تريك ، وكان يومئذ شاباً متوثباً ، يفيض حمية
فاندفع فى غمرة هذه الأكداس مطوحاً ذراعيه ، مقلصاً قفاه ، يكاد أنفه يطاول
السحاب — ودفعه واحدة يكبو ، فتكسر ساقه ، ويظل يعرج إلى يومنا هذا .
فماذا أقصد بهذا ياعزيزى السيد فلاو ؟

— آه ! الحكمة القديمة ! لا تشمخ بأنفك !

— أرايت ؟ كذلك لا تطأطئ رأسك إلى أسفل مما ينبغى . — فانه لم
يُض على حادث السيد تريك وقت طويل حتى كان رجل آخر يسير فى الطريق .

وكان شاعر المدينة السيد شال . ولا بد أنه كان ينظم قصيدة ، أو يقلب في رأسه بعض هموم بيته ، لأنه كان يتسلل حزيناً ، مطرقاً ، لا يفارق نظره الأرض ، كأنما يود أن يعود إلى التراب . ودفعة واحدة ينقطع جبل ، وينقض « عرق » أمام قدميه كالصاعقة . — فيغمى على الرجل المسكين من الذعر ، ويمرض ويلزمه المرض عدة أسابيع . — أفهل فهمت ياسيد فلاو ما قصدت بوضع الوجه ؟ —
— تعنى أن يكون الوجه في سمته وسطاً بين هذا وذاك ؟

— بلا ريب . فلا يختال المرء ويناجى السحاب ، ولا يخفض بصره حتى يدانى التراب . فإذا أدار المرء عينيه مطمئناً إلى فوق وإلى تحت ، وعن يمينه وعن شماله ، تقدم المرء في مضمار الحياة ، ولم يجد باعثاً لشكوى الشقاء .

* * *

وذات مرة قصد إلى السيد فت شاب من المبتدئين يدعى السيد فياز . وكان يريد منه مبلغاً من المال لمصارفة بسيطة . فاستفتح بقوله : لن يكون لى من هذه الصفقة كبير نفع ، فهذا ما أتوقعه من الآن ، لكنها مضمونة ، وكأنها تندفع إلى يدي . فلا أريد من ثم أن أفلتها .

فلم تعجب هذه النعمة السيد فت ، لكنه سأل : كم تظن أنه يكفيك ياسيد فياز ؟ — آه ! ليس ما أطلب بالكثير . إنه شيء بسيط . مائة ريال أو نحوها .

— إذا لم تزد عن المائة فاني أعطيكمها عن طيب خاطر . — ولكي ترى أنى أريد بك الخير أعطيك فوق المائة الريال شيئاً آخر يعدل بين الأخوان ألف ريال ، فيسعدك أن تسعد به . —

— ولكن كيف يا عزيزي السيد فت ؟ أعطيني فوق المائة الريال شيئاً ؟

— إنه شيء بسيط . أقصوصة فقط . — كان لى في عهد الشباب جار خمار ،

رجل مضحك ، يدعى جريل . هذا الرجل اعتاد عبارة تغلب في فمه على غيرها فكانت سيداً لشقائه .

— وهذه العبارة ! ما هي ؟

— كان إذا سأله أحدهم أحيانا : كيف حالك ياسيد جريل ؟ وماذا دخل جيبك من تجارتك ؟ أجابه بقوله : شيء بسيط ، خمسون ريالاً تزيد أو تنقص . وماذا تفعل لى هذه الخمسون ؟ أو يقول له أحدهم : والآن ياسيد جريل ؟ أضاع عليك في إفلاستك كثير ؟ فيجيب : ماذا ؟ إن ما ضاع لا يستحق الذكر . شيء بسيط . خمسمائة . — كان هذا الرجل ميسور الحال لكن عبارته الوحيدة ، تلك العبارة اللعينة ، جذبتة عن سرجه ، وطوحت به في عرض الطريق .

فكم طلبت يا سيد فيلز ؟

— أنا ؟ — طلبت مائة ريال يا عزيزي السيد فت .

— صحيح ! إن ذا كرتي تخونني أحيانا . — لكنه كان لى جار آخر . إنه السيد توم تاجر الحبوب . وقد بنى هذا بيته كله بعبارة أخرى أو لازمة أخرى ، وأنشأ مع البيت ملحقاته الخلفية وهرباً لغلاله . — فماذا يرى السيد فيلز فى هذا ؟ — بربك ما هذه اللازمة الا ما خبرتنى عنها ؟ ما هي ؟

— كان إذا سئل أحيانا ! كيف حالك ياسيد توم ؟ ماذا ربحت من تجارتك ؟ أجاب : كثيرا ! مالا كثيرا ! ثم يرى الناس كم هو منشرح الصدر ، راضى النفس ، متهلل الوجه حين يردف ذلك بقوله : مائة ريال كاملة . — أوحين يخاطبه أحدهم : ما خطبك ياسيد توم ؟ ما بالك ساخطا ؟ يجيب : لقد خسرت مالا كثيرا خسرت خمسين ريالاً كاملة . — وكان السيد توم قد بدأ تجارته ، وازدهر عيشه فبنى بيته الكبير كله كما قلت ، وأنشأ مع البيت ملحقاته الخلفية وهرباً لغلاله —

والآن ياسيد فيلز : أى اللازمتين تؤثر أن تكون لك .

— وهل يحتاج هذا إلى سؤال ؟ الأخيرة .

— لكن السيد توم لم يكن عندى مع ذلك محقا كل الحق . فقد كان

يستكثر المال أيضا حين يعطى الفقير والمحروم ، وحين يدفع الضرائب . وكان

الأخلق به أن يستقله فى هذه المناسبات ، فيذكره كما ذكره السيد جريل جارى

الآخر . — أما أنا ياسيد فيلز ، وأرانى أقف موقفا وسطا بين هاتين اللازمتين ،

أوهاتين العبارتين ، فقد راعيت كليهما ، ووضعتهما نصب عيني . فأذكرهما حسب

الظروف والمناسبات ، فتارة كالسيد جريل وأخرى كالسيد توم .

— لا . لا ؟ فانى هنا مع السيد توم ، فبيته وهري غلاله يعجباني .

— فأنت إذن تطلب ؟

— شيئا كثيرا ! شيئا كثيرا ، ياعزيزى السيد فت . مائة ريال كاملة .

— أرايت ياسيد فيلز . إنه ليرجى منك . فأنت محق كل الحق . فإذا

شئت الاقتراض من صديق ، وجب أن تتكلم كما تكلم السيد توم . وإذا تقدمت

لمعونة الصديق ، فى ساعة الضيق ، وجب أن تتكلم كما تكلم السيد جريل .

يوسفينوس كرنر

ولد يوسفينوس كرنر Kerner كاتب هذه القصة في أواخر القرن الثامن عشر . فلما كان في الثامنة عشرة كان مقدراً له أن يعمل في صناعة النعوش ، فانتشله صديق شاعر ، بعث به إلى توبنجن حيث درس الطب فصار طبيباً ، ومات في الخامسة والسبعين طبيباً ، وعاش بين ذلك عيشة متضاربة لكنها متمسكة . فقد كان في حياته العامة أغلب ما يكون مرحاً ، جسوراً ، راضياً عن الحياة ، خدناً وصاحباً ، يته متتدي ، ندر أن لم يقصده كاتب أجنبي أو شخص ذو شأن ؛ وداره يجتمع لنوى المواهب الفنية يبذل لهم العون من ذهن ومادة ، لكنه مع ذلك كان يحذوه شوق صوفي إلى الدار الباقية ، وشغل ملح بعالم الأرواح . وقد تولد من هذا التناقض في السكبان غرائب في الشعر ، فالى جانب أغانيه التأبضة حماسية تناسب انسياً ناعماً ، وتملص من عالم الحقائق عميق القرار ، حار أحياناً ؛ وولع بالمهول والمرعب . وخير ما كتب : " ظلال الممثل لو كس " ، وهو سفر عامر بالأغاني ، غنى بالفكاهة البديعة الغذة . وفي قصة اليوم مثال من فكاهته .

حمار عراف

ليونينوس كمر

لم أفعل ذات مساء غير أن خرجت للنزهة مع ماتياس إلى ما يسمى بجبل وار تبرج ، ويبعد نصف ساعة . وكان جل ما يبغيه ماتياس من هذه النزهة أن يعرف الصياد الشهير ناست ، الذى يسكن الحانة القائمة فوق هذا الجبل ويديرها وكان لناست أيل يركبه ويستخدمه فى فنون أخرى ، وأرنب يقرع الطبل ، وحمار عراف .

نخرجنا من الباب المسمى باب سيامر ، فلقينا قرويا ومعه حصان ضخم مشدود إلى عجلة نقل يتجه اتجاها . فلم يكده القروي يلمح ماتياس حتى ناداه بأعلى صوته : ماتياس يابن عمى ! إنه لمن حسن الصدف أن فلتقى هنا .

فعرف ماتياس فيه قريبا من أقاربه الدانين ، وقرويا من أهالى أورتجن ، وسر لهذا اللقاء . لكنه لما أخذ يتحدث إليه عن بغيته من الذهاب إلى وار تبرج وأنه يشد معرفة الصياد ناست وحيواناته ، أظلت جبين ابن العم سحابة ، وعلته تقطعية شديدة ، وانفجر ساخطا يسب الصياد المسكين .

قال : هذا الحصان الجيد ، وإليه قليل من المال قد عدت به من ناست ، وكان ثمرة معرفته ، مافى ذلك شك . لكننى إن أنس فلن أنسى تلك الضربات التى أنزلها على ظهرى ذلك الجحود بنصل حابلة الأيائل ، ولا الشتائم التى كالمها لى فإذا بلغناه فقولاه ، وقولا للناس أجمعين : إن الحيوان الذى حملاه إلى فرانكفورت على أنه فرس بحر أمريكى (سيد قشطة أمريكانى) لم يكن سوى حصان نقل أمرد طاعن فى السن .

فكاد ماتياس يستلقى من الضحك على قفاه ، وقال لابن عمه : ألا إن هذا لشيء عجاب ، فإن أقت عليه الدليل فأني والله لقاصه على الناس جميعاً ، وأخذ به ثأر ما أصاب ظهرك من ضربات .

قال القروى : وكيف لا أستطيع البرهنة عليه . سل جلاد شتيفورت في ناحية أورنجن ! لقد كان الحصان مريضاً فزاولته مسهلاً ، فلم ينفع معه فأعطاه الجلاد جرعة قوية من . . . فاخفى المرض ، لكنه اختفى مع المرض كل شعر الحصان فأنجرد وأملس كالخذاء اللامع ، حتى أهداب العينين ذلت ، وبات ذيله كشعبان البحر . وبيدنا أنا سائر به في مثل هذا الأوان من ربيع العام الفائت يجبر مركبتى في هذه الطريق إذا بى ألقى الصياد ناست ويراه . فجعل يغلولى في مبلغ ما أربحه إن أنا قصدت به إلى سوق فرانكفورت تحت رعايته ، وأراه الناس لقاء جعل معلوم ، على أن أكتم خبره فلا أقول أو يقول إلا أن الحصان من فصيلة نادرة من بلد أجنبي ، وهو الكفيل با يبق . ثم جعل يطاردنى ويلحقنى حتى نزل أدلر ، فجلسنا إلى مائدة هناك وجعل يستقنى ، وكان يجالسنا طالب من هيلبرون يحمل ناست كثيراً من الود ، فاشترك في الحديث ، وجهدى إقناعى بالذهاب مع ناست والحصان إلى فرانكفورت ، وعرضه في سوقها بوصفه فرس بحر أمريكى ، فسوف يقبل الناس على مشاهدته ، فإن نفق هناك لم يعدم من يحشوه ويضمه إلى مجموعة الحيوان النادرة التى يحتفظون بها في متحف الحيوان . واستطرد القروى يقول : فرضيت . وكنا بعد يومين في فرانكفورت ومعى الحصان ، ومع ناست أنواع حيوانه . وامتنى ناست أليه ودار به في الحلقة ينادى أنه جلب إلى أرنبه الطبّال وحمّاره العراف حيوانا نادرا لم تشهد أوروبّا قبل الآن ، ألا وهو فرس بحر أمريكى على قيد الحياة . وأقبل الناس على رؤيته إقبالا

شديداً ، ووعدني ناست بثلت الدخل . لكننا اختلفنا بعد ثلاثة أيام ، فقد بدأ ناست يتبرم بي ، لكنه لا يتبرم بالحصان وإذا ألكز حماره الذي كان رفسني ، جرد حابلة الأيائل من غمدها وألهب بها ظهري علاقة ساخنة . وافترقنا ! وبعث الحصان سيداً محترماً يجوب الأقطار بأسوده وفيكته لقاء مبلغ طيب من المال ، غير كاتم عنه حقيقة وإن كنت تعهدت له بكتان هذه الحقيقة عن غيره عاماً كاملاً على الأقل . وها قد انقضى العام وتحملت من وعدى نكاية بناست .

فقال له ماتياس وقد أطربته قطيعة الاثنين : سأذيع الخبر فاطمن يا ابن عمي العزيز . وودع كلاهما الآخر ، ودرجت بنا المركبة في طريق واينبرج ثم عرجنا على الجبل .

* * *

وإننا لننحدر عن الجبل المزدان بالكرم إذا برهط من السيدات الأنيقات والسادة المهندمين يلقوننا في الطريق ، ونعلم منهم أنه في مثل هذا اليوم من كل أسبوع يدور الحديث والرقص في البهو الفسيح في تلك الدار القائمة في أعلى الجبل فلما دخلنا البهو ألقيناه مكتظاً بالراقصين . وعلى حين غفلة ساد السكون ودخل في حلقة الرقص رجل مديد القامة ، قد لف جسده بغلالة حيثما اتفق ، لكن شملته كانت تسترعى النظر ، وقد غصب رأسه بعصاية من القماش تستر نصفه . وكان الرجل ممروراً كما علمت فيما بعد ، وكان مجهول الأصل والمصير . وكل ما يعلوه الناس من أقواله الخجولة ، أنه كان يشغل منصباً رفيعاً في سالسبرج في سالف الأيام ، وأن الزمان خانته في صداقة الخلان وحب الحسان ، وأنه خرج هائماً على وجهه في الغابات ، فإذا حل الشتاء هبط ليلاً إلى القرى واصطلى .

وهو هنا وههنا يغشى بيت راعي الكنيسة ، ولا يأخذ من أحد مالاً ،

ولا يمد يده ألا لتناول ما يسد الرمق . وهو يتحدث إلى رجال الدين باللاتينية واليونانية ، يعزف على البيان تقاسيم آية في الإبداع . في مشيته ظرف ومهابة ، وفي الهيئة التي تلعبها شملته المهدولة على رأسه وجسده مثل هذا الظرف والجلال . وكثيرا ما يرى حول هامته أكاليل الأزهار . وقد سمل إحدى عينيه غلمان إحدى القرى من قبلي الأدب والحياء ، فكان يسترها بعصابة ملفوفة حول رأسه كالعمامة .

كان يطلب في الغابة أعمق غور في جوف الليل ، فلا يستهويه منه إلا البطن الخاوى ، والموسيقى الرائعة تتناهى إليه من بعيد . فإذا خرج لم تتعرض له الشرطة لأنه لم يكن قد حل الزمن الذي تعتقل فيه الشرطة مثل هؤلاء الأناط .

وكان فوق هذا الجبل مكان للانتظار عبارة عن برج عال فوقه قبة من الصاج مثل الزر العظيم ، يصعد إليه بدرج ، ويدخل إليه من منفذ ، وليس في البرج مأوى ولا سكان . لكن الممرور اتخذ من قبته الشبيهة بالزر العظيم مأوى له . وقد كان يأوى إليه حين استرعت موسيقى الجبل انتباهه ، فدخل البهو في سمته الذي ألفه الناس منه ، فكف الرقصون عن الرقص ، أما هو فاقرب من فتاة لطيفة ترتدى ثوبا أزرق ، ويقال إنه لما حاذها تتم يقول : بلى ، بلى ! لقد كانت ترتدى مثل هذا الثوب ! ثم قدم للفتاة ذراعه يدعوها إلى الرقص فلم تمنع ، فدار معها دورات ظريفة موزونة ، ووقف الناس من حولها ينظرون . وبعد انتهاء الرقص قادها إلى أمها يهمهم بالشكر ، واختفى في البهو كما حضر سريعا ، وعلى غير انتظار .

لوددت أن أتبع الرجل إلى جوف الغابة لولا أن احتجزني ماتياس ، واقتادني إلى غرفة مجاورة للبهو فيها رجل يقول إنه قدم إليه قدحا من الجعة بعد أن سمع

منه حكاية فرس البحر الأمريكى . وقد دفعنى إليه بقوله لى إنه يعرف أبى ، وإنه رجل رضى الخلق ، لاجاجة بى إلى تهيبه . وسرعان ما انضم إلينا الصياد ناست . فهو مدير هذه الحانة ، وقد جاءنا ناست بكتاب حافل بشهادات من من ذوى المقامات الرفيعة ممن أعجبته فنون حيواناته . وطفق يقص علينا من طرائفها أن أَيْلَه ، وكان إذ ذاك يطلب السفاد ، ولا يجرؤ إنسان على الاقتراب منه ، سدد إليه أخيراً قرونه وكان على وشك أن يفتك به ، لولا أن سدد إليه هو نظراته فوقفه وألزمه طاعته ، واعتلى صهوته ، ودار به ، والأرنب يطبل - وهنا قال صديق والدى المزعوم : والحمار يزمر ، وفرس البحر الأمريكى - ثم انطلق مقهقهها وهو يقول : آه ياسيد ناست !

فرجاه ناست أن يمسك عن ذكر هذا الحيوان ، فلم يعد فى قطيعه ولم يعد يملكه ! وابتعد بكتابه ، واختفى من البهو .

وكان السيد الغريب الذى أمسك إذ ذاك ييدى وكان حقاً من معارف والدى - كان الدكتور جميلين الطيب والعالم المعروف فى هيلبرون . وقد كان ما يزال مبتهجاً تشغله قصة ماتياس عن فرس البحر الأمريكى . وعاد ماتياس يقص حكاية ابن عمه ويورد أقواله فى لهجة فكهة أثارت الضحك بين الحضور .

فقال الدكتور جميلين عندئذ : هكذا شأننا دائماً نحن العلماء ، فقد ألقى بلومنباخ محاضرة عن هذا الحيوان ، أعلن فيها على رءوس الأشهاد أن لا غش ولا خداع فى هذه الظاهرة ، بل إن الحيوان فصيلة من فصائل الخيل ، عجبية غاية فى العجب ، لم تعرف قبل الآن . وقد قرأت أخيراً فى صحيفة من صحف برلين أن هذا الحيوان قد بيع بثمان باهظ ، وأن العلماء الطبيعيين يكدون الآن أذهانهم سعياً وراء حقيقته ، وينشئون فيه أغرب البحوث .

وسعى أحد السادة الحضور في طلب ناست حتى عثر عليه وأحضره ، وداعبه مداعبة قوية شديدة الوطأة في شأن فرس البحر الأمريكي . فلم ينكر ناست أمره ، بل أنشأ يقص حكايته كما قصها القروي ابن عم ماتياس وماتياس نفسه ، بخدافيرها تقريباً ، مرتاح البال .

وقال الدكتور : إني أسخر من أجل الفرس الأمريكي بالسادة العلماء . ولهم أن يسخروا من أجله بي فيسخروا من أجلى بأنفسهم ، وشأنهم في هذا شأن الأطباء الذين يروّجون لبعض أدويتهم ، وليس البتة من صلة بين هذه الأدوية والأدواء وسرى هذا القول عن ناست حتى غفر لماتياس حكايته عن فرس البحر الأمريكي ، أولعله لم يعرف أن ماتياس هو الذى قصها على الدكتور جميلين . وقد استصحبنا متودداً إلى قطيعه ، لكنه لم يُرنا الأيل الذى كان عندئذ في أوان السفاد ! لكن أرنبه طبل لنا ، وأطلق مدفعاً ، وهرش حماره حين سأله ماتياس كم سنة يعيش ، هرش بحافره هرشة واحدة كأنما يقول له : ستعيش سنة واحدة فقط كلها قلق وهم . فهل كان هذا تدبيراً مقصوداً من ناست ، أو أن الحمار — وهو عراف — عَلم أن ماتياس قريب لذلك القروي الذى لكزه في فرانكفورت ، فأحب أن ينتقم منه بالتنبؤ له بأن الباقي من عمره سنة واحدة ؟ لاحيلة لنا في هذه المسألة ولا بد من تركها بلا جواب .

هافريسمه بيتر شتورتس

ولد ه . ب . شتورتس في دار مشنات بألمانيا في ١٦ فبراير ١٧٣٦ ؛ وتخرج من كلية الحقوق في ألمانيا لبقا ، مرعان ما اتخذ الوكيل الدانيمركي الكونت برنشتورف كاتب سر له ، ثم عين بعد ذلك سكرتيرا لمفوضية في السلك الدانيمركي . ومات في مدينة برمين Bremen في الثالثة والاربعين من عمره .

حياة قصيرة لم يلبث صاحبها أن ودعها لينسى بعد حين ، وليسمى إلى أده وإنتاجه بهذا النسيان من نسوه . أما هو فكان من أبرع كتاب القرن الثامن عشر بأسره ، نائرا رائعا فذا في نثره . امتاز أسلوبه باللباقة والرشاقة والجلال ، وكان من الناقين على ذرف الدموع في ضوء القمر ، وتهريج الشهوات التشنجية الجامحة . والساخرين من الشعراء الذين يرفعون لواء الشعر على أقاصيص القتل والعفاريث .

والقصة التي ترجمها له حافلة بضروب البيان . ومن ثم ضربنا صفحا عن كل ما يفقد قيمته بالنقل .

رحلة الديستر

لرالف ريسه ستورنسي

قال لي السيد سيمون أخيراً وهو يحادثني : إن بغيتي أن أظل في بيتي سيداً في كل شيء ، سيداً لا ينازع . وليس هذا مني صلفاً يا عزيزي ستورنش ، بل هذا مبدأي . — صدقني إذا قلت لك إن خير النساء لتقع فريسة العجيب من الأهواء ويتملكها مس الوسوس والمخارق إذا أنت لم ترضها على الطاعة . قلت : أتمكن هذا يا سيد سيمون ؟

قال : لكل شيء طريقته يا عزيزي ستورنش . فإذا أنت لم تشته شيئاً أو تعترف عنه إلا ولعزوفك واشتهائك مبرر من سبب وجيه — وكثيراً ما هي الأسباب الوجيية كما تعلم — لم تلبث المرأة أن تتعلم كيف تضع إرادة زوجها فوق كل إرادة ، وكيف تسلس له القياد .

فسكت مأخوذاً ، أن كانت شجاعة السيد سيمون في منزله موضع نظر ، وأن كان أدنى من هذه الشجاعة إلى أذهان الناس أن امرأته تحسن قياده ، كمالو كان مصفداً في الأغلال لا مقوداً بخيط من حرير .

غلي أتى قلت في نفسي : إنها الجريمة أن يعبث المرء بهذا الرضا — رضا السيد سيمون عن نفسه — وأن يبدد انخداعه في قوته . ومع ذلك فقد بدر مني قولي : إنه ليدخل في وهم الناس أن ذا الخطوة عند السلطان يستلب إرادة السلطان ويبيعه إرادته ، وأن كل امرأة خلقت سائسة وقائدة .

فصاح السيد سيمون : هراء ! هذا رأى من لم يسبر غور المرأة ويحس مخابئها
أما من علم التوائت الخديعة فيها ، وخبرتيه غرورها ، فهذا الذى ينصت حيث
ينبغى الانصات ، ويسمع عندئذ ديب النمل .

قلت : ياسيد سيمون ! ياعزيزى السيد سيمون ! ماتزال هنالك التوائت
تخفى على الرجل الفطين .

ومضت أيام وذهبت أسأل عن صديقى سيمون ، فلقيت زوجه وحدها
بالبيت . وهى امرأة بشوش أنيسة ، لاتعرف التصنع فى حديث أو سلوك . فاذا
كانت مع ذلك تتصنع فلا بد أن يكون التصنع فى طبيعة النساء — قالت وهى
تلقانى : جو بديع ! ووقت هو أفضل الأوقات لرحلة إلى هالبرونن فانه ليقال
إن تلك البقعة آية فى الجمال . ألك فى مصاحبتنا ؟

قلت : إذا أمكن ذلك غداً رافقتكم بكل سرور .

قالت : غداً ؟ حسناً ! فليكن ماشئت ، فكلما بكرنا كان ذلك أصلح لنا ،
فالجو قد يتغير .

قلت : وهل يرضى السيد سيمون أيضاً عن هذه الرحلة ؟

قالت وهى تبسم : إن زوجى كما تعلم رجل طيب ، لا ينعنى تسلية بريئة ،
فاستعد أنت ! وسنركب فى الساعة السادسة تماماً .

هنا نوديت السيدة فى بعض الشؤون فجلست أنا فى مكتب صديقى .

وانتضى نصف ساعة فاذا السيد سيمون يدخل ردهة البيت مع زوجه ولهما
حوار بادى النشاط . وإذ كنت سمعت كلمة ديستر فقد سمحت لنفسى باستراق
السمع لأستطلع ما يكون فى الرحلة من أمر . وهاك أهم ما دار بينهما من حديث :

الزوجة : أنت محق يا عزيزى ! إنها مضجرة ندفع ثمنها غالياً . وتلك السيارة الجرداء ستسكع بنا فى الطريق ، والأكل والشرب كلاهما فى طريقها غير سائغ . وليس فى هذا سوى التعب والجهد ، ثم لاشئ آخر الأمر سوى الشجر . والشجر هنا موفور نستطيع رؤيته ، لكن السيد شتورس حريص على هذه الرحلة كثيراً الرج : إني لا أبخل على أصدقائى بخدمة يطلبونها ، فقط يجب أن لا يطالبونى بأن أضجر نفسى من أجلهم . وخروجنا فى هذه الرحلة لا يمكن أن يتم مع ذلك غداً ، فعندى أعمال ملحة . فوق أنى أزهد فى نزهة الجماعة . إن المرء لينشد فيها السرور ويسعى وراءه ، ثم لا يجده آخر الأمر إلا حين يفرغ منها . فهنا يصبح كلنا متعباً : آه ما أشد سرورى بعودتى إلى يدي ! فقيم إذاً كان خروجك من البيت أيتها السيدات ؟

الزوجة : صدقت ، فهذا رأى أيضاً . ولتضرب عنها صفحاً ! والسيد شتورس إذا شاء أن يبحث عن جماعة أخرى . ولكن قف ! إن هذا الجو البديع خالق أن ينفع به فى خير من هذا . غداً أستطيع أن أفعل ما لبثت دهرأ أنشده . هذه الحجرة ، حجرة المكتب أريد أن تغسل وتحك وتنظف مرة فى العمر . كل شئ فيها يجب أن يقلب ليحل بها نظام معقول . وفى هذه الأيام يحف كل شئ سريعاً فلن يطول بك أمرها ، فتخلص دفعة واحدة من هذه القمامة التى تغشى النفس .

الزوج : دورا ! بربك لا ! فهذا أيضاً مستحيل . إن هذه البلبلة وهذا الضجيج اللذين تنوين ، يؤذيانى كما تعلمين . فدعى هذا ليوم آخر . فغداً يجب أن أعمل فى حجرة المكتب .

الزوجة . أفلا تستطيع يا زوجى العزيز أن تجلس يومين اثنين فى غرفة البواب ؟

إني ليتولاني الخجل كلما دخل مكتبك رجل غريب . إن هذا كله تلقى تبعته على المرأة في البيت . فلنته من هذا الأمر الآن مادام أنه لا بد من عمله في يوم من الأيام .

الزوج : حقاً ، وإنه لينبغي عمله . ولكن فقط حين لا أكون بالمنزل .
الزوجة : بهذا الاعتذار لبثت تحجزني أشهراً إلى الآن . لا تغضب يا زوجي العزيز ! إن هذه الفوضى تزدى بنا معاً . أفيوأثم صحتك أو يشرح صدرك أن تعيش في اضطراب كهذا ؟ أليق أن تقتاد أحداً إلى حجرة مكتبك وهي على هذه الحال من الرثاءة ؟ إنك أيضاً تحب أن تعيش في حجرة نظيفة ، فكيف بك إذا ألفيت هذه الشناعة قد انجالت دفعة واحدة ، وبات نسيم الربيع الشافي يتخلل غرفتك ويطهرها ؟

الزوج (بعد تفكير قليل) : اسمعي . لقد خطر لي خاطر . مادام شتورتس متلهفاً على هذه الرحلة ، فدعينا نذهب معاً إلى الديستر ، ولك في غيتي أن تحدثني بالبيت ماتشائين .

الزوجة : حسناً يا زوجي العزيز ! سافر مع شتورتس ، وانشدا ما شئتما من سرور ، فسأعد لكما كل شيء !

الزوج : لا يا سيدتي ، ما إلى هذا قصدت . إني من دونك مفتقد ولا ريب كثيراً من راحة القلب . فلن أبرح هذا المكان إلا معك .

الزوجة : ألا يستطيع كاتبك في غيبتك أن يجعل باله إلى أوراقك فلامس ، وأن يرفع الكتب ويعيدها بعد التنظيف مكانها ؟ أألازم وجودك لهذا ؟

الزوج : كلا ياطفتي — ولكنك ستسافرين معنا .

الزوجة : زوجي العزيز !

الزوج : اَللَّيْنَتَهُ معروف : معروف ! فمادمتُ قد رَضِيتُ بِتَنْظِيفِ الْمَكْتَبِ
فلتَرْضَى بالسفر إلى الديستر .

الزوجة : لَنْ أَتَشَدَّدَ بِأَزْوَاجِي الْعَزِيزِ ! فَرِغَاتُكَ عِنْدِي أَوْامِرَ مَطَاعَةٍ .
سَأَوْصِي فِي الْحَالِ عَلَى السَّيَارَةِ .

هنا تعانق الزوجان ، وتسللت أنا من الباب الخلفي هابطاً السلم في خفوت .
وسافرنا معاً إلى الديستر . وحدث ونحن نستقل السيارة أن ضغط السيد
سيمون على يدي متوددا قائلاً : إن هذا اليوم تحمده لي ، فامرأتى لم تكن راغبة
في السفر قط ، لكنها تعرف كيف تطيع .

فكيف تنجح الزوجة الحكيمة في اقتياد زوجها العاقل إلى الديستر كلما طاب لها ذلك ؟
إن مسرة التسلط ، وهو بغية النساء ، موضوع حياتهن الذي يشغلن درسه ،
والرجل العامل المنتج في هذه الحياة يرى في اقتيادهن إلى العرش داعياً للفخر .
ونحن الرجال لا يضيرنا أن نخون جنسنا هذه الخيانة ، فقد درجنا على المباهاة
بالرسميات والاعتياض عن الحكم : بظاهر الحكم .

ولكن أمصابٌ حقاً أن تقودنا امرأة ، وأن نرى فيها القاضي الرقيق الحاشية
الذي يفصل ويتقضى ، بينما نحن نتردد ونجفونا الراحة ؟ وماذا في أن نجوب الحياة
الشائكة في يد امرأة لينة ، إذ كنا من دونها خليقين أن نضل مع هَوَاْنَا السبيل ؟
وهي بلا ريب سبيل وعرة تكثفها المسكاره ، وتسوق وسط الهوى .

إلى شورتس : (رسالة من امرأة لا يرفها) :

رحلتك إلى الديستر يا عزيزي شورتس هي شر ما كتبت وأضر ، فاذا

كانت الصدفة قد أطلعتك على بعض الأسرار فمن خول ثرثرتك أن ترتكب هذه الخيانة العظمى فى حق الهدوء العام والسعادة المنزلية ؟ تستطيع دائماً بسياستك العليا أن تجعل من السلسلة الذهبية التى تجرك منها المرأة قلادة وسام تحمله ، أو أن تخدّر فى المرأة الطيبة بحلو شمائلك ، أو أن تتبعها بمصباح العسس إلى كل مكان — لكنه أيجب من أجل ذلك أن تنزل أسهم الغير لتصعد أسهمك ؟ إنكم أيها الرجال تحصون علينا كل كلمة ، وتصرّفونها على كل وجه ، وتخرجونها أبعد التخريج . ثم أنتم بعد هذا كله تجزونا عليها رية مزدوجة وسوء ظن . إن أحداً لا يجرؤ الآن على الخروج من بيته مخافة أن يتهم بأنه ذاهب إلى الديستر . والنساء المسكينات لا يجدن من عمل سوى تقديم الحِفاف لأزواجهن وهن يتشاءبن .

ما بال الرجال ينزعون جميعاً إلى العناد والفضول والحذقة ؟ إنهم يحكمون كما لو كانوا هم موزعى العقل والفهم على المعوزين فلا يدخلون فى تفصيل ، وإن خير الفروض وأغنى الفكر لا تلقى طريقها إلى مؤلفيهم وناشريهم إلا محلاة بالسكر ، منقوعة فى العسل ، أو تعترض .

هكذا سارت الأمور إلى اليوم ياسيد شورتس ، والناس لم ينظروا بعد فى ورقهم ليروا ما يربح . فماذا عساها أن تصبح وأنت تتسأل بنظارك وراء المقاعد لتسلب اللاعب الشقى ما يمكن أن يرتجيه من حظ مشكوك فيه ؟ إن الذيل الذى سحبتة على قصتك ، وكل ما ذكرت عن التبع والاتباع وهناة الانقياد ، ليس إلا ملطفاً ليمسح السم الذى نقت ، فاذهب إلى سقر . فسيحذر كل أب أبناءه من هذه المهربات السامة . أما ما يرضى النساء فأن تصادر صحيفتك وتحرق ، وخير البر عاجله !

الى لوزة :

لقد حملت هذا الأمر على محمل الجد يا سيدتى وكدت تحركين ضميرى .
 ذلك أنى أكره أن يكون مقالى سبباً لافساد كل رحلة إلى الديستر . لكننا لم
 نخسر شيئاً فهدئى روعك . اتركى زوجك العزيز يظن بك الظنون كما يشاء إذا
 راقك أن تأخذه فى شىء بالعنف . فما تزال لك «لا» بكل ما فيها من عدم
 اكتراث و«نعم» الزاخرة بالأسى والحنين . لك المقالة المتعددة النواحي ، واللون
 الذى على رغباتك تخاعين ، ولك اللعبة البارعة التى تستدرجين بها من تشائين
 إلى استكناهلك ، لتباغتيه آخر الأمر بفرط ذكائك . وما ينقصك الصمت
 النافى ، والابتسام المفحم ، والدمعة البليغة . فأنت ترين تفاهة انليانة التى اقترفت
 فى حقك : مقال صغير فى دائرة المعارف النسوية تعززه الملاحق كل يوم . فلا
 ضير منه على راحتك وبوليسك المنزل فهما بخير . ورباطك الحيرى أو سلسلتك
 الذهبية ما تزال متينة تحسن القياد .

لا تصلح هذه السلسلة سيدتى لتقلادة وسام . ذلك أن الرجال فى حملها سواء :
 الأمير والحجام ، ولم يعد فى حملها من أمد تكريم أو إكرام . أنا سياسى يالوزة؟
 صحيح أن إرادتى لا تعرف الغلب . لكن سياستى كلها — وهذا أمر أناشدك
 فيه السكتمان — هى أن لا تكون لى إرادة . إنى أسبح من دون مقاومة مع
 التيار ، وأستقل الزورق الذى تدير صديقتى دفته من دون سؤال . لكنك سيدة
 تحذقين السياسة ، فأنت تعرفين ما هى الأسهم : — لوددت أن أكون صديقك
 فأن إدراكك لو كان لرجل لزانه . ولكن أن أكون زوجك ؟ كلا فقد أحسنت
 الأقدار ترتيب هذا أيضاً ، فخبثك بزواج لا يذكرك اسمه فى البورصة على لسان ،
 لأنك تحسنين التجارة غاية الاحسان .

وأنت على كل حال تجيدين «تسكير» أفكارك و«تعييلها» — ونحن نسعى هذا «حلولى السيدات» ونحب الحلوى كالأطفال ، ونحب أن نقاد مشهم ونحكم . فليكن هذا بيننا يا لويزه على الدوام . لقد لقيت السيدة سيمون من بضعة أيام ويدها المقود الحريرى ، فمش لى زوجها الطيب وبش من تحت المقود . إن أحداً لا ينظر فى الورق قط ليرى ما يربح منه وما لا يربح . لكنه حتى لو اختلسنا النظر لنعلم كم فى يد جارتنا من الورق الراج فلن نفيد من هذا شيئاً . إن الطبيعة قد خلطت الورق خلطاً يجر علينا الخسارة فى الختام . هذا إذا كان من الخسارة يا سيدتى أن يقتاد المرء رغم أنفه إلى الديستر . ولا يغيب عنك يا سيدتى مع ذلك أن هالر برونن الكائنة بين جبال الديستر مكان بديع . صحيح أن له نساءياته وتيوهه ومفاوزه وفطرته العامرة بالخيال ، وأن كثيراً فيه يبدو من الطبيعة وما هو من الطبيعة فى شىء ، وأن الماء الساكن فيه قليل وإن كان فى بعض مواضعه جد غوير .

لكن الوقت يمر فيه هيناً ليناً يزجيه خرير الغدير الرقيق ، وتحتته فى ظل الأغصان الهامسة صحبة الرفيق . وإنا لننسى فيه من فرط السرور بوجودنا هناك كيف انتقلنا إلى هناك . أدرنا إليه من طريق طويل أم قصدنا رأساً إليه . وما دمت سعيداً فقلما يهمنى كيف بت هذا السعيد . فليفهم أحدنا الآخر يا لويزه ! أما آدابنا فليست من المهربات ، فهى فى كل بلد من صنعه ونتاجه . ودعى البرىء لا يستحق أن يراق ، لأنه نفخ الروح فى تلك الحكمة الذهبية : أطيعوا . . . أولى الأمر منكم .

ظل الحمار

لروبرت رابينيك^(١)

جاءني ابن عمي ثانية أمس ، وكان قد عاد أخيراً من رحلة له في إيطاليا .
وابن عمي هذا ، حين يزورني ، يقص عليّ الكثير ، وينفض على سمعي كل
مشاهداته ، وبعض ما يقصه يلذ للناس سماعه ، كحكاية ظل الحمار .

قال : أردتُ الانتقال مرة من روما إلى تيفولي ، وهي مدينة صغيرة بين
الجبال ، تتدفق شلالاتها البديعة الكثيرة من خلل نوافذ محطة في قصر خرب ،
وتنحدر مياهها بعيداً إلى واد جميل ، والشقة إلى تلك المدينة غير دانية ، فهي
حوالي أربعة أميال ، ومن ثم استأجرت حمار ركوب كما يفعل الناس في تلك
الجهات ، وجاء الحمار إلى داري في موعد مضروب ومعه صاحبه المسكاري
أنطونيو ، وكلكم لا شك تعلمون أي نوع من الدواب ذلك الأغبر الكسول ،
فانك لمتطيه فلا يستجيب لك كالفرس النبل من مجرد كلمة أو جذبة للزمام أو
ضغطة على عجزه . كلا ، فلا بد في الغالب من رجل أو غلام يعدو في أثره وينهال
عليه بعصاه ، ثم هو إلى ذلك يقف في كل لحظة يبغى النوم أو القوت ! ولا
مشاحة في أن لمثل هذا الحمار جلدًا سميكًا ، فانه ليلقى الحسكة في الطريق وقد
اشتهاها فلا تكاد تنفع عشر ضربات قاسية ، تزداد عليها اثنتان من عصا موجهة ،
في صرفه عنها .

(١) شاعر ألماني مجيد التصوير . عاش في القرن التاسع عشر ؛ ومات في منتصفه ؛ وشابهت نفسه نفس
الأطفال صفاء ونقاء .

واعتليت دابتي ، وانطلقت بها ، وأنظوني من ورائي يعدو مرحاً ،
ويصيح دوماً : حا ! حا يا بليد ! حا ! وهكذا سرنا في البداية سيراً حسناً لا مزيد
عليه .

واتفق أن كان اليوم قائظاً كما هي الحال غالباً في إيطاليا ، والطريق إلى
تيفولي تخرق ناحية مجدية مقفرة ، فلا دور فيها ولا شجر ولا بحيرات في أغلب
الأحيان .

وتنصف النهار وحي رأسي من وهج الشمس ، وقد نفدت أشعتها المحرقة
من قبعتي القش ، وحررت كيف أتقى هذا القيظ ، وقد أضنى الحمار متابعة السير
وأضنى المسكاري ملاحظته بالضرب ، ولم أعد أنا أقوى على الركوب فوق
ماركيت .

وغالبني النعاس واسترخت أجفاني ، لكن أتى لي الظل الذي أتيأه ،
وأقبل فيه وليس إليه في هذه الجهة سبيل ! وخطر لي بغتة خاطر أريب فصاحت
هش ! فوقف الحمار ، وكأنه سمر في مكانه ، فان نداء « هش » يدركه الحمار
كل الإدراك ، أما « حا » فيعي فهمها مثل حماري مدى الحياة .

وكان بالطريق عود صبر كبير جاف ، فقلت أربط به حماري ، وأستلقي في
ظله على الحشيش المنفوح ، وقبل أن آخذ في تنفيذ هذه الفكرة السديدة مسحت
العرق عن جبينى ، ونرت ساقى ، ومطيتهما ، وكانتا قد تخشبنا من طول الركوب
وأشبهنا عودى ثقاب ، ثم التفت إلى الجبال الزرقاء الجميلة ككرة أخرى ، وكانت
في الجانب الآخر على مرمى الطرف .

وإذ أستدير على الأثر لأستلقي ألفيت من تقيأ ظل الحمار دونى متمدداً عليه ،
خالى البال ، يغط في نومه غطيظاً عالياً . ومن غير أنظوني ! لقد كان أخبث

منى ، فما أردته بادىء بدء هاهو ذا قد نفذه .

فأما أن الرجل يستلقى هناك ، وينام نوماً هنيئاً ، فأمر حسن لا اعتراض عليه . بيد أنى كنت في المكان صاحب الشأن الأول ، وهو إنما يرافقتى من أجل الدابة ، وهو إلى هذا أقدر على احتمال حمارة القيظ ، إذ هو أكثر اعتياداً لها منى .

وأهبت به : أنطونيو ! إنهض ! وهزرتة ، ففتح عينيه ، وحدق في دهبها ثم عاد فأغمضهما ، وانكفأ على جنبه الآخر .

فعدت أهزه بأعنف مما فعلت أول مرة ، وصرخت فيه : أنطونيو : إنهض فالظل الذى تستلقى فيه لى لا لك . بيد أن أنطونيو لم يعن هذه المرة بأن يفتح عينيه ، ولم ينبس كذلك بينت شفة . بل حرك سبابة يده اليمنى حركة تعنى عند الإيطاليين : « كلا ياسيدى ! » وصرخت كرة أخرى في أذنيه : أنطونيو ! كن رشيداً ! فقد استأجرت منك الحمار ، واستأجرت ظله معه تبعاً له ! فالظل على ذلك ظلى !

هنا صاح أنطونيو : سيدى ! أثبت لى أولاً أنك أنت الحمار فأنزل على رأيك . أما والظل ملك لحمار ، والحمار حمارى ، فلن أنهض ، بل سأمضى فى نومي فى ملك ملكى !

وأراد استئناف الراحة ، لكنه كان قد استشارنى ، إذ كانت الحقيقة فى أقواله مما لا يمارى فيه . وأمسكت بخناقه ونحيته عن المكان المستلقى فيه . فغضب بدوره وهب واقفاً على قدميه . فتماسكنا ، وحاول كل منا أن يدفع الآخر عن المكان المشتهى .

ونشأ صراع حام إذ لم يشأ كلانا تساهلاً . وعثرنا آخر الأمر بحجر فسقطنا

معاً على الأرض ، ولبثنا نتدحرج في حمارة القيظ حتى بلغنا منحدرًا بسيطًا يبلغ غوره بضع أقدام فهوينا إلى قراره اللين . وارتيمنا على رمله المستعر كدجاجتين مشويتين في مقلاة . ومع ذلك فقد بقينا متشابكين كاثنين يتصارعان مستبسلين . وقال أنطونيو : سيدى ! أرى أننا ندان قوة وبراعة ، ففيم الإيعات والمعانة ؟ عندى اقتراح . أعطنى باولا (قطعة نقود رومانية) أبعك ظل الحمار ! قلت : إذا لم يكن غير هذا أيها المغفل فسأعطيك . ولو طلبته من البداية لما تفاضبتنا في غير ماداع . وترك أحدنا الآخر ، ونهضنا على أقدامنا ، وتلقى أنطونيو قطعة النقود ، وصعدنا المنحدر الذى كنا قد هويناه إلى قراره من قليل . على أنه ماذا رأينا ؟ تصور ذعرنا ! فقد ذهب ظل الحمار الذى ابتعته ولما أكد يباول رومانى لامع ، وارتحل مع الظل الحمار . كان أنطونيو أخبث منى ، فإذا حمار أنطونيو أخبث من أنطونيو بكثير . لقد اقتلعت الدابة عود الصبر المربوطة به في غير عناء ، ومضت في سبيلها لا تلوى على شيء . وقد لمحتها في الأفق بعيدا جدا تسير مطمئنة في الطريق إلى روما .

وإذ يفتقد أنطونيو حماره يظن الحيوان قد هجره إلى غير رجعة ، فيتولاه على خط إيطالى صميم يأس قاتل ، فقد عض أنامله ، وتنف شعره ، وقذف الأرض بقلنسوته ، وداسها بقدميه ، وسلك في الجملة مسلك الصبية ، وقد أعماها الغضب .

كان يصيح دوما : آه يا حمارى ! آه يا حمارى العزيز ! لم يكن لك عيب سوى هذا الظل الملعون ، فليت لم يكن لك ! إذا لبقيت معى ولما ارتحلت ! وصحت به : لاتكن طفلا ! فحارك ماض هناك رخی البال ! وأشرت يدي إلى حيث يسير الحمار .

فما إن رآه أنطونيو حتى حال غير الذى كان، فهلل عاليا، وألقى بالقبعة فوق
شعره الأشعث المنفوش، وطوّح سترته السوداء فوق كتفه اليسرى، وأمسك
بعصاه فى يمينه، ومضى يسابق الريح فى طلب الحمار. وأقسم مارأيت حياأتى
بشرا يجرى كما كان يجرى أنطونيو !

ووقفت أنا وحيدا فى وهج الظهيرة الإيطالية، قانعا بالنظر الحزين إلى
رفيقي، أمنى النفس يعودتهما الوشكة. واقتعدت الأرض وجعلت أغنى أغنية
ألمانية مطلعها: آه يا عزيزى أوغسطين، كل شيء قد مضى !

وذهبت آمالى جميعا سدى. ولبثت جالسا ساعة تبتعتها أخرى، لكن الذى
لم يعد كان أنطونيو وحماره. وإن أنس لا أنسى هاتين الساعتين ! وأخيرا
جاء الخلاص. فقد مرت بى عربة تنقل نبينا ويجرها ثوران ذوا قرون عظيمة.
ولو لم يرث السائق لخالى ويأخذنى معه فى مقابل راشن طيب فلربما كنت ما أزال
قاعدا هناك.

هينريش تشوكه

« هينريش تشوكه كاتب وشاعر ألماني متعدد النواحي . نشأ روائياً قصصياً ، ثم تحول كاتباً تاريخياً ، متأثراً بالكاتب الإنجليزي الأشهر والتر سكوت ، فأخذ عنه الافاضة في العرض . لكن هذه الافاضة في العرض ، والأسهاب في الوصف ، كثيراً ما شوشا قصصه وخلعا عليه مسحة القديم . وتشوكه هذا رمز في الادب الألماني لاتحاد الرومانتيك الألماني بالانجليزي ؛ ومنتج إلى حد بعيد . وقصصه وحكاياته حافلة بالحكمة والفكاهة وأحياناً بالعاطفة . وقد كان من رجال التعليم ؛ وكتب للمسرح ؛ ولقيت بعض مسرحياته نجاحاً عظيماً . واشتغل بالسياسة ؛ وتقلد بعض مناصبها ؛ واعتزل الحياة العامة شاباً ؛ وقضى بعدها سنّاً وأربعين سنة تغمره الوظائف الفخرية . ومات في منتصف القرن التاسع عشر في السابعة والسبعين من عمره »

ممکن جداً !

لہنریسہ شوکہ

كان لشريك مستشار الدولة المتوفى أخيراً ، لازمة في الكلام ، وعبارة اعتادها وهي : ممكن جدا . فكثيرا ما جرت في تقاريره الرسمية إلى مولاه عن الشؤون الإدارية ، وكثيرا ما بدرت منه في محيط الزملاء والوزراء . وليكن الظرف الذي تلفظ فيه بالغ الجد ، فان سامعيه ليبتمسحوا لها ابتسامة هادئة ، كتلك الابتسامة التي تعلو الشفاء من نقطة ضعف في جار . وهذا أمر لاندحة عنه ، فكثير من الناس يلاحظون دائما فقط ضعف الجار باغتراب ظاهر .

كان المستشار شريك مع ذلك رجلا محترما ملحوظ المقام ، وقد ظل كذلك . قدره من تعاقب على حكم الدولة من الأمراء ، ورفعوه دائما إلى مركزه السامي ، لأنه استطاع بحذقه وعلمه أن يسدى إليهم خدمات جليلة . وكان الكل يقرون له بأنه : رجل عالم كئس ، كما كانوا ينعته بأنه فهم الناس فهما طالما أحسن الانتفاع به . بل لقد كانوا يعتقدونه أعلم مما هو في الواقع وأحكم مما كان على التحقيق حتى ذوو الفطنة وأصحاب الرؤوس الكبيرة لم يكونوا يحترمونه ويبجلونه فحسب ، بل كانوا أيضا يهابونه لأنهم لا يطمئون عادة إلى من يحسبونه أعقل منهم . وقد كان المستشار شريك حقا رجلا مستقيما ، صريحا ، ذا ضمير ، فلم يسع أحدا أن يذكره بسوء . ولأن هذا هكذا ، ولأن أحدا من الناس لم يكن يستطيع أن يقتابه ، كان هذا في ذاته دليلا على أنه رجل أريب ، وكان سببا قويا

لخشيتيه والحذر منه . وقد ذهب الاعتقاد بحكمته إلى حد أن اعتبره الجميع سياسياً من أبعد السياسيين نظراً ، ونبياً حقيقياً . وسبب هذا كله هو عبارته المثالية : ممكن جداً ! ولن يسوء قراءنا أن نورد لهم الأمثلة التالية على خلق الرجل الملاحظ في تاريخ بلاده . وبعض هذه الأمثلة أثبتها هو بنفسه فيما يشبه المذكرات ، وقد كان مثابراً على تدوينها في أوائل أيامه . وأهم شيء في تلك المحلفات هو دائماً عبارته التي لم ين في كل زمان ومكان عن إرادها ، وأعني بها : ممكن جداً ! وإنها لتفقت منه أحياناً ، ولا تكون في حسبانها ، لكنه لا ينطق بها أبداً من دون تفكير ، وكثيراً ماتحملة ، حين تفقت منه ، على تحرى النتائج التي تكون لها ، فتكون هذه النتائج مبررة ومقرة لآرائه في الأشياء ، وموجهة ، من جراء ذلك ، لسلوكه . من ثم كانت هذه العبارة ، التي ذهبت مثلاً ، ذات تأثير كبير حاسم في تفكيره ، وفي فعله وتركه ، وفي سير مقدراته . فمن كان يصدق ذلك ؟ من يصدقه عن رجل ذى بصر وبصيرة ؟ ومع هذا فقد كان : ممكن جداً .

كان المستشار شريك نفسه يعلم هذا عن نفسه حق العلم ، ومع ذلك لم يحرص على هاتين الكلمتين فحسب ، بل أراد جاداً أن يعود ابنه الوحيد إليهما ، لكن إلقى الذي كان يتصور أنه أصدق نظراً إلى الأشياء من أيه الشيخ — وهذا ديدن الفتيان جميعاً — أدهشه هذا الطلب فقال لأبيه : يا أبى ! إن الناس ليغتفرون لك هذه اللازمة الصغيرة ، لكنهما منى خليقة أن تدعوهم إلى السخرية ، إذ يجدونها تقليداً يشبه ما يفعل القردة ، وعبارة ألو كها قصداً وطوعاً . فأجابه المستشار : هذا ممكن جداً ، يا عزيزى فريتس ! ولكن ماذا يضريك من هاتين الكلمتين إذا هما أدخلتا السكينة على قلبك ، والرباطة على جأشك ، والتفكير على رأسك ، والهناء على حياتك ؟ إن غنمك من هذا ليكونن عظيماً جسيماً ، وإذا أنت لم ترد أن تنطق

بهما جهارا خشية أن يتهزأك الناس ، فلتذكرهما عند كل مناسبة في شرك .

فقل القتي : ولكن يأبى ، لم هذا ؟ إن إيثارك هذه العبارة يذهب بك ، فيما أرى ، إلى أبعد مما ينبغي .

فقال المستشار : يا بني إنى لأوثر هذه الكلمة إيثارى إياك ، ومن ثم أحب أن أورثك إياها ، وأورثك معها راحة نفسى وضميرى . لا تعتقد أن الصدقة وحدها جعلت هذه العبارة من عادتى . كلا فقد كانت فى الأصل مما نطقت به قصدا وطوعا وإليها يرجع فضل ما صرت إليه واستحوذت عليه .

قال : إذا ما الذى حملك يا أبى على اتخاذ هذه اللازمة ؟

قال المستشار : شقاء شبابى ويأسى ، حتى كانت هاتان الكلمتان ، فأخذتا ييدى وسيطرتا على نفسى . كان جدك كريمين صالحين ، لكنهما لم يملكاشيئا كثيرا . وما ورثته عنهما كفى مع التقدير لأن أتم دراستى العالية شريفاً عفيفاً ، وأن أنفق بعدها على نفسى بضع سنوات . وقد كنت شاباً مستقيماً ، مجداً فى التحصيل ، نبيلاً ، لأنى نشأت بين كل مثال لما هو رفيع نبيل . بيد أن هذا جر على البلاء ، لأنى لم أفهم الدنيا على حقيقتها ، فكنت أعتقد أنها تارة علما من الملائكة ، وأخرى علما من الشياطين ، حسبما توحيه الظروف .

فقال فريتس : وهذا ما ألقاه أنا أيضا على الرغم منى ، وما لا أزال أجده فى هذه الأيام !

قال المستشار : هذا ممكن جدا ! ذلك أن القتي الذى لم يقع له ذلك ، إما أنه لم يكن له قلب طاهر أو كان خلوا من فؤاد نابض . فلا بد للمرء من اجتياز هذه المرحلة « وأستطرد فأقول : لقد لبثت أعمل فى المحاكم بلا أجر ، وطال بى الأمر قبل أن أحصل على لقب ثم على وظيفة ضئيلة المرتب ، فهكذا تجري الأمور ، وقد كنت أتوقع هذا المجرى ، وما كان ينبغى أن يعرف أحد أنى فقير ، وإلا عدت

من أكابر الناس وأصاغرهم بما دون الاحترام الذى أستحق. فكنت دائماً حسن الهندام ، معنياً أكبر عناية بأن أظهر من الأكياس والمتأنقين ، فكنت أسكن الغرف الجميلة ، وأغشى أرقى المجتمعات ، ولم أتهيب حتى أن أساهم الحين بعد الحين فى مجالس الأانس التى كانت تكلف بعض المال ، ولم ألك فى هذا مديناً لأحد ، ومن شأن ذلك أن يكبرنى فى أعين قرنائى فى السن والمقام .

« كنت أبدؤ فى كل مكان أغنى مما كنت فى الواقع ، وهذا بأقل نفقة ممكنة . وإن أحداً لم يعلم أنى كنت أقضى العام بطوله على الملح والخبز والماء إلى قليل من اللبن . وكنت فى هذا كله سعيداً ، لأن قلبى كان مغتبطاً ، لا بشعورى فحسب بأتى أقوم بواجباتى ، وأتى أمنى نفسى الأمانى فى مستقبل زاهر ، بل أيضاً بكل شئ ، فقد كنت فى كل مكان مسحوظاً محبوباً . مالت إلى النساء ، وارتضى الرجال صحبتى . وقد اصطفت من كل أولئك صديقاً واحداً خبرته واختبرته ، وهو المحامى شنيملر ، وكان كلانا قلباً واحداً ، وروحاً واحدة ، أثبت وفاءه لى فى الشدة والألم ، وكاد فى المدرسة العليا يودى بنفسه فى مبارزة من أجلى .

وكانت واحدة تستأثر بقلبى من دون النساء جميعاً ، وهى فيليينا ابنة الجنرال فان تيتن . وقد لبثت أكنتم حبها أعواماً ، وكنت أحبها ، ولا أدرى كيف أحببتها ، وكان حبي لها أقرب إلى العبادة الصامته . وقد تقدست حياتى بأكلها بهذا الحب ، ولم يعلم أحد مكنون صدرى ، ولم أجرؤ على أن أكشف أحداً به ، فأقدس شئ فى الوجدان يسلمه اللفظ قداسته ، ولو كان أظهره . والمرء يكره أن يتحدث إلى أحد عن حبه ، كما يكره فى المجتمع أن يتحدث عن عقيدته . »

قال الفتى : وحتى صديقتك لم تبوح له بسرّك ؟

فأجاب المستشار :

« — كلا ! حتى هو . وليس هذا لأنى لم يكن يجوز لى أن أفكر فى ابنة الجنرال الغنية الرفيعة القدر ، وأنا فيما كنت فيه من عوز ، وتعطل ، وصعلة ،

فأنى على التقيض من ذلك سمعت من شنيملر أن الناس كافة يتحدثون بأنى ذو
حظوة عند فيليينا ، وأنها تحبني وتغرم بي ، وأنه قام بينها وبين أمها من أجل
نزاع غير مرة . فهذا الذى كنت أسمع من شنيملر ولا أصدقه ، كان الحقيقة
التي تجلت لى بعد نصف سنة حين قربت الصدف بينى وبين فيليينا ، وأزيع
الستار عن خفيئنا . وقد تعاهدنا طبعاً على الحب الأبدى ، وأقسمنا ليكون الموت
أحب إلى كلينا من الخيانة .

« من ذلك الحين كنت أعيش فى الفردوس . ومن ذلك الحين توالى على نعم
الله ، وواتانى الحظ ، فبت مستشاراً فى بلاط الدوقة الأملة ، ونعمت بمرتب
معتدل لكنه محترم ، ولم تعد الهوة التي تفصل بينى وبين يد فيليينا مما لا يمكن
تخطيه . فقد بات الجنرال فى حاجة إلى ، وازداد إقباله على . وعقب ذلك بقليل
آل إلى ميراث هام من باتافيا ، خلفه لى ابن عمى . وكانت الثروة حاضرة فى
أمستردام تنتظر ما يثبت شخصيتى ، وتلكتنى الغبطة ، لا من أجل المال بل
من أجل فيليينا .

وتقدم فى ذلك الحين بالذات شاب جميل كونت ، كان أثيراً عند أمير البلاد
الراحل ، إلى فيليينا ، يخطب ودها ، ويطلب حبها ، فسخرت من خطبه ، ومحت
بقبلايتها ما قد كان ساورنى من غيرة . بل لقد أهابت بي أن أطلب يدها من أبويها .
وكانت هذه مهمة شاقة على ، ما فى ذلك شك ، لكننى أقدمت عليها ، وكان
على أن أقصد على أثرها إلى أمستردام فى طلب ميراثى . فشق على السفر ثلاث :
لأنى لا أصدق أنى أستطيع البعد طويلاً عن فيليينا إلا أن أكون مريضاً أحضر ،
ولأنها نفسها قد عارضت فى سفرى ، وأخيراً لأن الكونت الشاب كان يلوح
غنياً جداً ، وجميلاً جداً ، ولخو حاداً . ومن ثم اتفقنا على أن يسافر شنيملر

عوضاً عني ، يحمل كل الأوراق الرسمية والشهادات والتوكيلات اللازمة الى أمستردام . »

قال فريتس : لكنك يا أنى لم تذكر لى هذا الصديق قط !

فأجاب المستشار : « ممكن . وستعلم تفسير ذلك . وتقضت أسابيع وأيام ، ولم يكتب لى صديقى ووكيلى أبداً فانهلت عليه برسائلى ، وقام بخاطرى أنه قد يكون مريضاً ومريضاً جداً . وتغلبت الصداقة على الحب فسافرت إلى أمستردام ، وأملت فيليبينا لرحلى أشد الألم ، وسقطت حين فارقتها مغشياً عليها بين ذراعى أمها .

« ولبثت طوال الرحلة أستعلم عن شنيميلر ، فوجدت اسمه فى كافة سجلات البريد ، وبلغت أمستردام ، فعلمت أنه كان هناك ، وقد تسلم التركة والمبالغ تحاويل ، وحول فى نفس الوقت بعض الحوالات إلى نقود ، والبعض الآخر إلى ورق نقدى . أما هو فلم أعثر له على أثر . وقد تبدت لى غرابة ذلك ، وأخيراً علمت مع الدهشة أن رجلاً على غرارهِ أبحر من شهرين مضياً — أى بعد تسلم التركة مباشرة — على ظهر سفينة أمريكية . فصحت : هذا غير ممكن ! ولبثت أصيح : هذا غير ممكن ! لكنى عدت بالخبر اليقين ، وكان هذا ممكناً . فصديقى وأوفى أصدقائى طراً ، قد غشنى . »

فصاح فريتس : فضيع !

ومضى المستشار يقول : « وسافرت عائداً وقلبي يتمزق ، وقد نسيت المال المفقود . لكنى لم أستطع أن أنسى خيانة الصديق الصدوق ، فقد استلبنى ثقى وإيمانى بالناس ، ولما بلغت المدينة وددت لو طرت من فورى إلى بيت الجنرال فان تيتن ، إلى فيليبينا التى أملت بالخطب من رسالة بعث بها إليها . لكن الوقت كان مساء متأخراً . وقد لقينى مدير يديتى متودداً . وسألته أنا : هل من جديد عندنا ؟

فقال : ليس ثمة جديد يذكر . ثم قال : أما أن الأنسة فان تيتن قد تزوجت من أسبوعين فلا أحسبك تجهله !

« غير ممكن ! تزوجت ؟ ماذا ؟ ابنة الجنرال فان تيتن ؟ ممن ؟ من الكونت ؟ ماذا ؟ غير ممكن !

« بهذا كنت أصيح . لكنه أجابني : ممكن بلا شك ! وقص على هادئا كل الظروف التي أحاطت بهذا الحادث ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، « فأتضح لي أن حبيبتي فيليبينا لم تناع أية ممانعة في مديدها إلى الكونت الجميل الثرى المقرب جدا من البلاط ، حين طلبها ، وأن هذا حدث ولما تكند تتسلم رسالتى التى حدثت فيها الجنرال من أمستردام بندالة شنيميلار . بيد أنى لم أصدق حرفا مما أثر به مدبر بيتى ، ولبثت أصرخ : هذا مستحيل ! وقضيت الليل بطوله لا أصدق ، لكنى صدقته فى صباح اليوم التالى ، إذ علمت توكيده من كل ناحية ، ومن الجنرال نفسه ..

فصاح فريتس : فطيع ! فطيع ! وضغط قلبه بيده ضغطا قويا كأننا يمنع أن يثب وتابع المستشار قصته قائلا : « ما علمنا ! بهذا كنت أصيح أيضا ، كنت أقول : الآن غششت ومن كل النواحي ! الآن حاشاى أن أومن بشيء فوق هذه الأرض ، فلن أومن بعد الآن بحب فتاة ، أو بقسم رجل ، أو ببقاء نصيب . إن ما كان يدولى مستحيلا قد وقع ، فمن ذلك الحين وأنا أعتد ممكنا أبعده عن التصديق ، ما عدا أن يكون الانسان ونصيبه مما لا يقبل التبدل ، فهذا غير ممكن فاذا قص على أحدهم شيئا غير محتمل إطلاقا ، قلت له : هذا ممكن جدا ! ففى هاتين الكلمتين أس فلسفتى الدنيوية من ذلك الوقت . وقد أخذت نفسى بأن أرددهما فى كل مناسبة ، ووجدت فيهما العزاء فى غمرة الشقاء . وقد وقتنى هذه

العبارة شر القنوط ، وتعلمت منها ألا أعتد بعد الآن على شيء سوى نفسى . وقد كنت أسائل نفسى أحياناً : أيمكن أن يدخل السرور على قلبك فى هذه الأرض ؟ فأرجع : ممكن جداً ! وهكذا ثبتت هذه اللازمة فلم أصدف عنها ، ولم تعد تسكرنى نشوة الهناء ، إذ كنت أفكر فى نفس الوقت فى الزوال وفى الشقاء ، فأقول : ممكن جداً ! ولم أشعر من ذلك الحين بمسرة أعظم من المسرة التى أحسستها يوم ولدت يا عزيزى فريتس ، لكننى وازنت غبطتى بالتفكير فى أنه من الممكن أن يختطفك الموت منى أو أن تكون ولداً غير صالح ، فقلت فى نفسى : هذا ممكن جداً ! وأفقت من نشوتى ووطنت النفس على كل سوء .

فقال فريتس : الحمد لله يا أبى على أن كليهما لم يقع .

قال الأب : « سيان عندى يا بنى . ولكنه كان ممكناً جداً . ومنذ باتت لى هذه اللازمة وأنا ألتقى كل ساعة سعيدة كأنها هبة من السماء من دون أن أعتقد ببقائها . وهكذا لا يفاجئنى شر لأنى موطن نفسى عليه ، عالم بأن كل شيء زائل . كل شيء ممكن جداً . فنصيححتى أن تتخذ هذه الفكرة شعاراً لك ، واستعمالها الدائم كقيل بأن يشربها كيائك ، ويدخلها فى جهازك العصبى ، وإلا بقيت بلا أثر ، وبقيت أنت بلا خلاق » .

واستطرد المستشار يقول : « نحن بنى آدم جميعاً توجهننا فى الأحداث الجسام والضئال ، وفى المعاملات الهامة والعديمة الشأن فكرة لا نكاد نفطن إليها ساعة الحدوث ، لكنها تخطر سريفة . فهى فى ذاتها حادث خاطف تولد اللحظة والظروف ، ولا يسع المرء على أثره فى الغلب أن يناقش نفسه الحساب : لماذا سلك فى اللحظة الحاسمة هذا الملك دون ذاك . والجهال هم الذين يعللون هذا بأنه وحى من عند الله أو إلهام من الشيطان . ومن ثم لا يستطيع إلا الأقلون أن

يزعموا كيف يسلكون في كل الأحوال في هذه الظروف أو تلك ، لكنهم لا يقدرّون . فانهم عند انقضاء القدر لا يكون لهم في الغالب سلطان على أنفسهم ويكوتون كالذاهلين النشوى ينقص أذهانهم كل ثبات ، تنقصهم الفكرة الثابتة لفلسفة الحياة ، والايان القوى ، واحتقار كل ما هو أَرْضِي ، وازدراء عبثه ، والتطلع إلى الحقيقة الأبدية ، إلى الخير الأبدى . فلكي يتم للمرء كل أولئك يجب أن يتخذ شعاراً ما ، يهتف به في كل مناسبة ، ويجعله لذهنه بمثابة العكازة ، فإذا لم ينفعه أحياناً فماذا في هذا ؟ وما ضيره ؟ فحسبه أن يكون في مأوفه وفي عادته أصدق شيء في الوجود وأسماء ، أن يكون هذا الشيء طبيعة ثانية له ، لا يجعله خلياً من الفكر كالحيوان ، ولكن يجعله تام الشعور . إن في هذا لقوة ، وإن فيه ثباتاً . فاتبع نصيحتي ! فانه لك ممكن جداً . »

كان في ثبات شريك وقوة خلقه ما يبرر احتفاظه بلازمته كل التبير ، ويجعل الصدق حايقه . بيد أنها كانت تجر عليه أحياناً بعض المتاعب ، على حين كانت تعيظ غيره كل الإغظة .

مثال ذلك أنه حضر يوماً اجتماعاً وزارياً رأسه أمير المقاطعة ، وكان ذلك في عصر الثورة الفرنسية وغمرة انقلابها ، فجعل المجتمعون يتحدثون بعد ارفضاض جلستهم عن آخر ما وقع في باريس وليون وستراسبورغ ، ويتكلمون عن التحول الهائل الذي ألم بالأمة الفرنسية بعد عبادتها ملوكها في الزمن السالف ، وكيف تقتبط الآن بمثل العرش .

وصاح الأمير : إن هذا لأرذل شعب على وجه الأرض ؛ وإن غيره ليعجز عن إتيان ما أتاه ! أنظروا إلى رعيتي ، فإنه لحال أن يصيبها هذا الزيف ، ومحال

أن تركع لغيري ، أهذا ممكن ؟ مارأيك يا شريك ؟

وكان المستشار في تلك الآونة يفكر في شيء آخر . فلم يجعل باله تماماً إلى كلام مولاه ، فبرز كتفيه مرتبكا وقال مع ذلك على عادته : ممكن جداً !
فدهش الأمير وصاح به محملاً : ماذا تعني ؟ أظن أنه يأتي زمن ترغب فيه رعيتي في التخلص مني ؟

فقال شريك وهو واع هذه المرة : ممكن جداً ، فليس لنا علم الغيب ، وليس أخذل من شعب لأميره ، فالشعب قوامه أناس يحب كل منهم نفسه أكثر مما يحب الأمير . وكل نظام جديد يجلب معه آمالاً جديدة ، والآمال دواماً أكثر إغراءً من الشيء المأمول ، ومهما يكن خبر عاياً كم لسموكم ، ومهما يكن استحقاق سموكم لهذا الحب ، فاني أكره أن أضمن لكم أن هذا الشعب في ظروف أخرى لا ينسى إحسانكم ، ولا يقيم الأفراح والزينات اغتباطاً بنظام الجمهورية أو بسيد جديد ، ولا يتزق شعار الامارة ولا يهينه . أجل إن هذا يامولاي لممكن جداً .
فرد الأمير عليه محتداً : إنك رجل عديم الكياسة ، وأدارله ظهره ، وغضب من ذلك الحين عليه ، وقال كل أمرئ إذ ذاك : إن شريك رجل مغفل !

وتقضت على ذلك بضع سنوات فإذا الفرنسيون يعبرون الرين غير مدافعين ، وإذا الأمير يفر هارباً بحاشيته وبلاطه ، والناس يشيعونه بالتهليل للحرية والمساواة ، و يقيمون الأفراح والزينات ، وينتزعون شارة الامارة .

وأسند إلى شريك في النظام الجديد مركزاً يواظم نفعه وعلمه ببواطن الأمور . وقد كان معروفاً لماذا غضب عليه أمير البلاد الطريد ، فاعتبروه إلى حد ما ضحية من ضحايا استبداد الأمير . وقد توطدت دعائم النظام الجديد ، فكان شريك ممن أعانوا على توطيده بعمله وخبرته . وعلى أنه كان رجلاً ذا حمية فإنه لم يتورط

في المنازعات السياسية ولم يتم قط إلى حزب ما ، فارتأى بذلك كل حزب فيه ، فاعتده
اليقويون ملكيا متنكرا ، واعتده المليون يعقوبيا متنكرا . وهو في هذا يضحك
من الوصفين ويؤدى واجبه .

وفي ذات يوم قدم حاكم للأقليم ، فأحيط كما هو بديهى بكل صنوف التكريم .
فكل امرئ يتقرب إليه ، وكل يسعى ليدو في نظره على شيء من عظم الشأن .
وكان في جملة الساعين أناس لم يتورعوا عن النيل من شريك الطيب لدى الرجل ،
ونعته بالتذبذب في أفكاره الجمهورية . وإذا يلتقى الحاكم بشريك في مجتمع حافل
شربت فيه الانتخاب للحرية العالمية ، وحقوق الشعب ، وانتصارات الجمهورية ،
واحتسيت الكؤوس في حمية ، التفت إلى شريك وقال : إني لدهش من أن
الملوك لا يزالون يجراؤن على محاربتنا ! إنهم بذلك ليستعجلون سقوطهم ،
فالثورة تطوف حول العالم ، فماذا يرجون ؟ أيطمعون في إقهر الأمة العظيمة بقوة
السلاح وإرجاع البوربون ؟ ألا إنهم لقوم بلهاء ! إن دون ذلك سقوط أوروبا
بأسرها . أفلا ترى هذا أيها المواطن ؟ أفكر رجل عاقل في أن فرنسا تشهد عرشا
مرة أخرى !

فقال شريك : ليس من الراجح على كل حال : لكنه ممكن جدا .
فصاح به الحاكم مرعداً حتى أجفل الحضور من صوته القاصف ، وريعوا
عن بكرة أيهم . قال : ماذا ؟ ممكن جداً ؟ ! إن من يشك في بقاء الحرية لم
يتعشقه بعد ، وإني ليؤسفني أن تكون مثل هذه الآراء واحد من أسمى الموظفين ،
فما اعتذارك من قولك ؟

فقال شريك هادئاً : اعتذارى ؟ إن هذا ممكن جداً . فأثينا الحرة ألفت أولاً
بركليس ثم اعتادت بعده ملك مقدونيا ، وروما دانت بالطاعة لحكم الثلاثة ، ثم

دانت لقيصر ، وأخيراً لنيرون ، وانجلترا قتلت ملكها وولت حكمها كرومويل ، ثم عادت إلى الملوك .

فصاح به الحاكم : ماذا تعنى برومانيك وأثينييك وإنجليزك ؟ ماذا تريد بهذه الشعوب الشقية التى لاخلاق لها ، والتى استحققت ما كبلت به من أغلال ؟ أترك تقيسها بالفرنسيين ؟ لكنى أعتقر لك هذا رأى الأخرق ، فانك لم تولد فرنسياً .

على أن الحاكم لم يكن جاداً فى هذا الاغتفار بحال ، إذ سرعان ما فقد شريك مركزه ، وتعرض من جراء الاسترابة بكلامه للسجن وتعذيب التحقيق . وأصبح بونابرت قنصلاً أول بعد ذلك ببضع سنوات ، فعين أول ماعين قنصلاً لعشر سنين ثم قنصلاً مدى الحياة ، ثم بات إمبراطوراً وملكاً ، فأعيد شريك إلى وظيفته ، وردت إليه ألقابه تقديراً لبصيرته واستقامته ، ولأنه كان منذ البداية من أولئك الذين أسموهم بالمعتدلين . وقد لبث من ذلك الحين يستمتع في دائرته باحترام عظيم ، فقد وقع الكثير مما تكهن به ، وعده الناس من المتنبئين .

وغير نابليون وبديل في العالم ، ووزع التيجان ، وكان شريك خادماً لتاج منها ، فلقى في خدمته أعظم مظاهر التكريم . ولم يعد أحد جمهورياً ، بل بات الجميع يتملقون العاهل الجديد ، وينكرون أنهم كانوا يوماً من الجمهوريين ، فيزعمون أنهم كانوا أبداً بمعزل عن هذا الزيف الذى تلك الجميع في يوم من الأيام .

كانوا يرون من أشد المعائب أن يكون أحدهم قد فكر يوماً تفكيراً غير ملكي ، فقال شريك حين ارتفعت مرة ضجة الملام ، واحتد الكلام في هذا بين الخيرة من أصحابه : إني لا أجد في ذلك عيباً ، فكلكم قد أصابكم الزكام حين

طاف بكم . وإذا طاف بكم يوماً زكام مائل فسوف يصيبكم مرة أخرى ، فان هذا ممكن جدا .

فصاح به جمعهم : كيف ؟ أتعدنا من الخطائين ، الضعاف ، الهالين ؟ وزاد كل منهم على ذلك قوله : أما عن نفسي فأحسبني لن أقع فريسة سهلة لحي اليوم السياسية .

قال شريك : « إنه لتحضرني قصة سلطان من سلاطين مصر ، كان يخال نفسه جبار الذهن ، فلا يؤمن الايمان الكافي بقصة القرآن عن الاسراء بالنبي محمد إلى السماء ، وقد تعرض السلطان يوماً لهذه القصة في حضرة إمام تركي تعرضاً غير حميد ، وكان معروفاً عن هذا الإمام أنه من يأتون العجائب ، فأخذ على عاتقه أن يشفي السلطان من كفره ، فدعاه إلى أن يغمس رأسه في دنان مملوء بالماء ثم يرفعه من فورده .

« وفعل السلطان ، ولسكنه لم يكذب يضع رأسه في الدنان حتى ألغى نفسه في سفح جبل غير بعيد من ساحل البحر وحيدا بلا مؤنس ، وتصوروا مبلغ فزعه إذ هو على هذه الحال ، فقد أخذ يسب الإمام ، ويقسم ألا يغتفر لهذا الساحر سحره مدى الحياة . لكن ما جدوى ذلك ؟ فسرعان ما استسلم للأقدار ، وكان من حظه أن بضر بناس في غابة وكانوا من الخطابين ، فأرشدوه إلى مدينة واقعة في الجانب الآخر من الغابة . لكنه كان في هذه المدينة بعيدا جدا من مصر ، إذ كانت على بحر قزوين ، وليس فيها إلى ذلك من يعرفه ، وهو لا يجرؤ أن يعلن لأحد أنه من السلاطين .

« وغامر غير مرة ، وساقته مغامراته إلى رجل ثرى فلقى حظوة عنده فزوجه من ابنته الجميلة ، فرزقت منه أربعة عشر طفلا وطفلة ، سبعة ذكورا ومثلها أناثا

ثم ماتت زوجته ، وتوالت عليه المصائب من حرب ومرض ، حتى انطلق أخيراً في شوارع المدينة يستجدي خبزه . وكثيراً ما ذرف الدمع سخياً كلما قابل بين أمسه ويومه ، وبؤسه وعزه ، واعتد نصيبه جزاءً وفاقاً على كفره ، فصمم على التوبة ، وعلى أن يستغفر ربه بالسير إلى مكة حافياً متسولاً .

«وقام برحلته سالماً ، وقبل أن يامس الآثار المقدسة أراد أن يغتسل ويتطهر ، فتوجه إلى الماء ، وخلع ثيابه ، وغطس ثم خرج ، فاذا هو حيال عجبية أخرى . ذلك أنه ما كاد يرفع رأسه من الماء حتى وجد نفسه أمام الدنان بين رجال بلاطه ، وفي حضرة الإمام الذي دعاه يومئذ إلى غمس رأسه في الماء . وعلى شدة عجبه وفرط غبطته من عوده إلى حاله السابقة لم يستطع أن يكبت حقدته وحفيظته على الإمام ، وقد عبث به هذا العبث الرديء ، وعرضه للأخطار والآلام الجسام . لكنه ما كان أشد عجب السلطان حين سمع من حاشيته التي قص عليها قصته بأكملها أنه لم يبرح الدنان ، ولم يزد في مكثه في الماء على بضع ثوان ، غمس فيها رأسه ورفعها لساعته . »

واستطرد المستشار يقول : فشأنكم أيها السادة جميعاً شأن سلطان مصر ، فلو أن أحداً أنبأكم قبل وقوع الثورة بما كنتم خليقين أن تفعلوه في إبانها لما صدقتموه ، فالآن إذ ترفعون رؤوسكم من الدنان تريدون أن تنكروا ما فكرتم في زمن العجائب وما أحسستم ، وكيف عشتم ، فاذا كان مقدراً أن يعود البربون والنبلاء والمهاجرون إلى فرنسا ثانية ، فاني زعيم بأنكم سوف تزعمون أن ما سجله التاريخ منذ سنة ١٧٨٩ لم يقع ، وسوف تقفون أمام الدنان مغتبطين كما وقف سلطان مصر ، وتعتدون سني الشقاء التي مرت بكم حلاً وخداً من الخواس .

فابتسم السادة وقال بعضهم : قد يكون حضرة المستشار محقاً في كثير ،

لكنه أيعتقد أحد جادا أن البربون المساكين يعودون ثانية ؟ إن هذا هو الحال .

فقال شتريك : بل إنه لممكن جدا . وقد شهد المستشار هذا الانقلاب أيضا ، ورأى كيف عاد كل شيء سيرته السياسية الأولى . ولم يكن على رجل من طراز شتريك بأس من هذا الانقلاب ، لاسيما وقد غضب عليه في أواخر عهد نابليون فقد قص الناس أن الامبراطور سمع بأمر شتريك وبصره بالغيب ، فجاءه من قبله قبل خروجه مع الحملة الروسية جنرال وسأله عرضا : ماذا يرى في التجربة ؟ فعجب المستشار الشيخ من هذا السؤال وامتنع عن الرد عليه . فاستغرب الجنرال هذا وقال : أظننا سنحتفل بعيد الميلاد في بطرسبورغ . لكنه يلوح لي يا حضرة المستشار أنكم تخشون جبوط المشروع . فهز المستشار كتفيه كعادته وقال : إن هذا ممكن جدا .

وقال الناس إن شتريك رجل مغفل ، واختفى اسمه على الأثر من قائمة المستشارين . فلما دخلت جيوش الحلفاء فرنسا ، وهدم كل ما بناه نابليون ، قال الناس جميعا : شتريك نبى ! وهذا دائما مصير الحكماء !

وقد كان غضب حكومة « الأدعياء » عليه سببا للحظوة عند حكومة « الشرعيين » . لكنه ما لبث أن جرت عليه البلاء عبارته المشهورة . ذلك أن الأمير الجديد الذى نصب على الأقليم أنفذ إليه من يسر غوره ويقول له إن الناس يتحدثون بأنه مصانع ، لأنه يجد الحظوة عند كل حكومة جديدة ، ولا يخلص لواحدة منها ، فأجاب المستشار هذا المبعوث جوابه الجاف المعهود قائلا : هذا ممكن جدا ، ذلك أنى كنت دائما خادما أميناً للدولة .

وصاح به مولاه لما أن اتصل به الخبر : هذا تناقض صارخ ! فكيف تزعم

أنت خادم مخلص للدولة وأنت تصانع اليوم سيدا « شرعيا » وغدا سيدا « دعيا » .

فقال شريك : ذلك أنى أعنى دائما بأن لا أكون خادما للسيد بل خادما للدولة . فسواء أكان السيد دعيا ، أم كان سيدا يضمم شرا ، فواجب كل صديق شريف للوطن أن يضاعف خدمته للدولة .

فقال الأمير : أى دولة ؟ إنى أتكلم عن الحكومة . أفستطيع أن تفصلها عن الدولة .

قال شريك : كلا يا مولاي . لكنى أستطيع فصل الشخص عن الحكومة . فخدجه الأمير بنظرة مظلمة وقال : أراك تستعمل لغة الثورة ، وهذه لغة لم يعد لها محل ، فاجعل بالك إلى ما أقول . إنى والدولة شئ واحد تقريبا . فأنت لست خادما للدولة ، بل خادمى للدولة .

فأنحنى المستشار ولم يجب بكلمة ، لكنه لم يتض قليل حتى أقبل من وظيفته لتقدم السن ، بيد أنه ظل له مرتبه .

واحفظ فى تقاعده بكل ما استمتع به من احترام ، وبما أحرزه عند الناس من سمعة الرجل البصير .

ولما أراد بعضهم أن يطرى موهبته النادرة لم يتمالك نفسه من الضحك وقال : إن المرء بين العميان خالق أن يصير عرافاً ، وبالعقل والحلم يبلغ المرء مالا يبلغ العميان بالحق والتنايد .

وسأله أحد المعجبين به يوماً : أيمكن أن تدلنا كيف تمت لك هذه الموهبة البصيرة ؟

قال : لى تقرأ المستقبل يجب أن تنظر وراءك لا قدامك ، تنظر إلى

الماضى ففيه مرآة الأنبياء ، لكن وزراءنا يكرهون هذه النظرة إلى الوراء .

وسئل : ماذا تقول فى عصرنا الحاضر ؟

قال : زائل ككل شىء فيه . ولن يعصمه شىء من هذا التنبؤ .

قيل : إذا ترى أن القلاقل والانتقالات لم تنته بعد؟ وقد نفى « روح الشر »

بين جرذان القديسة هيلانه وفيرانها ، أو تعتقد أنه أو مثيله سيعود يوماً إلى

الظهور ويعاود السحر ؟

فهز المستشار كتفيه وقال : « ممكن جدا ، ثم إن «روح الشر» هذا لم يحدث

ثورة أمريكا الجنوبية ، بل أحدث الثورة الفرنسية . وها إن من ييدهم الأمر

يعودون إلى الحرب والتحقيق والتعذيب والخداع الدبلوماسى والتعريض وخلع

الألقاب ، وخلق النبلاء ، ومنح الأوسمة ، وعقد المحالفات ، وما شا كل هذا ،

ليجعلوا السلام بذلك أبدياً . هكذا حدث فى عصر فرانكلين وواشنطن

وعصر الباستيل وعصر دافوست (مارشال فرنسا فى عهد نابليون) ، وبارم

(الكتبي الألمانى الذى حكم دافوست باعدامه) ، ونفس الوسائل والأسباب

تحدث النتائج ، فكونوا على ذكر من ذلك . »

نوفاليس

كتب هذه القصة فريدريك ليوبولد فون هاردنبيرج Hardenberg المشهور في عالم الادب باسم نوفاليس Novalis . ولد في سنة ١٧٩٢ م . ومات شاعراً يغرد في التاسعة والعشرين . ولما استيقظ ذهنه أيقظ خياله خلق في سماء الادب بجناحي نسر . وتوفر على العلوم والفلسفة . وتكلم على شيلر وارتبط بشليجل Schlegel ونفته Fichte بأواصر الصداقة . وشعره يصدح بالنغم الموسيقي وينضح بالصوفية . وتتخلله نبرات الحزن الذي قضى عليه قبل الاوان من موت شقيقه وموت خطيبته ، وكانت زهرة يانعة مذهلة قطافها الموت ولما تكمل خمسة عشر ربيعاً .

السوسن وبرعمة الورد

للساعر نوفاليسى

كان فى سالف الزمان إنسان فى نضرة الصبا يعيش بعيدا نحو الغرب .
وكان هذا الانسان طيبا غاية الطيبة ، عجيبا مع ذلك غاية العجب ، فهو دائم
الحزن فى غير ما شئ ، لا نذ دائما بالصمت ، يلتجئ إلى العزلة حين يلهو الناس ،
ويتعلق أمورا غاية فى الغرابة .

فلمغارة والغابة مقامه المحبوب يتحدث فيه إلى الحيوان والطير ، والشجر
والصخر ، حديث خرافة يثير الضحك . وقد جهد فى تسليته السنجاب والقرود ،
والببغاء والصعور^(١) ، وتعبت كلها فى رده إلى السبيل السوى ، لكنه ظل
الساخت الكئيب .

كانت الاوزة تقص عليه مختلف الأقاصيص ، وكان الغدير يترنم بينها ،
والحجر الضخم يقفز أثناءها قفزات مضحكة كقفزات التيس . وكانت الوردة
تتبعه راضية أينما سار ، وتتسلل فى خصله متوددة ، وكان اللبلاب لا يفتأ يلاطف
جبينه الحزين .

لكنه مع هذا لم يدع الا كئيبا ، ولم يزايله التجهم . فكان أبواه من
جرائ ذلك جد كئيبين ، وكانا أبدا فى حيرة من أمره ماذا يصنعان ، فقد كان
صحيحا لا يزهد فى طعام ، وكانا حريصين على مرضاته ، وكان من سنوات مضت
طروبا مرحا كما لم يكن إنسان ، يرتع ويلعب فى طليعة اللاعبين ، ويفوز بالتفات

(١) عصفور صغير .

الفتيات الحسان . وقد كان جميلا بارع الجمال ، يحبه به الرأى صورة بالألوان ،
حاذقا للرقص كحذق العشاق . وكان فى الفتيات طفلة فاتنة يخالها من يراها قد
صنعت من شمع ، ناعمة الشعر كأنه حرير ، شقرؤه كأنه نضار ، دجاء العينين ،
نامية كالدمية ، قانية الشفتين فى لون العناب ، يتمنى المرء لوفى فى هواها ،
فهذا القدر حسنهما وصباها .

وكان السوسن ، وهو اسم الفتى ، يحب البرعمة ، وهذا اسم الفتاة ، قد
أشرب حبها إلى حد الفناء . وكان سائر الفتيات والفتيات يجهلون أمرها ، حتى
نفضته البنفسجة على الأسماع ، ولحظته القطط لتجاوز البيتين . فكان السوسن
وهو بنافته ليلا ، وكانت البرعمة وهى بنافته كذلك ، تمر بهما القطط فى
طلبها للجرذان ، فتضحك حين تراهما واقفين ، وتغرب فى الضحك بصوت مرتفع
يسمعه العشاقان فيغضبان .

وقد حكى البنفسجة حكايتهما لعنب الذئب ، فقصها بدوره على صديقه
الفرولة ، فجاءت تغمز كما مر السوسن ، ثم لم تلبث الحديقة أن علمت بالأمر ،
وانتشر منها إلى نواحي الغابة . فكان السوسن إذا خرج إليها تجاوبت الغابة
بأغنية واحدة :

برعمة الورد يا حبيبة الفؤاد !

فيغضب السوسن ، ثم لا يلبث أن يضحك حين يرى السحلاة آتية تنسلل
تعتلى حجرا طلبا للدفع ، وتحرك ذنبها كأنها تقول :
برعمة الورد ياطغلتى الحبيبة ،

ماذا دها عينيك من منظر الحبيب ؟
تعانقينه كما لو كان أمّا ،
وتثبتينه فلا ترعوين ،

بل تمنين في تقبيله

ولثم وجه السوسن الغريب !!

لكنه واسفاه! قدولى الهناء، إذ جاء رجل قادما من سفر بعيد الأرجاء،
ذو حية مرسله، وعين غائرة، وحاجب رهيب، وثوب عجيب، كثير التثني،
موشى بالصور. فقعده قبالة بيت السوسن فأثار منظره فيه الفضول. فجاءه يستطلع
جلية خبره، وأتاه بشيء من الخبز والحمر. وفرق الرجل لحيته البيضاء، وأخذ يقص
على السوسن القصص إلى ساعة متأخرة من الليل، والسوسن لا يترشح ولا يترنح،
ولا يدركه التعب ولا الملال.

وذاع فيما بعد أن الرجل الغريب قد حدث السوسن عن بلاد أجنبية، وأصقاع
مجهولة، وأشياء عجيبة، وأنه قضى معه ثلاثة أيام يغوصان إلى الأعماق، وينسابان
إلى الهوى^(١). وبرعمة الورد تصب اللعنات في تلك الأثناء على رأس الشيخ
الذى سحر السوسن واستحوذ عليه، فلم يعد يأبه لشيء غيره، اللهم إلا القليل
من الزاد.

ورحل الرجل بعد إذ ترك للسوسن كتيبا غامضا، وزوده السوسن بالفاكهة
والخبز والحمر، وصاحبه شقة من الطريق، ثم عاد مسلوب الفكر حائل الحياة.
وحزنت البرعمة عليه، وأزعجها جفوته وانقطاعه إلى نفسه.

وفي ذات يوم عاد السوسن فجأة إلى بيت والديه فعانق أبويه، وبكى ثم قال:
«لا بد لي من الرحيل إلى بلد غريب، فقد أهابت بي عجوز الغابة أن أتجعب الصحة،
وأحرق كتيبي وأطعمته النار، ثم دفعت بي إليكما أنشد بركتكما وقد أعود قريبا
وقد لا أعود أبدا. فأبلغا سلامي إلى البرعمة. فقد كنت حقيقا أن أذهب إليها
لولا دافع قوى يدفعني إلى الرحيل.

« إنى كما فكرت فى الأيام الخوالى تطفى على تفكيرى أفكار أقوى .
 فالراحة زابتنى ، والقلب والحب ولياً معها عنى ، فلا بد من نشدانها جميعاً . لوددت
 أن أنبئكم أين مرتحل . لكنى أنا نفسى لا أعلم ذلك . ولعلى ذاهب الى أم
 الأشياء ، إلى العذراء ذات القناع ! فنفسى تذوب حينئذ إليها . فالوداع ! » .
 وانزع نفسه من أحضان والديه ، ومضى فى سبيله إلى مالا يعلم من وجهته .
 ونديه أبواه ، وذرفا عليه الدمع ، والتزمت برعمة الوردة مخدعها ، وجرت
 عبراتها سخينة غزيرة .

ومضى الموسم يقطع الوديان والقفار ، ويعبر الجبال والأنهار ، ولا قصد
 له إلا البلد الخفى . فكان يسأل أينما سار عن إيزيس الإلهة المقدسة : يسأل
 الإنسان والحيوان ، والصخر والشجر ، فيضحك بعضها ، ويصمت البعض ،
 ولا يفوز أبداً منها بجواب .

واجتاز أول الأمر أرضاً وعرة موحشة ، واعترضه الضباب والسحاب ،
 فكان يقتحم مايعترضه ، حتى إذا أتى صحارى رملية لا يدرك الطرف آخرها ،
 وسار فوق ترابها المضطرم الوهاج ، جعلت نفسه تتبدل كلما أمعن فى السير فيها ،
 فزاياله اضطرابه ، وازداد اطمئنانه ، وحال التفزز العنيف فى نفسه تدريجاً ترسلاً
 خافتاً ، لكنه قوى مستحوذ . ولاح له الزمن ، وكأنه عبر منه شوطاً بعيداً .
 ثم عادت الأرض غنية ثانية ، متنوعة ، فاترة الهواء ، مستوية الطريق ، تستهويه
 أدغالها الخضراء إلى ظلالها الفيحاء . لكنه لم يكن يفهم كلامها ، ولا كانت تبدو
 أنها تتكلم ، وإن أفعمت قلبه نضرة ، وأنزلت عليه السكينة والسلام .

وازداد الشوق فى نفسه كل يوم شوباً ، وازدادت أوراق الأشجار على
 الأيام عرضاً ، وربت عصارة ، وعلت أصوات الطير والحيوان ، وازدادت ارتفاعاً

وانشراحاً ، وطابت الفا كبة على مر الزمن نكهة وشفاء ، واشتدت زرقة السماء وحرارة الهواء ، وازداد هواه اضطراباً ، وجعلت الأيام تمر سراعاً ، وكأما هو من غايته قاب قوسين أو أدنى .

وفي ذات نهار صادف عينا صافية ، وطائفة من الأزهار تهبط وادياً بين عمد قائمة اللون تطاول السماء ، فحيت الأزهار تحية طيبة بعبارة يفهمها ، فقال لها يخاطبها : أيتها المواطنات العزيزات ! ترى أين مقام إيزيس وقدسها الأقدس ؟ فإنه لا بد أن يكون في هذه الأرجاء ، وربما كنتن أدري بهذا المكان منى — قالت الأزهار : إننا نعبر هذا المكان عبوراً فحسب ، وننتقم فيه أسرة من الأرواح نهد لها السبيل ونعد المقام . وقد مر زمان منذ هنية بأحدى الجهات ، فسمعنا اسم إيزيس على الأفواه ، فامض صُعداً الى حيث ابتدأنا فستعلم أكثر مما علمت . وابتسمت الأزهار ، وابتسمت العين إذ قالت ذلك وزودته بجرعة منعشة ، ومضت الأزهار في سبيلها ، وعمل السوسن بإشارتها ، فجعل يسأل ويسأل ، حتى بلغ ذلك المنزل المنشود المتوارى بين النخيل ورائع النبات نخفق قلبه خفقاناً شديداً ، وطمع عليه الحنين ، وغمره اضطراب حلو في ذلك القدس الذي تسكنه فصول السنة على الدوام .

وغلبه النعاس في عقب العطور السماوية ، لأن ارتياده قدس الأقداس إنما يكون عن طريق الأحلام .

وعبرت به الرؤيا مخادع لا تعرف آخرها ، وأشياء غاية في العجب ، وأصواتا ساحرة ، مستفزة ، متفاوتة ، متعددة الانسجام ، وكأن ما يرى لا يجبهه . لكن روعته فانت في نظره كل روعة . ثم اختفى عن عينه آخر مظهر لهذه الأرض ، وكأما قد امتصه الهواء ، ثم ألقي نفسه ماثلاً بين يدي العذراء السماوية ، فتقدم فحسر

عن وجهها القناع اللامع الرقيق ، فاذا برعمة الورد تبدهه ، وترتمى في أحضانها .
وصدحت عن بعد موسيقى تحوط أسرار اللقاء الحبيب ، وتصاحب فيوض
الحنين ، وتقصى عن المكان البهيج كل غريب .
وعاش السوسن طويلا بعد ذلك ينعم بعشرة برعمة الورد ، وصحبة أبويه
ورفاقه المبتهجين . ورزقا الأولاد ، وحمد الأحفاد لعجوز الغابة سداد الرأي ،
وفضل النار التي التهمت استبداد المجهول بالخيال الخصب .

ارنست هوفمان

كاتب هذه القصة هو أرنست تيودور أماديوس هوفمان ؛ كاتب وشاعر وموسيقى ورسام . ولد في سنة ١٧٧٦ بمدينة كونيجزبرج من أعمال بروسيا ؛ ودرس فيها الحقوق . وقد تقلد وظائف الادارة والقضاء ، فكان مستشاراً حكومياً في فرسوفيا ومستشاراً بالمحاكم في برلين . أقصاه الفرنسيون عن وطنه بعد دخولهم بولندة ، فاشتغل بادارة الموسيقى في الفرق التمثيلية . وكانت حياته مزيجاً غريباً من العمل المضني المتطوى على الإخلاص ، ومن الاستمتاع البالغ حد الجنون ، ومن الانتاج الفني العظيم . وقد كان مسرفاً في فكاهته ، مقحمأ خياله في وقائع حاضره ، مهلهل للشعر ، منتهكا حرمة . لكنه كان فيه لبياً غاية اللبابة . وتلبيذ تارتي ، من أهدأ قصص هوفمان . وهي تصور ناحية من الشذوذ تصويراً بارعاً قوياً .

تلميذ تارتينى

لأرنست هوفمان

كنت فتى ناشئاً يوم كان البارون فون ب. يقيم فى برلين ، لا أكاد أبلغ السادسة عشرة من العمر ، مكباً على آلتى الموسيقى ، متفانياً فيها بكل قواى . وكان مدير جوقتى ، وأستاذى الجليل « هاك » ، الذى لا تعرف شدته هوادة ، لاينى يظهر لى ارتياحه ، فيطرى براعتى فى الأداء ، ويثنى على صفاء تنغيمى ، فأخذنى آخر الأمر إلى دار الأوبرا ، واستصحبنى إلى الحفلات الموسيقية الملكية أعزف فيها على كمانى مع العازفين .

و كنت بهذه المناسبة كثيراً ما أسمع « هاك » يتحدث مع ديور وريتير وغيرهما من أساتذة الجوقة عن الحفلات الموسيقية التى يقيمها البارون فون ب. فى منزله ، وعما كان يبدى فى تنظيمها من بصر وذوق ، حتى إن الملك نفسه لم يكن يترفع عن المساهمة فيها حيناً بعد حين .

وكان الأساتذة يتحدثون عن ألحان موسيقية مجيدة لأساتذة شيوخ كالألمان يسحب عليهم ذيل النسيان ، لولا البارون فون ب. الذى كان لا يفتأ يحيى ذكراهم فيما يحيى من حفلات . وكان البارون يفتنى مجموعة من موسيقى الكمان هى أكل ما لحن فيها من أقدم العصور ، وكان — فيما تحدث به القوم — رجلاً مضياً جواداً ، حانياً على الفنانين ، شديد البذل لهم ، فهو باجماع رأيهم نجم ساطع فى سماء الموسيقى ببرلين .

وحدث عن الفضول الذى أثارته فى نفسى هذه الأقوال ، فقد كان فضولاً يتزايد كلما أقبل الأساتذة فى الحديث بعضهم على بعض يتهامون ، فلا أتبين

من حديثهم إلا ما يقع في أذنى اللحظة بعد اللحظة من اسم البارون ، ومن كلمات أفهم منها أن هناك تدريسا ودروسا تعطى في فن الموسيقى . وكان يلوح لى فى تلك الأثناء أن على وجه الأستاذ ديور على الأخص ابتسامة ساخرة ، ويخيل إلى أن الجميع يحاولون إحراج مدير الجوقة على نحو ما ، فيدافعهم دفاعا ضعيفا ، ولا يستطيع كتم ما يغالبه من الضحك ، ثم يتولى عنهم ، ويتناول كأنه لاصلاح أوتارها ، وهو يصيح : « إنه رجل عظيم ! وسيظل دائما ذلك الرجل العظيم ! »

وكانما خشيت أن يعن الأساتذة فى إغفالى ، فلم أطق صبرا ، ورجوت « هاك » أن يقدمنى إلى البارون فون ب ، وأن يأخذنى إلى حفلاته الموسيقية ، فصعد فى « هاك » بصره وصوب ، فتوجست من هيئته شرا ، وخشيت أن يهب على من ناحيته إعصار . لكن هذه الهيئة سرعان ما انسرت ، فخال عبوسه ابتساما ، لكنه غريب . قال : « قد تكون على حق فيما طلبت ، ففى وسعك أن تفيد الكثير من البارون . سأكله عنك ، وأعتقد أنه سيأذن لك فى زيارته لأنه يحب أن يتردد عليه النشء من فتيان الموسيقى . »

ولم يطل بنا الأمر ، فبينما كنت أصاحب « هاك » فى عزف ثنائى على الكمان ، إذا به ينحى آلته ويقول : « اسمع يا كارل ! اذهب مساء اليوم ، واركد ملابسك الرسمية وجوريك الحريرين ، ثم عد إلى ، فسندهب معا إلى البارون . إن زواره الليلة قليلون ، وفى هذا فرصة حسنة لتتدليك إليه . »

فكاد قلبى يشب من الفرح ، إذ أملت أن أخبر الليلة أمرا غير عادى ، أمرا غريبا ، ولم أعلم لماذا داخلنى هذا الشعور .

وذهبنا فاذا بالبارون رجل مديد القامة فى غير إسراف ، طاعن فى السن ، يرتدى لباسا رسميا مزركشا من زى قومى قديم . فتقدم إلينا حين دخلنا عليه

الحجرة ، وهز يد أستاذي هزاً شديداً .

ولم أر رجلاً جليلاً داخلني من هيئته ، ومن الارتياح إليه ، ماداخلني عند رؤية البارون ، فعلى وجهه سماء الطيبة في أجلى مظاهرها ، وفي عينيه بريق تلك النار الخفية التي تنم في الفنان عن تغلغل الفن فيه . وقد زایلني التهييب الذي كان من عادتي مغالبته حين يهدد بالاستحواذ على كياني الفتى اللدن العود .

واستفسر البارون « هاك » عن صحته وعاود الاستفسار ، وكأنما انتبه إلى وجودي بغتة ، فقال : « ها ! أهذا هو الفتى الشجاع عازف الكمان الذي حدثتني عنه ؟ » فغضضت من بصرى استحياء ، وشعرت بحمرة الخجل تنتشر على وجهي . ونطق هاك باسمي ، وأطرى مواهي ، وأثنى على ما أحرزت في زمن وجيز من تقدم حثيث ، فقال البارون :

« إذاً لقد اخترت الكمان يا بني ! فهل فكرت في أنها أصعب آلة موسيقية ، وأنها على بساطة مظهرها وعوزها أغنى الآلات جميعاً بالنغم ، وأنها تنطوي على سر عجيب لا ينكشف إلا لقلائل آثرتهم الطبيعة به ؟ هل تؤمن بهذا وتؤمل أن ينكشف لك يوماً هذا السر ؟ — لا أحب لك يا بني أن تزيد قائمة التعمساء الذين ظنوا أنفسهم قادرين على اكتناهاه فلبشوا حياتهم عجزة مساكين . على أنه لك مع هذا أن تعزف أمامي ، وسأصدقك القول عندئذ ، وستعمل بنصيحتي » فنفذت كلمات البارون إلى أعماقي وأحسست منها بالضيق ، وبأنني قد أكون أقدمت على عمل جرىء است أهلاً له حين اخترت أصعب الآلات وأحفلها جميعاً بالأسرار ، وحين تحمسست لها هذا التحمس الشديد .

واستعد الأساتذة لعزف رباعيات « هايدن » الجدد الثلاث ، فتناول أستاذي الكمان من صندوقها ، وما كاد يمر القوس على أوتارها حتى سد البارون أذنيه يديه وصاح وكأنما خرج عن طوره : « هاك ! هاك ! رحماك ! كيف تريد بربك

أن تفسد العزف بهذه المكان المزينة ، الحقيبة ، المقعقة ، المزجرة ١٩ »
وكانت كان الأستاذ مع هذا من أعظم وأبدع الآلات التي استرعت بصرى
راستهوت أذنى . كان « أنطونية ستراديفارية » صميعة لا يغضب الأستاذ شيء
فى العالم كالغض من قدرها ، والتقصير عن أداء الاحترام الواجب لها . فما كان
أشد عجبى عندئذ حين أعاد الأستاذ مكانه إلى صندوقها وهو يتسم . وإذا كان
البارون قد غادر الغرفة مهرولا فقد عاد وعلى ذراعيه صندوق مكسو بالحمل الأحمر
المهدب ، وكأنه يحمل هدية عرس أو طفلا معمدا .

وصاح البارون : « أريد ، أجل أريد أن أوليك شرفا يهاك ! ستعزف اليوم
على أقدم وأجمل كان لى ، فهى « جرانيلية » حقيقية . وصاحبك « ستراديفارى »
تلميذ « جرانيلو » ، هو بالنسبة لأستاذه صعلوك لا أقل ولا أكثر . لم يكن
« تاريتنى » يعزف إلا على كمانات جرانيلو ، فانتبه إذن كى ترضى عنك هذه
« الجرانيلية » فتبذل لك من مكنونها كل بهيج . »

وفتح البارون الصندوق فرأيت آلة بلغت من العمر أرذله ، لكنه كانت
إلى جانبها قوس فى غاية العجب قد أسرف فى تقويسها حتى لكأنها صنعت لرمى
السهام لا لابتعاث الأنغام .

وأخرج البارون المكان من صندوقها فى حفاوة بالغة ، وقدمها إلى الأستاذ
فى عناية فائقة ، فتناولها الأستاذ بمثل هذا الاحتفال .

وقال البارون وهو يربت فى ابتسامه الجذاب على كتف الأستاذ : « أما
القوس ، أجل أما القوس فلن أعطيكمها . فانك لن تفهم كيف تديرها ، وستظل
حياتك كلها لا تدرك كيف تحرك القوس على النحو الحقيقى السليم . »
ومضى البارون يقول : « هذه القوس — وأخرج القوس وتأملها بنظرة

براقة لامعة - أجل هذه القوس قد أدارها تارتيني العظيم الخالد ، وبعده لم يوفق على هذه الأرض الواسعة بأسرها إلى اكتناه سر فنه في تحريكها - ذلك التحريك الزاخر الأخاذ المليء بالنغم - إلا اثنان من تلاميذه : « نارديني » وهو الآن شيخ في السبعين ، لكنه متمكن من الموسيقى الباطنة ، وأنا أيها السادة ، كما تعلمون أنا الوحيد الذي يعيش فيه فن عازف الكمان الحقيقي ، وإن أذخر وسعاً في سبيل نشر هذا الفن الذي خلفه تارتيني . والآن أيها السادة لنبتدىء ! »

وعزفت رباعيات هايدن ، وكان عزفها على الوجه الأكمل ، فلم يترك فيه شيء يشتهي وكان البارون جالساً ينصت مغمض العينين ، يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، فما هو إلا كبح البصر حتى كان منتصباً على قدميه ، متقدماً إلى العازفين ملقياً على المجسدة (النوتة) نظرة يعززها تقطيب الجبين ، ثم إذا هو يرتد رويداً رويداً ، ويرتجى على كرسيه ، ويعتمد رأسه بيده - يئن ويتأوه . ثم ما لبث أن صاح بغتة عند موضع في الأداجيلو Adagio فيه شدو عظيم : قفوا ! يا للالهة ! لقد كان هذا شدو تارتيني ، لكنكم لم تفهموه ! أعيدوا الكرة ! أرجوكم ! .

وأعاد الأساتذة باسمين وهم يتأنون في سحب القسي فتشج البارون وبكى كالطفل ولما انتهت الرباعيات قال البارون : « ألا إن هايدن لا إنسان سماوى ! إنه يعرف كيف يهز النفس هزاً ، لكنه لا يعرف كيف يصنع الألحان للكمان ، ولعله لم يبيع ذلك مطلقاً ، فإنه لو فعل ولحن على الطريقة الوحيدة المثلى محتدياً بمثال تارتيني لعجزتم أنتم بلا شك عن الأداء . »

وجاء دورى ، فوضع لى « هاك » بضعة تقاسيم لأعزفها .
فجلس البارون ملاصقاً لى ، وجعل ينظر في المجسدة (النوتة) ، ولمن شاء أن يتصور بأى ضيق بدأت العزف ، وهذا النقادة القاسى إلى جانبي ، لكنى

مالبت أن ترسلت في حركة بارعة في الأجر و Allegro فسيت البارون وانطلقت أعزف بكل قواي لا يضايقني شيء .

ولما انتهيت ربت البارون على كتفي وقال مبتسماً : تستطيع أن تستمر على الكمان يا بني . لكنني أراك لا تفهم بعد شيئاً في تحريك القوس وأداء الألحان على الوجه الأمثل . إنه لينقصك المعلم الماهر .

وقمنا إلى المائدة ، وكان الطعام معداً في غرفة أخرى ، فأكل منه الأساتذة وشربوا من أجود الأنبذة هنيئاً مريئاً ، وكانت في الحلق ولية فاخرة . وقد كان الحديث يدور حول الموسيقى وحدها ، وكان الانهماك فيه يتزايد ، والبارون يفيض على الأسماع كنز معلوماته الغزيرة . وكان حكمه شديداً سديداً ، لا ينم عن سعة اطلاعه فحسب ، بل يكشف كذلك في صاحبه عن الفنان الكامل اللبيب ذى الذوق . وقد استرعى انتباهي على الأخص قائمة العازفين على الكمان الذين كان يصورهم لنا واحداً واحداً .

وجاء ذكر جارديني Giardini في القائمة ، فقال البارون :

« سامحه الله وأنجاه من عقاب الآخرة . لقد كان هو أول من أكل التفاحة من شجرة المعرفة ، فجعل من كل العازفين بعده خطاة . إنه أول من خلّق ودار كاللؤلؤ . لقد صب همه على اليد اليسرى وعلى أصابعه الوثابة ، لا يعلم أن روح الأنعام إنما هي في اليد اليمنى ، وأن في نبضاتها تتدفق كل الأحاسيس على نحو ما تستيقظ في الصدر ، وتنطلق دقات القلب . إنني لأتمنى لكل لولي كهذا فناً شجاعاً كجوميلى Gomelli يكون إلى جانبه ليصفعه الصفعة الواجبة ويوقظه من جنونه ، كما فعل جوميلى مرة مع جارديني حين أفسد في حضرته لحناً مجيداً بقتزاته وعدواته وهزاته وتهريجاته . إنني أقول لكم أيها السادة إن فن

الكمان الحقيقي سيموت بوتنا أنا ونارديني ...

واستطرد البارون: «وجار نوفتشى Giarnovichy يهزء بتاريتنى أستاذ الأمانة ويترفع عن دروسى . على أن الذى يهمنى هو مصير الغلام « روده » إنه يستمتع بهذه الدروس وإنه ليرجى منه . وليس بعيد أن يحذق العزف بقوسى فى مستقبل الأيام .

«إنه (وهنا التفت البارون إلى) فى مثل عمرك يابنى ، لكنه أكثر منك جذا وأعمق نفساً ، فأنت — ولا تؤاخذنى بما أقول — شاب أرعن فيما يبدو . لكن هذا يزول . أما أنت يا عزيزى هاك فأؤمل فيك الكثير ، فمذ زودتك بدروسى وأنت تحول شخصاً آخر ، فامض فى جدك واجتهادك اللذين لا يدر كهما كلال ، ولا يفتك درس من دروسى . »

كان هذا الذى سمعت عجباً أذهلنى ، فلم أك أتوقع فى حياتى أن أسأل استاذى :
أحقاً أن البارون يعلم أمهر العازفين على الكمان فى عصره وأنه يدرس له هو ،
للأستاذ !

وقد أجبانى هاك بأنه لا يفوته حقاً أن ينفع بدروس البارون ، وأنى أحسن صنعا لو رجوته فى صباح يوم سعيد أن يولبنى شرف هذه الدروس .
وحين عمدت إلى استفسار أستاذى عن مواهب البارون الفنية لم يرد الدخول معى فى تفاصيل ، بل كرّر على أن أفعل ما يأمرنى به البارون أما الباقى فسوف أخبره بنفسى فى حينه .

وابتسم ابتسامة خفية تهلل بها وجهه فأثار بذلك فضولى إلى أقصى حد .
وعرضت رغبتى على البارون فى خضوع ، وأكدت له أن همى تثب بى وثباً ، وأن حماسى لفى لا يعرف حداً ، فتأملنى ذاهلاً ، ثم لم تلبث نظرتة الجدية

أن اكتسبت طيبة الأخيار ، فقال : « يا بني ! إن توجهك إلى ، إلى عازف الكمان الوحيد الذى لا يزال يجوده الدهر ، لدليل على ما يحركك من باعث صميم لا يكون إلا فى الفنان ، وشاهد على أن المثل الأعلى الذى ينشده العازفون الحقيقيون قد بزغ فى نفسك . لكم وددت يا بني أن أسعفك ، ولكن أين الوقت ؟ أين الوقت ؟ فهناك يشغلنى ، وذلك الفتى دوران يريد أن يعزف أمام الجمهور ، فلا معدى له عن دروسى . ولكن ! — انتظر ، انتظر — بين الإفطار والغداء ، أو فى أثناء الإفطار — ولكن لا ، فعندى ساعة أستطيع أن أهبك إياها . تعال يا بني فى الساعة الثانية عشرة تماماً من كل يوم ، فأعزف معك إلى الساعة الواحدة ، إذ يأتى دوران . »

ولكم أن تتصورونى آتياً إلى البارون فى الساعة الثانية عشرة : أما وقلبي يدق . وتناولت كمانى ، وكنت قد أحضرتها معى ، فلم يطق البارون أن أمر القوس على أوتارها بنغمة واحدة ، بل دفع إلى بآلة عتيقة من طراز « أنطونيو أمانى » ولم يكن لى بمثلها عهد . على أنى لم ألبث أن حمسنى النغم السماوى الذى كان يتفجر من أوتارها ، فغرقت فى تقاسيم عامرة بالفن ، وتركت تيار النغم يزخر تارة ويهبط أخرى ، يزخر فى موجات هدأة ، ثم يهبط فى خرير خافت ! وأعتقد أنى أجدت العزف ، وكنت فيه موفقا كل التوفيق ، لكن البارون كان يهز رأسه برماً به . فلما أمسكت أخيراً قال : « يا بني ! يجب أن تنسى هذا كله . فانك أولاً لا تجيد إمساك القوس بحال من الأحوال . » وأزانى عملياً كيف يمسك بالقوس على طريقة تارتنى ، فما شككت فى أنى لن أخرج بهذه الطريقة نغمة تذكر . لكنه ما كان أشد عجبى حين استبنت فى بضع ثوان مزية الأخذ برأى البارون .

وقال البارون : لنبدأ الدرس إذا ! اعزف حرف .. ومد النغمة ما أمكن ،
وأقصِد في استخدام القوس ! أقصِد في استخدام القوس ! فالقوس لعازف
الكمان كالنفس للمغنى .

ففعلت كما أمرنى ، وسرّنى أن وفقت إلى مد النغمة بقوة والصعود بها من
البيا نيسيمو Pianissimo إلى الفور تيسيمو Fortissimo ، ثم الهبوط بها إلى حيث
كانت بسحبة طويلة من القوس . فصاح البارون : أرأيت يا بنى ؟ أرأيت ؟ لقد
وسعك أن تؤدى تقاسيم جميلة . ويسعك أيضاً أن تعدو ، وتقفز ، وتهتز وتأتى
بتلك المزوقات الحديثة المنطوية على البلاهة . لكنك لاتستطيع أن ترسل النغمة
إرسالاً . سأريك الآن معنى إرسال النغمة على الكمان . وتناول منى الكمان ،
ووضع القوس عند رأسها — رأت القوس — ولكن ما هذا ؟ إنه ليعينى الكلام
أعبر به ! حدث !

لقد دفع البارون القوس المرتعشة فى ملاصقة « المشط » إلى أعلى ، فاذا هى
تقعقع ، وتصففر ، وتوقوق ، وتموء — فكانتها عجوز تضع المنظار على أنفها
وتجهد نفسها فى أداء لحن لأغنية .

والبارون فى هذا يرنو بعينه إلى السماء معتبطاً . فلما كف آخر الأمر عن
تحريك القوس صاعداً فوق الأوتار هابطاً ، ونحى الآلة مكانها ، كانت عيناه
تشعان ، وكان يتول فى تأثر عميق : « هذا هو النغم ! هذا هو النغم لاسواه ! »
وغالبنى الضحك فغلبتة من هيبة البارون المتهلل الوجه من فرط الحماس ،
وأحسست كما لو كنت فى جو مسحور ، فضاق صدرى وأعوز لسانى النطق .

وهتلك البارون حجاب الصمت بقوله : « أليس كذلك يا بنى ؟ لقد هزك
عزفى فى الصميم ! أ كنت تتصور أن تنبعث هذه القوة الساحرة من هذا الشيء

الضئيل بأوتاره الضعيفة الأربعة ؟ اشرب يا بني ، اشرب ! »
وملأ لي البارون كأساً من « المديرا » ، وكان لابد أن أشرب ، وأن أتناول
من الخبيز الذي كان على المائدة . في تلك اللحظة دقت الساعة الواحدة ، فصاح
البارون : حسبنا هذا اليوم ، انصرف يا بني وعد إلى قريباً . دونك هذا ! خذ !
ودس لي البارون ورقة صغيرة وجدت فيها « دو كاتا » بولنديا لا معالم تبرحافته
فجريت إلى أستاذي مرتبكا ، وقصصت عليه ما حدث ، فتمقه عاليا وصاح :
أرأيت الآن من أمر البارون ودروسه ما كنت تجهل ! لقد اعتبرك مبتدئا ،
فأعطاك عن الدرس دو كاتا . وبقدر ارتفاع الأستاذية يرتفع الأجر ، فانا آخذ
لويسا (جنيتها) ، ودوران يتناول دو كاتين .

لكنني لم أتمالك نفسي من القول : إنه من شأنهم أن يضحكوا على ذقن
البارون على هذا المنوال . وأن يبتزوا دو كاتا بهذه الطريقة .

فرد الأستاذ على بقوله : « يجب أن تعلم أن هناء البارون كل الهناء هو في أن
يعطى دروسا على هذا النحو الذي اطلعت عليه . أفتريد البارون أن يسمع بنا في
المخافل بأسرها وهو فيها الفصيل والحكم والمرجع المختص بالفن ، ويجرحنا إذا
نحن ترفعنا عن مثل هذه الدروس ، فيقول غنى وعن الأساتذة إننا أدعياء جهلة
يرثي حالنا ؟ والبارن بغض النظر عن لوثة هذه ، رجل يستنير حتى الأساتذة
بحكمه ، ويسترشدون بمعرفته الفنية ، ويفيدون منه فائدة جمة . زره ، ولاتن عن
زيارته ، ولا تصنع إلى لوثة الجنون فيه ، بل استمع إلى المعقول من كلمات رجل
حذق الفن بحواسه وإن جهله بيده »

فكنت بعد ذلك إذا أفرغت قصاراى في حفلة من حفلات البارون ،
ووفقت إلى أداء هذا أو ذاك أداء حسنا ، أدار البارون بصره في الحاضرين
مبتسما مزهوا وقال : الفضل فيما أجاد الفتى لي أنا ، أنا تلميذ تاريتنى .
وهكذا أفدت من دروسه نفعاً ومسرة ، وافتفت إلى ذلك بدو كاته الهولنديه .

الطفلان العجيبان

لشاعر الأملامه ميمه

طفلان جاران من يمتين كبيرين ، غلام وفتاة ، فى سن مناسبة لأن يكونا
يوما زوجين ، تركهما ذووهما يكبران معاً ، وهذا الأمل الطيب رائداهم ،
وارتباطهما فى المستقبل بغية الوالدين . بيد أنهم سرعان ما لاحظوا أن النية تبدو
بعيدة التحقيق ، وأن بين الطبيعتين الباهرتين نفورا غريباً . لقد كان كلاهما
شبيهاً بالآخر : فكلاهما كتوم ، صريح مع ذلك فيما يعلن من مشيئته ، ثابت
فى عزمه ، محبب إلى رفقاءه ، مكرّم منهم ؛ وكلاهما مناهض للآخر كلما التقيا ،
بان لنفسه ، هادم لما يبنى الآخر كلما تقابلا ، لا يسهيان إلى هدف واحد ، ولكن
يقتتلان لغرض واحد ، كلاهما دمث رقيق الشماثل ، جتود مشارّ ماقام بينهما أمر
هذا الموقف العجيب بدا فى ألعاب الطفولة ، وبدا وكلاهما تنمو به السن .
وكما كان الغلمان تعلن الحرب ، وتنقسم إلى فرق ، وتدير المعارك ، كانت الفتاة
العنيدة الباسلة تتولى قيادة جيشها ، وتقابل الجيش الآخر بعنف ومرارة تكاد
توقع به الهزيمة ، وتلحق به عار الفرار ، لولا أن يصمد خصمها بمفرده ، ويتشبث
بمسالة ، فيجرد خصيمته من سلاحها آخر الأمر ويأخذها أسيرة . لكن ههنا
أيضاً كانت تدافع وتستमित حتى ليمزق رباط رقبته الحريري ليشد به يديها إلى
الظهر ، مخافة أن تفتأ عينيه أو يناله منها أذى .

ولم تغفر له هذا قط . فقد كانت تدبر له فى الخفاء التدابير ، وتسعى جاهدة

إلى إيدائه . وكان الوالدان يرقبان هذه النزوات العجيبة ، ويجعلان إليها بالها من زمان . فتفاهم أبوا الغلام وأبوا الفتاة ، وقرروا الفصل بين رهنى العدا ، وقطعا الرجاء .

وصعد الغلام فى ظروفه الجديدة ، وأصاب من العلم حظاً عظيماً ، ووجهه أولياؤه وميله الخاص إلى مهنة الجندية . وكان محبباً حيثما كان ، موضع التجارة والتكريم ، تواتى الغير طبيعته الحاذقة ، وترضى عنه سائر الناس . وكان فى نفسه راضياً سعيداً أن بعد عن الخصم الوحيد الذى اختصته به الطبيعة ، ولم يكن وعيه لهذا ظاهراً بل كان شعوره به خافياً باطناً .

وتبدلت الفتاة تبديلاً فجائياً ، وأقصاها عن العنف مضى السنين ، والتقدم فى التعليم ، وشعور باطن خاص ، فكفت عن حماقات ذلك الزمان . ولاح على الجملة أن شيئاً ينقصها ، فلم يكن فيما حولها ما يستحق بغضها ، ولم تقع بعد على شخص رقيق .

ولاح فى أفتها شاب ذو مركز وثروة وشأن ، يكبر جاراها السابق وخصمها فى ذلك الأوان ، يحبه المجتمع وتطلبه الحسان ، فاتجه إليها بكليته ، ومال إليها كل الميل . وكانت هذه أول مرة يخطب ودها فيها صديق وحبيب ، وخادم يتفانى فى خدمتها . وأرضاها أنه آثرها على الكثيرات ممن يكبرنها سناً ، ويفضلنها علماً ، ويقفنها تألقاً وطموحاً . وكان دائب الالتفات إليها ، بعيداً مع ذلك عن التهافت عليها ، وكان لها معيناً صادقاً حيثما صادفها ظرف أليم . وكان خطبه إياها على غير مشيئة والديها ، إذ كانت ما تزال صغيرة غريرة ، لكنه كان تقرباً هادئاً عامراً بالآمال . كل هذا حبيباً إليها ، وزاد فى حبها ما أذاع بين الناس عن مظهر علاقتهما ، فكثيراً ما سميت عروساً حتى باتت تعتمد عريسها .

ولم يدر بخلدها أو خلد غيرها أن ثم امتحانا تعده الأيام يوم بادلت الخاتم ذلك
الذى عدّه الناس من زمن خطيبها !!

وكان المجرى الذى اتخذته هذه العلاقة هادئا وثيذا ، فلم تعجل به حتى
الخطبة . فكان الفريقان يتركان كل شىء يسير سيره ، وكانا مغتبطين
بالعيش المشترك ، يعتدان هذه الآونة من هنائهما ربيعا للحياة المستقبلية ، ينعمان
به قبل أن يجد جد الحياة .

فى تلك الأثناء كان « الغائب » قد أضفى عليه الحسن حلة سابعة ، وصعد
فى الحياة درجة مستحقة ، وجاء مستأجرا ليزور ذويه . ووقف حياال جارتته
الحسنة موقفاً طبعياً لا غبار عليه ، لكنه كان مع هذا موقفاً مستغرباً . فهى
لم تكن فى آخر وقتها تكن سوى مشاعر الأسرة والعرس والصدقة ، فكانت
تعيش فى جو من الوفاق مع من حولها ، راضية عن كل ما يحيط بها . كانت
تؤمن بهنائها ، وكان لا يمانها بهذا الهناء ما يبرره . لكن هاهو ذا شىء يعود
إلى مواجهتها الآن وكان انقطع عن مواجهتها من زمان بعيد ، شىء لا يثير
حقدها ، لأنها لم تعد خليفة باستشعار الحقد ، لكن الحقد الذى كان فى عهد
الطفولة مجرد وعى مبهم لقيمتها الباطنة ، قد اتخذ الآن صورة من الدهشة
الممزوجة بالفرح ، والتأمل الموموق ، والاعتراف المواتى ، والتقرب تارة طوعاً
وتارة كرها ، ثم هو مع ذلك تقرب لاغنى عنه ، يتعاقب فيه الإقدام والإحجام
والرضا والتحفظ . والغيبة الطويلة تخلق الأحاديث المستفيضة ، حتى عبث الأطفال
الذى زاولاه كان باعثاً للذكرى ، وداعياً لتفككة المستنيرين . وقام بنفسيهما
أن على كليهما أن يصلح بالصدقة والاتفات ما فعل الحقد والنكايه القديمان .
أما هو فأبقى من جانبه كل شىء مفهوما مرغوباً فيه . فقد كان له من

مركزه ، وأحواله ، وسعيه ، وطموحه ما يشغله شغلا كبيرا ، فلم ير في تودد العروس الحسنة غير تلطف خليق بالشكر ، تلقاه بالارتياح ، ولم يجعل منه علاقة بينها وبينه ، ولم ينفسها على خطيبها الذي كان الود بينهما على أشده .

أما هي فكان أمرها يخالف ذلك . فقد خيل إليها أنها استيقظت من حلم ، وأن منازلها جارها الفتى كانت عاطفتها الأولى ، وأن جهادها العنيف الذي اتخذ صورة الخصومة قد كان ميلا فطريا شديداً . كذلك لم تذكر بتاتا أنها فعلت شيئا لم تكن فيه تشعر بحبه . فابتسمت لهذه المطاردة العدائية والسلاح بيدها ، وتلمست أحب المشاعر من محاولته نزع هذا السلاح ، بل لقد تصورت أنها شعرت بأعظم غبطة ساعة أن كان يقيد يديها ، وخالت كل ما كانت تصنعه لا يذائه ومضايقته وسيلة بريئة لا غير لتسترعى التفاته . وقد لعنت ذلك الفراق الذي شتت الشمل ، وذلك السبات الذي خيم عليهما ، وذلك الظرف الذي هيا لها مثل عريسها التافه . لقد تحولت ، تحولت تحولا مزدوجا إلى الأمام وإلى الوراء ، كما تشاء .

ولو نبي أحد هذه المشاعر التي كانت تسبقها مطوية ، ولو شاطرهما إياها ، لما صدف أحد عنها . ذلك أن عريسها لم يكن على التحقيق ليقف أمام جارها صامداً في مقابله . وإذا كان أحدهما لا يُضن عليه بشيء من الثقة ، فقد كان الآخر يبعث في النفس الثقة التامة ، وإذا كان أحدهما تُستحب عشرته ، فالآخر يُحرص على رفقته ، وإذا فكر المرء في مواساة كريمة أو حالات عظيمة شك في موافاة أحدهما ، على حين يحدوه اليقين من ناحية الآخر . وللنساء كياسة فطرية خاصة في مثل هذه الأحوال ، تنهيا لهن الأسباب والفرص للسير بها إلى غاياتها .

كانت العروس الحسنة كلما غدت هذه الأفكار في الخفاء ، عجز أى إنسان كائناً من كان عن إبداء ما يمكن أن يكون فى مصلحة العريس ما تقتضيه الأحوال ، ويقتضيه الواجب ، وتتطلبه الضرورة القائمة ، وأمعن قلب الحسنة فى تحيزه إلى جانب واحد . وبينما هى مرتبطة من ناحية ارتباطاً لافسكك منه ، بالعرف والأسرة والعريس وموافقاتها نفسها ، إذا بالشاب الذى يرقى سلم الحياة لا يخفى ، من جهة أخرى ، شيئاً من أفكاره وخططه وفرصه ، ولا يعدو أن يكون لها الأخ المخلص لا المحب .

وهو إذ يتحدث عن مفره العاجل ، يلوح كائناً أيقظ فيها روحها الطفلى السابق بكل تبيئاته ومعانفه ، وسلحه بالعناد ليكون فى مرحلة أعلى من مراحل الحياة أخطر شأنًا وأشد أذى . وقد قررت مفارقة الحياة لتعاقب من أبغضته طفلاً ، وأحبته الآن حباً جماً ، على قلة الاكتراث ، وليكون لها على الأقل خياله وندمه بعد أن عز عليها امتلاكه ، ولتلازمه بعد ذلك صورتها الميتة ، ولا تكف عن تعنيفه ولومه . على أنه لم يدرك تفكيرها ، ولم يكتبه ، ولم يقدره .

وقد لازمها هذا الجنون العجيب أينما حلت ، فأخفته تحت مختلف الصور . ومهما تبدى للناس من غرابتها ، فإن أحداً لم يكن من دقة الملاحظة أو نفاذ البصيرة بحيث يدرك السبب الباطن الحقيقى لهذه الغرابة .

وكان الأصدقاء والأقرباء والمعارف ينهكون قواهم فى تلك الأثناء فى سلسلة من الحفلات . فنذر أن مر يوم من دون شئ جديد مفاجئ ، ونذر أن بقيت بقعة شائقة من بقاع الطبيعة من غير أن تزين وتستعد لاستقبال الضيوف الكثيرين الفرحين . وكذلك لم يفت زائرنا الشاب أن يقوم بقسطه قبل سفره ، فدعا العروسين الشابين ومعهما دائرة ضيقة من أعضاء الأسر الثلاث إلى نزهة

نهرية فركبوا سفينة كبيرة جميلة تختال على الماء في زينتها الأنيقة ، يختا من تلك الينخوت التي تحتوى بهوا صغيراً وبضع غرف ، وتنقل راحة البر على سطح الماء .

ومضوا في النهر الكبير بين عزف الموسيقى . ولأدت الجماعة من قيظ النهار بالغرف السفلى ، واستمتعوا بلعب الذهن ولعب الحظ . ولم يكن المضيف الشاب يستطيع جهوداً ، فجلس إلى الدفة ليخلى الربان الشيخ من نوبته ، وييسر له هجعة إلى جانبه .

وإذ تبلغ السفينة موضعاً تضيق فيه جزيرتان من حوض النهر ، وتمتد فيه حوافيهما الحصبائية المنبسطة تارة في هذا الجانب ، وتارة في ذلك ، فتجعل طريق الملاحة محفوفاً بالأخطار ، تنضاعف حاجة مدير الدفة الشاب إلى اليقظة . وكاد أن يتعرض الشاب ليقظ البصير للتجربة ، فيقوم في نفسه أن يوقظ الشيخ ، لكنه عاودته ثقته بنفسه ، وأدار الدفة صوب المضيق .

في تلك اللحظة ظهرت على سطح الماء عدوته الحسناء ، يتوج رأسها إكليل من الزهر ، نخلته عن شعرها ، ورمت به مضيفها وهو يدير الدفة ، صائحة به : « خذ هذا الإكليل على سبيل التذكار » . فأهاب بها وهو يتلقى الإكليل أن : « لاتزعجيني فاني بحاجة إلى كل قواي ، وكل انتباهي » فصاحت : « لن أزعجك بعد الآن ، ولن تراني ثانية ! » وما إن قالتها حتى هرعت إلى مقدم السفينة وقفزت إلى الماء ، فتصايحت الأصوات : الغوث ! الغوث ! إنها تغرق ! فوقع الفتى في أعظم حيرة . واستيقظ الربان الشيخ على الجلبة ، وأراد أن يتناول الدفة من يد الشاب . لكن السفينة لم تكن بحاجة إلى تغيير الربان فقد جنحت .

وفي نفس اللحظة تخلص الشاب من ملابسه الثقيلة ، وقذف بنفسه إلى قلب الماء ثم سبح في إثر العدو الحسناء .

والماء عنصر ودود لمن يعرفه ويحكم قياده . فحمله على ظهره ، وتمكن منه السباح الماهر ، فسرعان ما بلغ الحسناء المجروقة ، وأمسك بها ، وانتشلها وحملها . وجرف التيار كليهما قويا مندفعاً حتى باتت الجزر من خلفهما ، وبدأ النهر يعرض وينساب رقيقاً متئداً . فأخذ يدعم شجاعته أولاً ، ثم جبل يفيق من المحنة الأولى التي فرضت نفسها عليه ، وجعته يتصرف تصرفاً آلياً من دون وعي . فأدار بصره فيما حوله ، وهو يرفع رأسه ، واتجه على قدر المستطاع نحو موضع دغلٍ منبسط يمتد في النهر موافقاً مقبولا . وهناك وضع غنيمته الجميلة على اليابس . بيد أنه لم يكن فيها نفس يتردد ، ولا يدل شيء فيها على الحياة ، فتملكه اليأس وكاد أن يقنطه ، لولا أن لمح طريقاً مطروقاً بين الأدغال ، فحمل من جديد حمله الغالي ، فلم يلبث أن وقع بصره على مسكن منعزل فاتجه إليه .

ووجد أهله من خيرة الناس ، زوجين شابين سرعان ما ألما بالمصائب وأدركا الضائقة ، وبادرا إلى الشاب بكل ماطلبه ، فأوقدا ناراً ، وقدما فراشاً بأغطية من الصوف . وحملا إلى المصابين الفراء والجلود وكل ما يدفىء مما عندهما . وكانت لهما على الإنقاذ تضافى على كل تفكير آخر . فلم يدخرا شيئاً يعيد الحياة إلى الجسم العارى الجميل شبه المتصلب . — ونجحا . ففتحت عينيها ، وأبصرت الصديق ، وطوقت عنقه بذراعيها البديعتين . ولبثت على هذه الحال طويلاً وسيل دموعها ينهمر ، ويكمل شفاءها . وصاحت : « أتريد أن تتركني وقد وجدتك ثانية ؟ » قال : كلا ، كلا ! ؛ دون أن يدرك ما قال أو ما فعل . ثم أضاف إلى ذلك : « فقط هدئي روعك ، وفكري في نفسك من أجلك وأجلي معاً » .

ففكرت في نفسها ، فتبينت الحالة التي كانت فيها ، فلم يعرها خجل من حبيبها ومنقذها . لكنها سرحت لهي بأمره ، فقد كان كل ما يحيط به مبلا يقطر ماء .

وتشاور الزوجان الشابان . فقدم الزوج إلى الشاب والزوجة إلى الفتاة حل العرس ، وكانت معلقة كاملة لتكسو زوجين من الفرع إلى القدم ، ومن الداخل إلى الخارج . وما هي إلا برهة وجيزة حتى كان المغامران مكتسبين ، بل عليهما زينتاهما أيضا . وكان منظرهما شائعا حين تلاقيا ، كل من حيث أتى . فنظر كلاهما دهشاً إلى الآخر ، وتعانقا مشغوفين ، وهما يبتسمان ابتسامة واهنة لهذا التكرار . وأعادتهما قوة الشباب وحمية الحب في لحظات قليلة إلى ما كانا عليه ، ولم تنقصهما إلا الموسيقى لتدعوها إلى الرقص .

لقد انتقلت من الماء إلى البر ، ومن الموت إلى الحياة ، وانتقلت من بين الأهل إلى موحشة ، ومن اليأس إلى الغبطة ، ومن قلة الاكتراث إلى الميل ، إلى الهوى — كل ذلك في لحظة . أفهل يقوى رأسها على احتمال ذلك ؟ إنه يكاد أن ينفجر أو أن يلم به الخجل . لكن القلب هنا يقوم بوظيفته خير قيام ، ويعين على احتمال مثل هذه المفاجأة .

وقد فنى أحدهما في الآخر برهة ، ثم فكرا فيما يساور المتخلفين من خوف وغم ، فسرعان ماعراهما الخوف من لقاء هؤلاء ، وساورتهما الهموم . فقال الشاب : أنهرب ؟ أتتوارى عن العيون ؟ وقالت الفتاة : « لنبق معا » . وتعلقت برقبته . وقد كان رب البيت ، حين سمع منهما قصة السفينة الجانحة ، يادر إلى الضفة من دون أن يستشيرهما . فرأى السفينة مقبلة في سلام بعد أن بذل في تعويها جهد كبير . وكانت تضي على غير هدى ، يحدوها الأمل في الاهتداء إلى المفقودين .

فنادى الرجل ركبها ولوّح لهم يسترعى انتباههم ، وجرى إلى موضع يصلح
للرسو الأمين ، لا يقطع له نداء أو تلويح ، فعرجت السفينة على الضفة ، فياله من
منظر ، منظر النزول !

وقد هرول أبوا الخطيب وأبوا الخطيبة ، وسبقوا الغير إلى الضفة . وكان
العريس من هول الأمر في ذهول . وما أن علموا أن المفقودين موجودان حتى
كان هذان يخرجان من الأدغال ، وعليهما حللتا العرس ، فلم يميزهما أحد حتى
اقتربا . فصاحت الأمان : من أرى ؟ وصاح الأبوان : من أرى ؟ وارتقى
الناجيان عند أقدامهم . وصاح كلاهما : طفليكم ! وصاحت الفتاة : غفرانكم !
وصاح الفتى : امنحونا بركتكم ! وصاح كلاهما : بركتكم ! والناس من حولهم
صمّ ، ذهول . ورن الرجاء للمرة الثالثة : بركتكم ! فمن عساه بها يضمن ؟

الهندي الأحمر

للطبيب الإيطالي فرنس مبلر

قدم الطالب نفسه بقوله : روبرت سنو ، وانحنى قليلا . وكنت قد رأيته قبل اليوم مرات ، فهو أكبر من رفاقه منا ، وأقربهم بطلب العلم عهدا . له وجه برونزي لا ينال الشتاء من برونزيته . وله عينان غويرتان تلتمعان في إظلام وقد بتنا صديقين ، ولا أعلم كيف تم ذلك : صداقة صامتة بادية الأمر ، فكان أحدهما يحكي الآخر ويتسم له ، وكنا نتصافح ونحن جلوس في قاعة المحاضرة . كان هذا كل شيء . ثم حدث أن كان يفتش عن مسكن فقلت له : بجانب غرقى غرفة خالية ، فاستأجرها . ثم كان أن أخذ يختلف مساء الى حجرتي يتناول معي قدحا من الشاي فأجرى الشراب الساخن لسانه قليلا قليلا . وإذ أسأله مرة : أتعرف علام أغبطك يا مستر سنو؟ قال . علام؟ وابتسم . قلت : على لونك البرونزي العجيب . فانه لتكاد تكون لك سحنة الهنود الحمر . قال حينئذ : وإني لكذلك فأنا منهم . ثم جعل يفضي إلى بمكنون صدره : لقد كان عند البحيرات سكينته ، والى الغاب ملجأه ، وفي الحيوان أنيسه ورفيقه ، وفي الماء أخوته .

قلت : ولماذا استبدلت الجامعة بهذا كله ؟

قال : تحدث ذات يوم مبشر إلى أبي بآني ذكي الفؤاد ، وأن من الضر أن

تفترسني الكتابة عند بحيرة هورنين

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ثم أتيت إليكم . وعاوده الوجوم .

وسألته أنا في شيء من التحرج : وهل أرضيتك ثقافتنا ياسيد سنو ؟
 قال : « كانت بادی الرأي كالسكرة : منازل وطرق وآلات وآلاف
 الأعاجيب المؤلفة مما لم تحدثني عنه موجات بحيرة هورنين . فكنت أمشي
 مذهولاً بين كل أولئك ، وأتحمسها وجلاً بأطراف أصابعي . فأما ان ما رأيت
 لم يكن حاملاً فذاك ما تعرفه . »
 « بلى »

« كانت عجيبة العجائب أن أشهد آلة السفينة التي تحملني فوق المحيط .
 وإني لو اقف حياً لها يوماً إذا بحر كتها تذهلني ويلوح لي وقعها أهول من وقع
 الأمواج في بحيرة هورنين . ثم خلتني من أمرها حيال جليل من عمل الآلهة .
 وأظنني قد صليت يومئذ لقوتها الخاطفة . . » ثم غيبته أحلامه فلم أشأ إزعاجه .
 وبينما هو يحيل ماعته في قدحه فتسمع صوتها الخافت ، إذا به يستأنف الحديث
 فيقول : « لقد قارب هذا أن يكون أروع من أعاجيب بحيرة هورنين ، فتلك أقل
 شأنًا لو تعلم ، فقد كان يرضيني أن يأخذ بصري في طريقى إلى البحيرة ريشة طائر
 زاهية اللون ، تطالعي بتحية الصباح ، فأهتف بها : ها أنت ذى ! وأمرها في رفق
 على جيبني ثم انتظر ريثما تهب الريح فألقى بها في مهبها تحملها إلى حيث تريد . »
 قلت : « ما أروع هذا ! »

قال : « لكن أشياءكم كانت أروع منها . »
 قلت : « ولماذا كانت ؟ ألم تعد كذلك ؟ »
 قال متجهمًا : « كلا ياسيدى . فقد قتلها الإيضاح . »
 قلت مستوضحًا : « الأيضاح ! »
 وهنا نهض وألقى إلى بتحية المساء على عجل .

لم أتم تلك الليلة طويلاً ، ولم يكن لى الى النوم سبيل . وكيف أنام وكلمة الهندى لم تبارح غرايتها وعيى . فلما كان اليوم التالى جلسنا فى المعمل جنباً إلى جنب ، وكانت بطاريات الزجاج قائمة فوق الخوان ، ومصباح بونسن ملتهباً فى زرقة تسكاد تخطئها الأبصار ولم يكن الأستاذ قد حضر فقال لى جارى : « ألم تتأمل مرة الصبورة الكبيرة القائمة هناك ؟ »

قلت : « بلى . فقد أثبت عليها مائة معادلة ونيف . »

قال : « لست أعنى هذا . وإنما أعنى وجه الصبورة . »

قلت : « وجهها » وحولت وجهى شطرها دفعة واحدة فاذا أبخرة الأحماض التى لازمت المكان سنين قد نالت من الصبورة ، وخلفت على وجهها آثاراً بيضاء وأشكالاً دقيقة وما هو فى عداد الرسوم والشكول . فلو تأملها امرؤ ولم يجعل باله إلى المعادلات لبدده منها حدود وجه . فقلت : « أجل . لكن مما أغرب هذا ! فإنه ليلوح لى حقاً أنه وجه . »

قال جارى جادا : « وهل تعلم أى وجه هو ؟ »

قلت : « لا . فالأمر لا يعدو أنه محض اتفاق و . . »

قال وقد أخذ على سبيل الكلام : « انه وجه العلم قد صورته التفسيرات الكاوية . وإنه لوجه عبوس لا أثر للرحمة فيه . »

ودخل الأستاذ عندئذ وأنشأ يحاضر . فظلت كلماته وإشاراته عندى لغوا برهة من الزمن كنت فى غضونها أفكر فى كلمات جارى « وجه العلم العبوس القاسى » فأصوب بصرى إلى الصبورة متخطياً أستاذى لأرى وجهها عبوساً حقاً . أما انه غير رحيم ، وان التفسيرات الكاوية خلقتة . . ! ! ألم يقل أمس جادا أن لا ايضاح قد قتل فيه شعور الأكابر .

وهنا أخذت استبين في شيء من الغموض ما كان يحول في رأس الهندي
إذ ذاك . وبيننا نحن في طريقنا إلى البيت قلت لصاحبي : « إني أستطيع الآن أن
أفهمك . »

قال : « لا . فما كان هذا ليسمعك وأنت لم تعرف يوماً غير ما تعرف الآن .
فلقد ولدت في هذا العالم — عالم العلوم . أو ماذا كنت صانعاً بربك لورأيت
منجلاً يحصد أزهار المروج ؟ انك لم تتألف الأزهار ، ولم ترتفع بينك وبينها
كلفه . انك لم تضطجع على العشب ، ولم تناج أعواده كما نتاجي نحن الآن ، وكما
يمكن أن يتناجى عودان . فأما لوحاتكم فلم تشهد منذ نشأتها إلا المعادلات ،
وإلا هذا الحرف أو ذاك . وأما لوحاتنا عند بحيرة هورنين فالأذرع الممدودة ،
وأعين الطبيعة المبصرة . وآلهتنا التي تتمثل لنا صاعدة من .. » وكف بغتة عن
الكلام كأنما قطع عليه قطعاً ، وبدا كأنه قد خجل من قول ما قال ، فودعني
على عجل ، وانصرف في طريق أخرى .

فلم آخذه بنا صنع ، فقد كان متأثراً وكان مكروباً . لكن بابي دق مساءً
ودخل على السيد سنو على غير انتظار .

قال : « لاريب أنك تغفر لي أنني كنت معك فظاً . » فكان بديلي من
الجواب ان قدمت إليه الشاي ، فجعل يرشفه متثدداً ، ويرسل إلى نظراته عبر حافة
القدح . وعيناه تبدوان لي في تلك الأثناء أبعد غوراً .

قال : « لقد كان الأخلق بي أن أكون رابط الجأش بارداً كالثلج ،
فذلك انسمى ^(١) كما تعلم وإن لم يكن من صنعى ، فهذا هو ما أطلقه المبشر على »
فظامنت برأسى موافقاً .

قال مستطردا الحديث : « وأنا رجل تام الهدوء عادة لكنني لما كان
الإيضاح ينضى عن كل شيء طلاوته . . »

فقاطعت به بقولي : « قل لي ياسيد سنو ! لماذا تدرس في الحق ؟ »

قال : « لقد — لقد تعهدت بذلك . فقد زودني المبشر الهرم بلمال ، وكان
إليّ محسناً ، فلم تكن لي ندحة عن أن أعده بالدرس . »

قلت : « ولكن لماذا تدرس العلوم بالذات ؟ »

قال : « لقد قالوا لي أن لي استعدادا خاصاً لها . لكنهم غفلوا عن مصادر
هذا الاستعداد . فلم يعرفوا أن من الخيال قد تنشأ الرياضيات فحتموا عليّ أن أقتل
بالرياضيات معيني ، ولن أفعل ذلك . أجل لن أفعل ذلك . » وعادت عيناه
تلتمعان . وعاد يقول : « ثم جردوني من أحلامي فلم يذروا لي منها شيئاً . كانوا
يقولون لي : أرأيت أن هذا من ذاك ، وهذا منشؤه ذاك ، والماء ماهو إلا اتحاد
ذرة الأوكسجين بذرة الهيدروجين ، والهواء مؤلف من كذا وكذا ، ومساري
الكواكب هليجيات ، وجسم الزنبقة مكون من كذا هيدرات الكاربوليك
وكذا نيتروجين ، وآلة السفينة يمكن حسابها ، والونش ليس بيد آله وإنما ذراعاً
عتلة يجر كها البخار . كل شيء بدا لي عادياً مجرداً فتمسكتني التشعيرية . »

قلت : « إنك تسيء إلينا ياسيد سنو إذا اعتقدت أن ليست لنا آلهة . »

قال : « بلى . بلى . أعرف ذلك . إنك تعني الكنيسة — وقد دخلتها أيضاً
لكن شعيرتي منها كانت أبلغ من شعيرتي من المعادلات . »

قلت : « وشعراؤنا ؟ »

قال : « إنهم يعبثون بالآلهة ولا يؤمنون بها . ولقد أصغيت إليهم وهم

خالون الى أنفسهم فرأيت ابتسامهم كلما ذكرت الالهة التي كرموها في شعرهم. »

قلت : « ألم تفكر أبدا ياسيد سنو انه قد يكون للعلم أعظم هيبة ؟ »

قال : « أجل قد يكون . لكنه ليست له تلك الهبة العظمى . يتحدث الناس عن العلم بأنه اسمى إله ويقولون إن أغواره لا تسبر . ثم تراهم يسلخون جلده ويجردونه من كل حياء . »

قلت : « حياء ؟ »

قال . « أجل . ألم تسمع عن كيميائنا الشهير قوله إن خلقنا مانسميه الحياة من كذا أحماض وكذا قلويات ومما لا أعلم ماذا أيضا ، أمر رهن بالزمن وحده ؟ »
فرأيت أن جاري يذهب في الأمور مذهبا لا يتحول عنه ، فلا جدوى من وراء حمله على غيره . واجتزأت بتعزيتة فقلت :

« أحصل على إجازة الدكتوراه أولا ثم أنت حر بعد ذلك . ان شئت لم تلق سمعك الى محاضره ، ولم تصدف عن دنياك التي تريد ، فتقر بذلك عينا . »
فابتسم وذهب كل منا إلى فراشه .

انتهى الامتحان وحصلنا على إجازة الدكتوراه ، وكانت فترة مرهقة أجهدنا أنفسنا فيها جميعا إلا سنو فقد أحرز إجازته في غير عناء تقريبا ، وكأنا إحرازها لم يكن البغية التي نشدها أو كأنما هو أمر لم يعلق عليه كبير شأن . بلى لقد وعد بأحرازها ، لكن عينيه كانتا أبدا تتجهان إلى الفضاء : الى غرض آخر لم يكن يستطيع أن يستشفه .

لقد جعل كل يوم يزاد انطواء على مافي نفسه . وقد كان ذلك المساء الذي قضاه في غرقى آخر عهدي باكتناه أفكاره . وكان وجهه يزاد على الأيام عبوسا

واكفهرارا كوجه العلم على الصبورة . فهجست بنفسى الهواجس خوفا على مستقبله .

وقد أعقب الامتحان احتفال صغير فى قاعة المحاضرات الكيميائية فخطبنا عميد كليتنا مودعا . وكان سنو يجلس إذ ذاك على مقعد أمامى ، فرأيته أثناء خطاب العميد يتبع ذبابة على نافذة باهتمام . وحين قال الخطيب : « ان لنا أن نسمى القرن الحاضر قرن العلم بحق » انصرف سنو عن ملاحقة الذبابة وجعل ينصت الى العميد الذى استطرد يقول : « على أن المرحلة الراهنة ليست بأخرى مراحل العلم فان هنالك واجبات يجب أداؤها . هنالك مما وراء المادة ومن العضلات ما على العلم أن يقهره . . . »

وهنا رأيت قامة سنو تتصلب .

واستمر الخطيب : « واذن فليس لنا أن نهبدأ حتى نعقد للعلم على الأرض لواء الظفر ، وحتى نقصى الأصنام العتيقة عن آخر حرم لها ، وحتى . . . » ولم يكذ ينطق بها حتى دوى فى القاعة صوت بصرخ . « وماذا تركت للشيطان ؟ » فجمد الدم فى عروقي أو كاد ، فقد كان سنو هو قائلها والقافز على أثرها يطلق من صدره أصواتا كالصفير ، أصواتا لا عهد لى بها ، ولا بد أن الناس فى قريته يطردون بها كل شيطان .

واختطف سحر دواة طوَّح بها ، فعجل العميد بالنزول عن المنصة ، وأصابته الدواة الصبورة ، فتحطمت عليها وسال المداد على وجه العلم .

وانقض جيرة سنو على ذراعاه ، لكنه ردهم فى سورتاه ، وأهوى يده على دواة أخرى لم يلبث أزيزها أن سمع فى القاعة وهى تمرق الى اللوحة حيث

تخطمت . . . فساد الهرج والمرج ، وحمل سنو الى الخارج مغلوبا على أمره .

. وانقضى عام على هذا الحادث فاذا بي أتسلم كتابا من قلب كنده ، واذا به من سنو . واليك ما كتب :

«..كان خرقا ما اقترفت إذ تظاهرت على العميد وقذفت وجه العلم بالدوى .
لقد رجعت إلى وطني أنشد آلهتي القدامي بعد أن فقدتهم . وبيننا أنا أسلك ذات
صباح طريق القرية إلى مياه هورنين كما كنت أفعل من قبل آلاف المرات ،
وجدت على الأرض ريشة زاهية الألوان كالتى كنت ألقى في طريقى كما تعلم ،
فالتقطتها لأتبين أى إله بعث بها تحية إلى ، فاذا بها ريشة بسيطة من ريش مالك
الحزين ، ريشة مركبة من : كاسيوم وكوبلت ٣ »
من ذلك الحين لم أسمع عن سنو شيئا .

النفـس الامارة

ثلاث قصص ليتوانية للشاعر الألماني هرمانه سودرمانه مؤلف « الصراط » و « عجوز الهم » ترجمها عن الألمانية الكاتب المدقق الأستاذ محمود ابراهيم المرقى كما ترجم أخوات لها من قبل ، فأخرج بها ثلاث آيات فنية فى تحليل النفس ، وثلاث صور شعبية دقيقة لأهالى ليتوانيا التى تردد ذكرها فى الميدان الشرقى من هذه الحرب .

وسودرمانه نقادة لا يفوته شىء فى تحليل الغرائز ، صادق التعبير عن خلجات النفس ، تستحوذه تلايفها فلا يضطرب ولا يختلط عليه الأمر . شائق الأسلوب ، وصفاة لا يئمل ؛ يكاد الأستاذ المرقى ينفرد بترجمة قصصه ، فهو حريص عليه ، دقيق كل الدقة فى ترجمة آثاره .

وستظهر « النفس الامارة » قريباً عن هذه الدار :

دار سمر مصر للطباعة والنشر

التي لا تألو جهداً فى نشر الثقافة الحققة بأقلام كبار الكتاب وأعلام الأدب والفن .

عقريات خالدة لمشاهير الكتاب

الثنى

ص

- ١ (أبو الشهداء (الحسين بن علي) للاستاذ عباس محمود العقاد ٢٥
- ٢ (الرباط المقدس » توفيق الحكيم ٢٥
- ٣ (هذه الشجرة » عباس محمود العقاد ٢٥
- ٤ (توفيق الحكيم للاستاذين اساعيل آدم و ابراهيم ناجي ٢٠
- ٥ (أبو العلاء المعري (دفاع ابن العديم عنه) للاستاذ سامي الكيالي ٢٠
- ٦ (عبرات وبسمات » محمود ابراهيم الدسوقي ٢٥
- ٧ (داعي السماء (بلال بن رباح) » عباس محمود العقاد ٢٥
- ٨ (أبو حنيفة » عبد الحليم الجندى ٣٠
(بطل الحرية والتسامح في الاسلام)
- ٩ (ملك الطفيلين » توفيق الحكيم ٢٥
- ١٠ (تحت شمس الفكر » » » ٢٥
- ١١ (فوق الحياة » عبد الرحمن الخميسي (تحت الطبع)
- ١٢ (أشواك » سيد قطب (» »)
- ١٣ (أخطر مواقف الصحفيين » عبد الحميد حمدي (» »)
- ١٤ (فرعون الصغير » محمود تيمور بك (» »)
- ١٥ (مسرحيات توفيق الحكيم » توفيق الحكيم (» »)
(المجلد الأول)
- ١٦ (» » » » » » (» »)
- (» » » » » » (» »)
- ١٧ (» » » » » » (» »)
- (» » » » » » (» »)
- ١٨ (النفس الأمارة » محمود ابراهيم الدسوقي (» »)

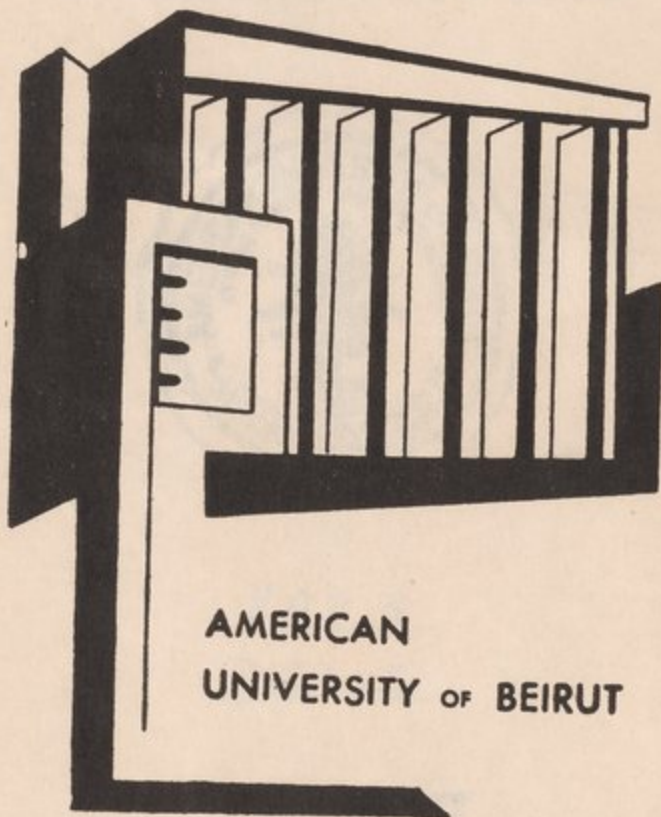


808
الدسوقي، محمود ابراهيم
عبرات ويسمات

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030497



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

